BOBST LIBRARY
3 1142 01381 7864

New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

Phone Renewal:
212-998-2482
Wed Renewal:
www.bobcatplus.nyu.edu

DUE DATE	DUE DATE	DUE DATE
ALL LOAN ITEMS ARE SUBJECT TO RECALL		

PHONE/WEB RENEWAL DUE DATE

NYU Repro:159185

8820
X12
41
Ibn Ḥazm, ʿAlī ibn Aḥmad
11-

رسائل ابن حزم الأندلسي

/Rasā'il ibn Ḥazm al-andalūsī/

«المجموعة الأولى»

V.1

حققها وعلق عليها وقدم لها

الدكتور
إحسان رشيد عباس
كلية الحقوق الجامعية

N. Y. U. LIBRARIES

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الخانجي بمصر
ومكتبة المثنى ببغداد

AZROU · S.M.N.R.H. · XII · REGIS · DE · THOMOLUM

مطبعة دار الهنا بشارع الصحافة ببولاق مصر

Near East

PJ
7750
.I25
R3
1954
v.1
c.1

PJ
7803
.I3
v.1
c.1

NYU LIBRARIES

مقدمة

— ١ —

فى مكتبة « شهيد على » بالآستانة مخطوط رقمه ٢٧٠٤ ، يرجع تاريخ نسخه إلى القرن العاشر الهجرى ، مكتوب بخط نسخ جميل ولكن ما يكاد القارىء يمضى فى قراءة سطوره متأملا متمعناً حتى يحكم بأن جمال خطه يحجب وراءه كثيرا من الخطأ والتحريف . ويحتوى هذا المخطوط على ٢٦٥ ورقة ، فى كل ورقة ٢٣ سطراً ، وفى كل سطر عدد من الكلمات يتراوح بين ١٠ و ١٤ كلمة . ويشمل فى مجموعه كتابا لابن حزم الأندلسى اسمه « كتاب الأصول والفروع » أو « كتاب يشتمل على أصول وفروع شتى » . وأبواب هذا الكتاب فى جملتها صورة أخرى لكثير من الفصول التى وردت فى كتاب « الفصل فى الملل والنحل » لابن حزم ، مع اختلاف يسير فى التعبير ، لعله يوحى بشىء من الإيجاز والتلخيص ، أو لعل هذه الفصول كتبت قبل أن يكتب « الفصل » ثم أدخلها ابن حزم فيه كما هى عادته فى تواليفه ، على أن أحد الذين تملكوا هذا الكتاب ، كتب على هامش الورقة (٩٠) يقول إنه قرأ هذا الكتاب وهو كتاب المجلى لابن حزم من أوله إلى آخره قراءة بحث وتحقيق على الامام شهاب الدين أحمد الميلى المالكى . والمجلى هو الكتاب الذى شرحه ابن حزم فى المحلى ، ولكن المشابهة بين كتاب الفروع وبعض فصول كتاب الفصل تكاد تكون تامة حرفية ، فلعل متملك الكتاب وهم فيما قال .

ويلى كتاب الفروع خمس عشرة رسالة وردت على الترتيب التالى :

١ — رسالة البيان عن حقيقة الايمان .

٢ — رسالة فى معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها .

٣ — رسالة الدرة فى تحقيق الكلام فيما يلزم الانسان اعتقاده .

٤ — رسالة التوقيف على شارع النجاة .

٥ — رسالة فى الرد على ابن النغريلة اليهودى .

٦ — رسالة فى الرد على الهاتف من بعد .

٧ — رسالة فى مسألة الـكلاب .

٨ — رسالة فى الجواب عما سئل عنه سؤال تعنيف .

٩ — رسالة فى مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق .

١٠ — رسالة فى الإمامـة .

١١ — رسالة فى ألم الموت .

١٢ — رسالة فى أرواح الأشقياء .

١٣ — رسالة فى الغناء الملهى .

١٤ — رسالة التلخيص لوجوه التخليص .

١٥ — رسالة فى مراتب العلوم .

وتنقطع الرسائل عند هـذا الحد ، وتنتهى مشتملات المخطوطة دون أن تتم ، إذ كان يجب أن ترد بعد الرسالة الخامسة عشرة رسالة « فى الوعد والوعيد وبيان الحق فى ذلك ... من السنن والقرآن » [كتبها] إلى الأمير أبى الأحوص معن ابن محمد التجيبى صاحب المرية .

ولما حصلتُ على صورة لهذا المخطوط الذى وصفته ، من معهد المخطوطات بالجامعة العربية ، وهو المعهد الذى وقف نشاطه الجم على جمع التراث العربى من أنحاء العالم ، تأملت هذه الرسائل وأنفقت وقتاً فى دراستها ، ثم اخـترت من بينها الأولى والثانية والرابعة والسادسة والتاسعة والحادية عشرة والثالثة عشرة والخامسة عشرة وأعددتها للنشر ، وأبحتُ لنفسى تغيير ترتيبهـا وتصويب ما رأيته فيها لا يستوى مع الوجه الصحيح كما رقمت فقرات الرسالة المعنونة باسم « رسالة فى مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق » وهى — فيما أظن — الرسالة الوحيدة التى نشرت قبل اليوم ، دون سائر الرسائل التى تضمنتها المخطوطة فقد نشرت ثلاث مرات :

١ — بعناية محمد هاشم الـكتبى (بمصر أو دمشق) ١٣٢٤ هـ

٢ — بعناية الشيخ عمر الحمصانى ، وذكر أن فيهـا زيادات على الطبعة الأولى ١٣٢٥ هـ .

٣ — طبعة الجمالية ١٩١٣ ، ومعها كلمات فى الأخـلاق لقاسم أمين وتشغل

رسالة ابن حزم الصفحات من ٢ — ٥٣ ، وقد ذكرنا شرها أنها الطبعة الأولى . وهذه الطبعة الموسومة برقم (٣) هى التى استطعت الحصول عليها وقارنت بها النص الموجود لدى . ورمزت لها بالحرف « م » ووجدت من المقارنة أن نسخة « شهيد على » تزيد عن المطبوعة زيادات كثيرة ، وتوضح عبارات تبدو مستغلقة فى المطبوعة « م » ، غير أنى لم أثبت هذه الفروق والزيادات لأن « م » ليست أصلا أعتمده ، وإنما اكتفيت بالإشارة إلى ما أفدته من « م » نفسها فى التصويب والزيادة على الأصل الذى لدىّ .

وفى الترتيب الذى اصطنعته لم أقصد إلى معنى خاص ولكنى حاولت أن أقدم ابن حزم إلى القارىء وهو يعنف فى خصومته ويشتد فى رده ، فذلك جانب هام شغل جزءاً كبيراً من حياته ، ثم أتبعت ذلك بصورة ابن حزم وهو يتحدث إلى بعض أصدقائه فى رسالة « البيان عن حقيقة الإيمان » . وأوردت بعد ذلك رسالتين متقاربتين فى موضوعهما تدوران حول العلوم وقيمتها . وفى رسالة « الغناء الملهى » التى جاءت بعد هاتين الرسالتين ما يصور ابن حزم الناقد للإسناد ، فى سعة اطلاع ومعرفة وافية بالرجال وأصول التعديل والتجريح ، حتى إن الرسالة حين عُرِضت على ابن عبدالبر لم يستطع أن يزيد عليها شيئاً من عنده . ويجىء بعد ذلك فصلان قصيران أحدهما فيه برهان على أن الموت لا ألم له ، والثانى عن معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها ، وهذا الفصل يمتاز بجمال مزيد لأنه يرتكز على نوع من المناجاة ولأن ابن حزم راعى فيه جمال الأسلوب على غير عادته فى سائر رسائله . وختمت هذه الرسائل جميعاً بصورة لابن حزم الحكيم المجرب الذى يدرس الحياة والأخلاق ، ويتغلغل فى المجتمع فليس هو ابن حزم الثائر فى مطلع الكتاب وإنما هو المصلح الهادىء الذى يتطلع إلى الوجود بعين فاحصة وذكاء حاد ، ويسجل خواطره فيما يراه ويسمعه على شكل مذكرات متقطعة .

— ٢ —

ومن هذه المذكرات المتقطعة ومن نظرات أخرى نثرت هنا وهناك فى تلك الرسائل ، يستطيع الدارس أن يقيم أسساً لفلسفة ابن حزم الاجتماعية . وقد تبهنى هذا الخاطر أول ما اتصلت به نفسى أن ابن حزم ربما كان من أولئك الرواد الذين مهدوا لابن خلدون طريقه لوضع علم الاجتماع ، فذهبت أقارن بين الرجلين

ودلتنى المقارنة على اتفاقهما فى بعض المظاهر مثل اعتقادهمـــا أن التاريخ علم شريف الغاية « لأنه يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم والأنبياء فى سيرهم .... حتى تتم فى ذلك فائدة الاقتـــداء لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا » (المقدمة : ٩ ط . التجارية) .

ومنها إبطال علم النجوم لبطلان إمكان التجربة التى تحتاج آماداً طويلة لا يفى بها العمر الانسانى ، ومنها الإيمان بسلامة البداوة فى أجسام أهلها واستغنائهم عن علم الطب بطرقهم الخاصة ، إلى غير ذلك من نظرات لو جمعت لكان منها قدر صالح لإثبات مدى التشابه ، ولكنه — فيما يبدو لى — تشابه ظاهرى يصل إليه كل مفكر على انفراد دون تأثر أو اتباع . وربما لم يكن ابن حزم من الأشخاص الذين تأثر بهم ابن خلدون ، فابن خلدون لا يذكره بين من عنوا بشىء من التفسيرات الاجتماعية ، ولا يحيل عليه حين ينصح الطلبة بقراءة كتب تفهمهم حقيقة السنة الإسلامية وتؤمن لديهم سلامة العقيدة ، وربما كان اتباع ابن خلدون للمذهب المالكى يباعد بينه وبين الاستئناس إلى رأى رجل ظاهرى كابن حزم كان عنيفا فى خصومته للمالكية . ثم هنالك ذلك البون الشاسع فى النظرة الاجتماعية عند كل منهما ، فابن حزم أقرب إلى الفيلسوف الأخلاقى ، ومن هذا الوضع نفسه ينظر إلى المجتمع ، ويهتم بالفرد اهتماما بالغاً ، أما ابن خلدون فإنه عالم اجتماعى لا يعير الفرد فى فلسفته ومبادئه أدنى اهتمام . وابن حزم صاحب مذهب قائم على الاكتفاء بالنقل ، وهو يتخذ من هذا النقل شاهداً على صحة النبوات والشرائع والتواريخ بينما لا يرضى ابن خلدون بالنقل وحده فى الخبر ، لأنه يتحمل الخطأ والدس والتشويه ، ومع كل ذلك فإن ابن حزم يظل مقدمة صالحة لذلك السموق الشامخ فى الفكر الإسلامى كما يمثله ابن خلدون : أولا فى تلك النظرة الإجلالية للتاريخ واعتباره علماً وثانياً فى ذلك التقدير لمعنى التعاون فى الحياة الاجتماعية ، ذلك المبدأ الذى تلقاه ابن حزم عن أستاذه ابن الكتانى ودان به فى نظـــرته للمجتمع ، فقد كان ابن حزم معجبا بقول ذلك الأستاذ « إن من العجب من يبقى فى هذا العالم دون معاونة لنوعه على مصلحة ، أما يرى الحراث يحرث له ، والطحان يطحن له ، والنساج ينسج له ... وسائر الناس كلّ متولّ شغلا له فيه مصلحة وبه إليه ضرورة » (ص : ٨٣ من هذا الكتاب) . وعلى بساطة هذا الكلام فإنه يحمل أن يكون

أساساً لتحويل الناس فى المغرب عن الاتكالية والخمول اللذين كانا يصحبان التصوف حيثما حلّ . ومن هذه النظرة الايجابية إلى التعاون الإنسانى فى المجتمع المغربى ، ومن تفشى الحياة الخاملة فى طبقات الصوفية هنالك استمد ابن خلدون ، ولا بد ، شيئا من تفسيراته . ومن مغالاة أهل الظاهر وإغراقهم فى الاعتماد على النقل تولد لديه ما يبصره بالطريقة المثلى لتصحيح الأخبار وتمحيصها ، فاهتدى إلى ضرورة المعرفة بالعمران البشرى وقاده هذا إلى البحث عن مبادىء كامنة وراء ذلك العمران . وإن رسالة «مراتب العلوم» ورسالة «مداواة النفوس» المدرجتين فى هذه المجموعة لتصلحان للمقارنة الدقيقة بفصول من المقدمة ، دون أن توحى تلك المقارنة بشىء من الافتعال والاقتسار .

— ٣ —

والحياة الاجتماعية — فى رأى ابن حزم — تقوم على محور ، أحد طرفيه موجب والثانى سالب ، أما الطرف الموجب فاسمه « الطمع » ومعناه بهذا التعميم : المحرك أو الدافع الداخلى الذى يوجّه الفرد نحو هذا الشىء أو ذاك . فالطمع أصل فى كل المظاهر الاجتماعية التى نراها من حب وطموح وحياة مادية وغير ذلك . وإذا أخذنا الحب مثلا لنفسره على مبدأ الطمع وجدنا أنواعا من الحب تختلف فى الظاهر ، وترجع كلها إلى أصل واحد هو « الطمع فيما يمكن نيله من المحبوب » . ألست ترى جميع أنواع المحبين يتفقون فى النهاية ، فيموت الوالد أسفاً على ولده ، والعاشق حزناً على معشوقته ؟ كما يتفقون فى التعبير عن هذا الحب فيغار الرجل على صديقه كما يغار الآخر على زوجه . ثم تأمل من يقرّ برؤية الله تعالى ويحنّ إلى تحققها تجده لا يقنع بشىء دونها لطمعه فيها ، ولكن الذى لا يؤمن بها أى لا يطمع فيها لا يحس بها أصلا ، وترى المسلم يحب ابنة عمه حبا مفرطاً على قدر طمعه فى أن تصير اليه بينما نجد النصرانى الذى لا يحق له الزواج من ابنة عمه لا يحس نحوها بشىء إطلاقا ، وترى هذا النصرانى نفسه يعشق أخته من الرضاع بينما لا يحس المسلم بعاطفة نحوها لقلة طمعه فيها . ومعنى ذلك أن هذه الظاهرة الإنسانية التى تسمى « الحب » ليس لها وجود إيجابى — فى رأى ابن حزم — إلا عندما يدفعها الطمع

إلى الوجود فتوجد وتتشكل وتصبح فعالة فى حياة صاحبها . ولا يقتصر الطمع على توجيه الحياة الاجتماعية نحو الخير بل هو سبب للشر ، وهو يدعو صاحبه إلى الذل ، وهو الذى يحرك فى الأفراد الأنانية العمياء حتى ليجعل بعض الناس يفضل إنجاز شئونه الخاصة قبل شئون بلده ووطنه ويؤدى بشخص آخر إلى أن يتلف نفسه ونفوس الآخرين فى سبيل الحصول على مايحدوه الطمع إليه .

فإذا كان الطمع بهذه القوة فى حياة الأفراد فمن الطبيعى أن ينشأ عنه « الهم » وهو الطرف السالب فى محور الحياة الاجتماعية .

ويصف ابن حزم جميع أدوار الحياة ومظاهرها بأنها محاولة لطرد الهم ، وأن الناس جميعا يتفقون فى هذه الغاية سواء فى ذلك المتدين ومن لادين له ، والخامل والزاهد والفيلسوف العازف عن اللذات وغيرهم . فطالب المال يكد فى سعيه ليطرد « هم الفقر » والساعى وراء الشهرة يجرى إليها ليطرد « هم الخفاء والخمول » ، والراغب فى اللذة يطلبها ليطرد « هم الحرمان من اللذة » . وقل مثل ذلك فيمن أكل وشرب وتزوج ولعب ، فإن من يقوم بهذه الأمور إنما يحاول طرد الهم الناشىء عن أضدادها .

ولكن المنافسة فى هذه الأمور تخلق هموماً جديدة كطعن حاسد أو ذم ذام . أما الشىء الذى يقتلع الهم من جذوره دون أن يثير بين عناصر المجتمع هما جديداً فهو التوجه إلى الله تعالى ، فتلك هى الغاية السليمة التى يمكن أن يسعى اليها الفرد مطمئنا ، يقول ابن حزم : « فاعلم أنه مطلوب واحد وهو طرد الهم ، وليس إليه إلا طريق واحد وهو العمل لله تعالى ، فما عدا هذا فضلال وسخف » .

ويظهر أن ابن حزم يؤمن بقوة الطمع فى تكبير جانب الشر فى الحياة ، ومن ثم آمن بأن الهم دائما شر ، ولكنه نسى أن الأكل والشرب والزواج واللعب وغيرها من الأمور التى تقوم بها الحياة الإنسانية ليست شرا وإن سخرت لطرد الهم ، وأن التوجه الى الله تعالى لا يقضى عليها ، بل هى متجددة لأنها ضرورية ، ومن ثم يصبح طرد الهم ملازما لبقاء الحياة الإنسانية لا يزول إلا بزوالها . فإذا ارتبطت هذه الأمور كلها بغاية واحدة ، وهى التوجه إلى الله تعالى فليس ذلك طرداً

للهم ، ولكنه تهوين لشأنه ، وتقليل لأثره فى السعى والعمل الإنسانى على ظهر هذه الأرض .

ومن هذه الملاحظة يتبين لنا أن ابن حزم يقترب فى بعض نظراته الاجتماعية من رجال المدرسة النفسية ، فنظرية « الطمع » تشبه إلى حد كبير ما يقال عن الغرائز وأثرها ، بل إن اتخاذ اسم واحد للدوافع فى نفس الفرد يقترب من رأى فرويد فى حصره جميع الطاقات الغريزية فى الانسان تحت اسم « ليبيدو » واتخاذه غريزة الجنس ممثلة لكل تلك الطاقات والقوى . أما طرد الهم فيمكن أن يشمل ما يسمى فى علم النفس الجماعى ، «الصراع النفسى والاجتماعى » وهذان النوعان من الصراع قد يحتوى أحدهما الآخر ، وقد يستقل عنه ، ولكن فى الربط بين طرد الهم وفكرة التوجه الى الله يقترب ابن حزم من فكرة « الصراع الاجتماعى » الذى يتمثل فى توجيه الرغبات الدنيوية نحو غاية مثالية .

ومهما يقل فى نقد الآراء الاجتماعية التى أوردها ابن حزم فلا يزال بعض تلك الآراء يقرّبه إلى أنفسنا . فنحن نحسّ كأن ابن حزم يتحدث عن مشكلاتنا الحاضرة وهو يقول : أشد الأشياء على الناس الخوف والهم والمرض والفقر (ص = ١٦٦ من هذا الكتاب) ونحن أيضا نعجب إعجابا بالغا بنفاذ نظرته فى المجموعة البشرية وشئونها حين يقول : «تأملت كل ما دون السماء وطالت فيه فكرتى فوجدت كل شىء فيه من حى وغير حى ، من طبعه إن قوى أن يخلع على غيره من الأنواع هيأته ويلبسه صفاته ، فترى الفاضل يود لو كان كل الناس فضلاء وترى الناقص يود لو كان كل الناس نقصاء ، . . . . . وكل ذى مذهب يود لو كان الناس موافقين له (ص : ١٤٩ من هذا الكتاب) . وعلماء الاجتماع المحدثون يرون فى هذه الظاهرة ميلا إلى « الانسجام الاجتماعى » .

— ٤ —

وتسلمنا هذه النظرات الاجتماعية إلى ذلك المبدأ العام الذى لوّن تفكير ابن حزم فى كلياته وجزئياته وهو « التوجه إلى الله تعالى » ، فقد كان هذا الاعتبار حاضرا فى ذهنه عند كل قولة يقولها وكل رأى يبديه حتى استسلمت فلسفته إلى نوع من الزهد يوحى لأول وهلة أنه يتعارض مع مبادئه الاجتماعية ، ولكنه فى الواقع

زهد صحيح سليم ، تستطيع أن تعتبره تحقيقاً دقيقاً للسنة الاسلامية ، ولا يضطلع به ، بمثل هذا الوضوح ، إلا رجل كابن حزم فى تحرّيه ودقته وسعة اطلاعه وتشرُّبه لروح الدين الإسلامى، فابن حزم مؤمن بقيمة الزهد ، وتوجهه نظرته التشاؤمية أحيانا الى تحبيب العزلة ، ولكنه فى مجموع نظرته يفهم أن الزهد هو التغلب على النفعية جهد الطاقة ، وأنه التربية النفسية التى تضحى بالعجب وتقضى عليه ، ولذلك وفر كثيراً من جهده على توضيح الطرق التى يحارب بها العجب ، ومضى يدرس الأفراد حتى يقف على دوافع هذه الرذيلة فى أعماق نفوسهم ليستطيع القضاء على تلك الدوافع فى منابتها . والزهد أيضا هو التلون المحمود الذى يمثله الرسول ، وقد لخص ابن حزم سيرة الرسول فى هذه الناحية تلخيصا مبدعا حين قال « وقد كان رسول الله (ص) وهو القدوة فى كل خير والذى أثنى الله تعالى على خلقه والذى جمع فيه تعالى أشتات الفضائل بتمامها وأبعده عن كل نقص يعود المريض مع أصحابه راجلا فى أقصى المدينة بلا خف ولا نعل ولا قلنسوة ولا عمامة ، ويلبس الشعر إذا حضره ، ويلبس الوشى من الحبرات إذا حضره ، لا يتكلف الى مالا يحتاج اليه ولا يترك ما يحتاج اليه ، ويستغنى بما وجد عما لا يجد ، ومرة يمشى حافيا راجلا ، ومرة يمشى بالخف ، ويركب البغلة الرائعة الشهباء ومرة يركب الفرس عريا ومرة يركب الناقة ومرة يركب حمارا ، ويردف عليه بعض أصحابه ، ومرة يأكل التمر دون خبز . والخبز يابسا ، ومرة يأكل العناق المشوية ، والبطيخ بالرطب والحلوى ، يأخذ القوت ويبذل الفضل ويترك ما لا يحتاج اليه ، ولا يتكلف فوق مقدار الحاجة اليه ، ولا يغضب لنفسه ولا يدع الغضب لربه عز وجل [ص : ١٤٣ من هذا الكتاب]

ولا شك أن رجال الدين الذى دعوا إلى الزهد الخالص فى الدنيا أو الذين يفعلون ذلك ، فى حاجة إلى أن يقرأوا هذه النبذة القصيرة التى تحدد معنى الزهد الطبيعى .

وبمثل هذه البصيرة النافذة وذلك الذكاء المدهش استطاع ابن حزم أن يحل كثيرا من المشكلات التى أثارتها حياة الزهد على مر العصور ، فقد كان الزهاد يتجادلون حول الفقر والغنى وأيهما أفضل : الغنى أو الفقير ، ولما سئل ابن حزم « آلبلاء أفضل أم العافية والفقر أفضل أم الغنى؟ » أجاب دون تردد : هذا سؤال

فاسد ، إنما الفضل للعباد بأعمالهم . . . . . ونحن نسأل الله تعالى العافية والغنى ونعوذ بالله من البلاء والفقر ، وإنما الفضل بالصبر والشكر [الرسائل: الورقة ٢٣١]

وفى موطن آخر استطاع ابن حزم أن يوقفنا على رأى صريح واضح فى مشكلة الزهد الذى يدعو إلى المغالاة فى التعبد فقد سئل : ما الحدُّ الأعلى فى التعبد ؟ فكان جوابه : أنا أكره لكل واحد أن يزيد عن عدد ما كان يتنفل به نبيه محمد لوجهين : أحدهما : قول الله عز وجل « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » . والثانى أن يخطر الشيطان فى قلبه ، فيوسوس أنه قد فعل من الخير أكثر مما كان محمد يفعله فيهلك فى الأبد ، ويهبط عمله ، ويجد صلاته وصيامه فى ميزان سيئاته [رسالة التلخيص لوجوه التخليص ، الورقة : ٢٤٢]

— ٥ —

فإذا كان لابن حزم نظرات اجتماعية صادقة أو فلسفة أخلاقية موضحة الحدود فلا بد أن تدرس هذه النواحى عنده فى ظل فكرته الدينية ، فهى التى كانت توجهه وتأخذ بيده فى كل سبيل وإن لم يَخلُ من تأثر عام ببعض مبادىء الفلسفة الأخلاقية عند أفلاطون وأرسطوطاليس كمحاولته أن يفسر قيام الفضائل على أربعة عناصر — تنشأ من تجمعها المركبات — وهى العدل والفهم والنجدة والجود ، وهذا يذكرنا برأى لأفلاطون ، كما يذكرنا مبدأ التوسط بين طرفين بتعريف الفضيلة عند أرسطو طاليس . ولا شك أن كثيرا من محاكمات ابن حزم تظهر تأثره بالفلسفة والمنطق ، وهو الشىء الذى عابه به خصومه وشنعوا عليه بسببه . ولكن لا شك أيضا أن الفكرة الدينية هى العامل الرئيسى فى توجيه ملكاته وذكائه ، فبها استطاع أن يقول إن علم الشريعة أفضل العلوم وأجلها ، وبسببها يظهر ابن حزم الناقد الأدبى جائراً فى أحكامه على الشعر ، فهو يراه من العلوم المتأخرة ، ولكنه فى حكمه خاضع لمبادئه الخلقية تمام الخضوع . ويرى أن يكون منهج التعليم قاصراً فى الشعر على شعر الحكمة كأشعار حسان وكعب بن مالك وصالح بن عبد القدوس ، ويرى كذلك أن يحال بين الطلبة وبين رواية أربعة أضرب من الشعر هى الغزل وأشعار التصعلك وأشعار التغرب وشعر الهجاء (انظر ص ٦٥ — ٦٧ من هذا الكتاب) وهذا التقدير للشعر صادر عن مبدأ تربوى قائم على تحكيم المبدأ الخلقى فى تقويم الفن . ومهما يكن رأينا فى ابن حزم الناقد ، فلا شك أنه فى موقفه من الشعر

يمثل حلقةً فى تلك السلسلة الطويلة من قياس الشعر بمقاييس خلقية ، وإذا نحن أنكرنا هذا الرأى على ابن حزم فما هو إلا إنكار نظرى ، لأننا نتبع ما يقوله بالفعل فى تدريس الشعر للطلبة قبل انتقالهم إلى طور النضج ، ونجنبهم قراءة جزء كبير مما نهى عنه ابن حزم ، ولعل هذا عينه هو ما عناه ابن حزم فى نقده للشعر لأنه يرسم منهجا فى التعليم ويُخضع كل العلوم لمقاييس تربوية .

— ٦ —

وبعد : فأنا مغتبط بكل ما بذلته من جهد فى تحقيق هذه الرسائل لأنى أومن بأنها تفتح أمام الدارسين ضروباً من الآراء والخواطر ، وليس يتسنى فهم شخصية ابن حزم نفسه دون الاطلاع عليها ، وبحسبها أنها تطلعنا على صفحة من كيد خصومه له وعلى ما كانوا يلصقونه به من تهم ، وتعرّفنا على الذين وقفوا يدافعون عنه ، وتدلنا كيف استعان أولئك الخصوم بالعلماء فى الأمصار ليوقفوا ابن حزم عند حدّه فكتبوا إلى ابن زياد بدانية ، وعبدالحق الصقلى بصقلية . وهى ترسم لنا جانبا من أحواله العامة — كيف أصيب بمرض أنساه كثيرا مما كان يحفظ ، وكيف هاجمه ربو فى الطحال نغص عليه سروره وأمال خلقه وأقصاه عن الفرح . وتدلنا أيضا كيف شاع عنه بين أصدقائه أنه لا يحفظ سرا وأنه يتحدث بكل ما يسمع ، ومع أن ابن حزم أنكر هذا بشدة فإن ميله إلى الاعتراف — ذلك الميل الذى يصوره كتاب « طوق الحمامة » تصويرا وافيا — ينبىء أن اتهام أصدقائه له لم يكن عارياً عن الصحة .

ولن يفوتنى فى ختام هذه المقدمة أن أوجه الشكر لكل من اعانني فى هذ العمل وأخص بالذكر صديقى الأديب الباحث محمد يوسف نجم ، الأستاذ المساعد بالجامعة الأميركية ببيروت ، فإنه اضطلع بنصيب مشكور فى مراجعة هذه الرسائل وتصحيحها ، فله منى وافر الشكر ، وله من الله حسن الجزاء .

وإنى إذ أرجو أن يفيد القارىء من هذه المجموعة ، أتعشم أن أمضى فى تحقيق ما بقى من رسائل ابن حزم ، مستمداً العون والتوفيق منه تعالى ، وهو ولىّ كل توفيق .

احسان عباس

رسالة في الرد على الرهانف من بعد

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين
وصلى الله على سيدنا محمد وآله

رسالة فى الرد على الهاتف من بعد

بسم الله الرحمن الرحيم : من على بن أحمد إلى الهاتف من بعد دون أن يسمى أو (١) يعرف (٢) :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة على محمد خاتم النبيين ، وعلى ملائكة الله المقربين وأنبيائه المرسلين ، ثم السلام على أهل الإسلام ، فإن كنت منهم أيها المخاطب فقد شملك ماعمهم ، وإن لم تكن منهم فلست أهلا للسلام عليك .

أما بعد : فإن كتابين وردا على لم يكتب كاتبهما اسمه فيهما ، فكانا كالشىء المسروق المجحود ، وكابن الغية المنبوذ . كلاهما تتهاداه الروامس . بالسهب الطوامس ، فأجبنا عن الأول بما اقتضاه سفه كاتبه ، وهذا جوابنا عن الثانى :

أما استعاذته بالله من سوء ما ابتلانا الله به - فيما زعم - من الطعن على سادة المسلمين ، وأعلام المؤمنين ، وَقَذْفِنَا لهم بالجهل ، والقول فى دين الله تعالى بما لم يأذن الله به ، فليعلم الكذاب المستتر باسمه ، استتار الهرة بما يخرج منها ، أنه استعاذ بالله تعالى من معدوم ؛ حاشا لله أن يكون منا طعن على أحد من أعلام المؤمنين وسادة المسلمين ، أو أن نقذفهم بالجهل ، أو أن نقول فى دين الله بما لم يأذن به الله ، وإنما وصمنا (٣) بذلك جسارة وحيفا فيما (٤) نسب ، وَصْمَ جيل (٥) معرضين عن القرآن والسنن ، متدينين

---

(١) فى الأصل : أن

(٢) فى آخر الرسالة ما يلمح إلى أن ابن حزم كان يعرف هذا الهاتف من بعد أو الجهة التى ورد منها هاتفه وذلك حيث يقول : وقد استتبنا اللعين المريد المرتد المتوجه إليكم بهذه الأكذوبات المفتراة . . . . الخ

(٣) فى الأصل : وصفنا

(٤) فى الأصل : وجفا مما

(٥) فى الأصل : حبل

بالرأى والتقليد ، لا يعرفون غيره ، مخالفين لكل إمام سلف أو خلف . وأما من كان مجتهدا مأجوراً أجراً أو أجرين فليس ممن يُهمِلُ لسانه ويطلق كلامه ، بما ضرره عليه عائد فى الدنيا والآخرة .

ثم قال : فلم تقنع بهذا المقدار فى من هو فى عصرنا ، ومن كان قبل ذلك من علماء المسلمين . حتى تخطيت إلى أصحاب نبيك محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وقلت إنهم ابتدعوا من الرأى مالم يأذن به الله تعالى لهم ، وأحدثوا بعد موت نبيهم صلى الله عليه وسلم مالا يجوز .

قال علىّ : فاعلم أيها السائل أنك قد كذبت وما يعجز أحد عن الكذب إذا لم يردعه عن ذلك دينٌ أو حياء . معاذ الله من أن ننسب إلى الصحابة شيئاً مما ذكرت ، فكيف هذا ونحن نحمد (١) الله تعالى على ما منَّ به علينا من الجَرى (٢) على سنتهم : من ترك التقليد ورفض القياس واتباع القرآن والسنن ؛ وإنما الواصف لهم بما ذكرت من راء أن أقوالهم لا ينبغى أن تكتب ، وفتاويهم لا يجب أن تطلب ، وأنهم كلهم أخطأوا إلا فيما وافق تقليده فقط ، فهذا هو الذى لا يقدر أحد على إنكاره من فعلكم لشدة اشتهاره ، والحمد لله رب العالمين .

ثم قال : فليت شعرى إذا كان ذلك كذلك عندك ، فسنن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، نَقْل مَن تقْبَلُ (٣) فيها ؟

قال على : فقد قلنا لك إنك تكذب فيما نسبت إلينا ، ونحن نقبل ديننا عن الصحابة ، رضى الله عنهم ، وهم حجتنا فيما نقلوه إلينا ، وفيما أجمعوا عليه وإن لم ينقلوه مسنداً ، ثم عن التابعين الثقاة ، وأفاضل الرواة ، وهكذا عمن بعدهم من المحدثين ، فعن هؤلاء نأخذ ديننا ، ونقبل سنتنا . ولكن ، أيها

---

(١) فى الأصل : بحمد

(٢) فى الأصل : الجزاء

(٣) فى الأصل : يقبل

الجاهل ، أما أنت وضرباؤك فقد استغنيتم بالرأى عن القرآن ، واكتفيتم بالتقليد عن سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما تتعنَّوْن (١) فى نقل سُنة ، ولا تشتغلون بحكم آية ، وهذا أمر لا تقدرون (٢) على جحوده ؛ فليت شعرى ، مَنْ إمامُكمْ فى هذه الطامة ؟ وعن من بلغكم أنه قال : استغنوا بالرأى عن القرآن ، ومعاذَ الله أن يقول هذا أحد من المسلمين لا سالف ولا خالف ؛ وأما نحن فلا نفنى ليلنا ونهارنا ، ولا نقطع أعمارنا ولله الحمد كثيرا ، إلا بتقييد أحكام القرآن ، وضبط آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة أقوال الصحابة ، رضى الله عنهم ، والتابعين والفقهاء من بعدهم — رحمة الله على جميعهم — لا تقدر على إنكار ذلك ، وإنْ رَغِمَ أنْفُكَ ، ونضجتْ كبدك غيظاً . وطريقتنا هذه هى طريقة علماء الأمة دون خلاف من أحدٍ منهم .

ثم قال : أنائمٌ أنت أيها الرجل ؟ بل مفتونٌ جاهل .

قال على : فما نحن ، ولله الحمد ، إلا أيقاظ إذا استيقظنا ، ونيام إذا نمنا . وأما الفتنة فقد أعاذنا الله منها ، وله الشكر واجباً ، لأننا لا نتعصب لواحدٍ من الفقهاء على آخر ، ولا نُثْبِتُ إلى أحدٍ دون رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ولا نتخذ دون الله ولا رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، وليجة . وكيف لا نقطع بذلك وقد وفقنا الله تعالى لملة الإسلام ، ثم لنحلة أهل السنة أصحاب الحديث . ثم يَسَّرَنا لاتباع القرآن وسنن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وإجماع المسلمين ، إذ أحدثتَ وضرباءَكَ سبيلَ الرأى والتقليد ، وأضربْتَ عن القرآن والسنة . فأنت المفتون الجاهل حقاً ، إذْ تنكر على من اتبع القرآن والسنة وإجماع الأمة . وهذه هى الحقائق التى يقطع كلُّ مسلم على أنها الحق عند الله عز وجل - وأما وصفك لنا بالجهل ، فلعمرى إننا لنجهل كثيراً مما علمه غيرنا ، وهكذا الناس ، وفوق كل ذى علم عليم .

---

(١) تقرأ أيضا : تتعبون

(٢) فى الأصل : تقتدرون

وأما قولك « جاهل (١) » فلعلها صفتك ، إذ قامت حجة الله عليك ، وأعرضت عنها لعمى قلبك ، فنعوذ بالله مما ابتلاك به ، ونسأله الثبات على ما أنعم به علينا من الحق .

ثم قال : [ومثلك] قد انطوى على خبث سريرة وأبدى بلفظه ما يجنه ويستره (٢) .

قال على : فنحن نقول : لعن الله الخبيثَ السريرة ، وإنما يعلم السرائر خالقها والمطَّلِعُ عليها . ثم الذى يُسِرُّها لكن ظاهرُهُ مبدٍ عن باطنه . فمن أعلن باتباع كلام الله عزَّ وجل ، والسنن المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإجماع المسلمين ، فذلك دليل على طيب سريرته ، ومن أعرض عن القرآن والسنن وعادى (٣) أهلها واتكل على التقليد ، وخالف الإجماع ، فهذا برهان على خبث سريرته وفساد بصيرته ، ونعوذ بالله من الخذلان .

ثم قال : وما أرى هذه الأمورَ إلا (٤) من تعويلك على كتب الأوائل والدهرية وأصحابِ المنطق وكتاب اقليدس والمجسطى ، وغيرهم من الملحدين .

قال على : فنقول ، وبالله تعالى التوفيق : أخبرنا عن هذه الكتب من المنطق واقليدس والمجسطى : أطالعتها أيها الهاذرُ أم لم تطالعها ؟ فإن كنت طالعتها ، فلِمَ تنكرُ على من طالعها كما طالعتها أنت ؟ وهلاّ أنكرت ذلك على نفسك ؟ وأخبرنا عن الإلحاد الذى وَجدتَ فيها ، إن كنت وقفت على مواضعه منها . وإن كنت لم تطالعها ، فكيف تنكر ما لا تعرف ؟ أما سمعت قول الله عز وجل « فلِمَ تُحاجُّون فيما ليس لكم به علم » (٥) وقوله تعالى « وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به عِلْمٌ وتحسبونه هَيِّناً وهو عند الله عظيم » (٦) .

---

(١) فى الأصل : متجاهل

(٢) فى الأصل : قد قال قد انطوى . . . . . أبدى بلفظه ما تجنه وتستتر . وهى عبارة مضطربة وقد أصلحتها بما يوضح المعنى .

(٣) تقرأ أيضاً : وعاب

(٤) فى الأصل : هذا الأمورات

(٥) آل عمران : ٦٦

(٦) النور : ١٥

ولكن قلة اشتغالك بالقرآن وعهوده تعالى فيه ، سَهَّلَ عليك مثلَ هذا وشبهه. ولو كان لك عقل تخاف به الشهرة (١) ، لم تتكلمْ فى كتب لم تدرِ ما فيها .

ثم خرج إلى السفَهِ الذى هو أهلُهُ فقال : واعلم أن صورتك عندنا أنك جمعت ثلاثة أشياء : قلةَ الدين ، وضعفَ العقل ، وقلةَ التمييز والتحصيل.

قال على : فليعلمْ هذا الجاهلُ السخيف وأشباهُه أنَّ هذه الصورة عندهم (٢) لا عندنا . وأن ذَمَّهم زينٌ لمن ذموه ، ومدحهم غضاضة على من مدحوه لأنهم لا ينطقون عن حقيقة ، وإنما هم كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلا . فليقل بعد هذا ما شاء ، لكن نحن نوضح إن شاء الله تعالى [أن] هذه الصفات التى ذكر هى صفات كاتب الصحيفة الخامسة (٣) . أما قلة دينه : فاعتراضه بالجهل على القرآن . وأما ضعف عقله : فكلامه فيما لا يحسن. وأما قلة تمييزه وتحصيله : فتهديده من لا يحفل به :

عوَى ليروع البدرا (٤) وما كلبٌ وإن نَبَحَا

ثم قال : أما قلة دينك فلما أظهرته من الطعن على الصحابة، وتخطئتك (٥) لهم وتسفيهك لآرائهم .

قال على : فقد كذب هذا ومضى جوابه وأنه هو الطاعن عليهم ، المخطئ لهم ، المسَفِّه لآرائهم ، ببرهان لا إشكال فيه ؛ وأنه تارك لجميعهم إلا ما وافق تقليده ،فأى طعن على الصحابة ،رضى الله عنهم ،أعظم من هذا ! وأما تسفيهه لآرائهم ، فهو يعلم من نفسه ، وغيره يعلم منه ، أن رأيهم كلهم عنده فى نصاب من لا يُلتَفَتُ إليه ولا يُعتَدُّ به فى العلم ، إلا رأى من قلده دينه . فأى سفَهٍ أكثر من هذا وأى تخطئة لهم تفوقُهُ ؟ (٦)

ثم قال : وأما ضعف عقلك ، فلما ظننته بنفسك من أنك قمت بإظهار الحق

---

(١) الشهرة : الشنعة والفضيحة

(٢) فى الأصل : عندهم لا عندهم لا عندنا

(٣) فى الأصل : الخامسة

(٤) فى الأصل : ذا البدء

(٥) فى الأصل : وتحطيطك

(٦) فى الأصل : تفوته

وبيانه ، وأنه قد صحَّ لك منه ما لم يصحَّ لصحابة نبيك ، صلى الله عليه وسلم ، ولا اهتدوا إليه .

قال على : فلو علم هذا المجنون الفاسق ، أن هذه صفته وصفة أمثاله لأعْوَلَ على نفسه . فأولُ ذلك كذبه علينا أننا ندعى أنه قد صحَّ لنا من الحق ما [لم] يصحَّ لصحابة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا اهتدوا إليه . وكيف هذا ولا نقول بغير السنن التى نقلوها إلينا ، وعرَّفونا بها ، ولا نتعداها . فكيف يصح لنا ما لم يصح لهم وليس عندنا شيء من الدين إلا من قِبَلِهِم ونقلهم؟ فقد صح كذبه جهاراً . أما الصفة التى ذكر فصفته لأنه سلك تقليد مالك ، ولا يختلف اثنان أنه لم يكن قط فى أصحابه رضى الله عنهم ، مقلد لأحد ، ولا موافق لجميع قول مالك حتى لا يحل عنه خلاف لشيء منها ، فقد صحَّ يقيناً أن هذا الجاهل ، كاتبَ تلك الصحيفة ، هو الذى يظن نفسه أنَّه وَقَعَ من التقليد على علم غاب عن جميع الأمة ، فهو العديم العقل حقا ، نعوذ بالله من الخذلان ، ونسأله الهدى والتوفيق .

ثم قال : وأنت إنما نَبَعْتَ فى آخر الزمان وفى ذَنَب الدنيا ، بعد البعد عن القرون الممدوحة(١) ، فى وقت قلة العلم وكثرة الجهل فهذا عند(٢) كل عاقل من فساد حسك ونقصان عقلك .

قال على : فأما قوله إننا فى آخر الزمان ، فنَعَمْ ، وفى ذنب الدنيا والبعد عن القرون الممدوحة ، وفى وقت قلة العلم وكثرة الجهل . ولكن الله تعالى ، وله الحمد ، علَّمَنا من فضله كثيرا ، وَيَسَّرَنا لسلوك طريق الصحابة والتابعين وأهل القرون الممدوحة ، ثم مِنْ بَعْدِهم لأئمة المسلمين وأعلام المحدثين ، إذ صرف قلبك عنهم ، ووفقنا لاتباعهم والتمسك بطريقتهم إذ أعماك

---

(١) أنظر معنى مشابها لهذا فيما رد به ابن حزم على جماعة من المالكية سألوه أسئلة تعنيف (مجموعة الرسائل : الورقة : ١٨١) .

(٢) فى الأصل : غر

عن ذلك ، وهدانا إلى طلب السنة إذ أضلك عنها (١) ، فلله الحمد كثيراً . وقد صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن هذا الدين بدأ غريباً وسيعود غريباً ، طوبى للغرباء (٢) » . ولله الحمد [على ماوهب] (٣) من قوة الحسّ (٤) وتمام التمييز ؛ ومن ضعف حِسِّكَ وعدم عقلك ، إعراضُكَ عن ما أمر الله به من اتباع ما أتاك به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبلت على ما نهاك عنه [من] التقليد .

ثم قال : وأما ضعف تمييزك وتحصيلك فظاهر فى تناقضك . وذلك أنك تَنْهَى عن تقليد الصحابة فمن دونهم وتَحُث أتْبَاعك على تقليدك ، والتعويل على تواليفك ، وتذمُّ القولَ بالرأى ، وأنت تُفْتِى فى دين الله عز وجل ، بما لم يَرِدْ بيانه فى كتاب الله ، ولا على لسان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

قال على : فليعلم هذا الجاهل أنه كاذب (٥) فى أكثر ما ذكر : أما نَهْيُنا عن تقليد الصحابة فمن دونهم ، فأمر لا ننكره ، ونحن فى ذلك موافقون لجميعهم فى نهيهم عن ذلك بلا خلاف . أينكر هذا السائل أمراً قد صح به إجماع الأمة كلها ؟ وهلا أنكر هذا على مالك إذ لا يختلف أحد أن قوله : لا يُقَلِّدُ لا صاحب ولا من دونه ؟ وأما قوله إننا نحض أتباعنا على تقليدنا فقد كذب صراحا بواحا (٦) ، وما نحض أصحابنا وغيرهم ، ولا نملأ كتبنا

---

(١) فى الأصل : ضلك

(٢) انظر تخريج هذا الحديث وشرحه فى رسالة لابن رجب الحنبلى سماها « كتاب كشف الكربة فى وصف حال أهل الغربة » — ط . مطبعة النهضة الأدبية ١٣٣٢ هـ .

(٣) زيادة يقتضيها المعنى

(٤) من قوة : مكررة فى الأصل

(٥) فى الأصل : كاذب فى كاذب فى أكثر . . .

(٦) فى الأصل : نواحاً . والصراح : الخالص والبواح : البين . ويجوز أيضاً براحاً بمعنى جهاراً

إلا بالأمر باتباع القرآن وسنن النبى صلى الله عليه وسلم وإجماع الأمة ، ومطالعة أقوال الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من العلماء ، وعرضها على كلام الله عز وجل ، وكلام نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فلأيهما شهدا (١) قلناه .

وأما دعواه(٢) بأننا نفتى فى كتبنا بما ليس فى القرآن والسنة ، فقد كذب جهاراً علانية ، وكتبنا حاضرة مشهورة ، ظاهرة منشورة ، مافيها كلمة مما يقول . والحمد لله رب العالمين كثيراً . ولو تفكر هذا الجاهل فيمن هو المفتى بما ذكر لسخنت عينه ، ولعظمت مصيبته ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ثم قال : فانتبه أيها الجاهل ، واعرف منزلتك . فإنك جاهل بمقدار نفسك .

قال على : فلو أوصى نفسه بهذه الوصاة(٣) أو قبلها لوفق ، فهى والله صفته يقيناً .

ثم قال : وحالك عند أهل التحصيل على وجهين : أحدهما ضعف العقل وقلة التمييز ، والثانى خبث السريرة وقصد التمويه والتطرق إلى أسبابٍ قد تريدها ، والله تعالى بالمرصاد ، وعالم سرائر العباد .

ثم قال على : فليعلم هذا أن هذه هى صفاته ، وأما تشنيعه بما ذكر فمنزلة نهيق ناهقٍ وعواء عاوٍ . ولن يعدم على ذلك خزياً من الله عاجلا وآجلا ، ومقتاً من عباده عوداً وبدءاً ، والله حسيب كل ظالم .

وأما قوله : لئن(٤) لم تنتبه من رقدتك ، وتستيقظ من غفلتك ، وتبادر إلى التوبة من عظيم ما افتريت ، فسيرد فيك ، وفيمن يقصدك ويترك أن يقيم فيك

---

(١) فى الأصل : فلأيهما شهد
(٢) فى الأصل : دعواهم
(٣) فى الأصل : الموصاة
(٤) فى الأصل : أين

حقَّ الله ، من أجْوبةِ أهل العلم فى أقطار الأرض ما ستعلمه(١) ، وأرجو أن يُريح الله منك العبادَ والبلادَ دون ذلك ، أو يصلحك إن كان قد سبق فى علمه ذلك . ولتعلمن أيها الإنسان ، نبأه بعد حين — فنقول له : أيها المخذول عمّاذا تتوب ؟ عن اتباع القرآن وسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجماع الأمة واتباع جميع الصحابة رضى الله عنهم ، وسلوك سبيل كل عالم فى الأرض من المؤمنين ؟ فمعاذ الله من التوبة من هـذا . وإلى ماذا نرجع ؟ إلى رأى مخلوق لا يُغْنى عنا من الله شيئاً وتقليده ؟ حاشا لله من ذلك . ولعمرى لئن نَصَحْتَ نفسك ونظرت لها ، لترجعنَّ إلى ما دعوناك إليه من اتباع القرآن والسنة وإجماع الأمة ، وإلا فسترد وتعلم .

وقد استتبنا اللعين المريد المرتد(٢) المتوجِّهَ إليكم بهذه الأكذوبات المفتراة ، والفضائح المفتعلة ، وهو ابن البادية ، ولقينا(٣) العتق الذى حمَّقَ مَنْ حَمَّقَ منكم ، ونحن نرجو عادةَ الله فيمن عَنَدَ عن كلامه ، واستغنى عن كلام نبيه محمد صلى الله عليه وسلم « ولينصرنَّ اللهُ من يَنْصرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عزيز(٤) » .

وأما وعيدُكَ بأجْوبة العلماءِ فى أقطار الأرض :

فتلك أضاليلُ المُنَى وغرورُهَا ... سَرَتْ بكمُ فى الترَّهَاتِ البسابس(٥)

العلماء والله قسمان لا ثالث لهما : إما عالم موافق ، وإما عالم أدَّاه(٦)

---

(١) أبان ابن حزم (مجموعة الرسائل : ١٥٩) أن المالكية بالأندلس أثاروا العامة ضده ، ثم لما أخفقوا فى ذلك سعوا به إلى السلطان وكتبوا له الكتب فخذلوا فى ذلك أيضاً « فعادوا إلى المطالبة عند أمثالهم فكتبوا الكتب السخيفة إلى مثل ابن زياد بدانيه وعبد الحق بصقلية فأضاع الله كيدهم » .

(٢) فى الأصل : المرتد المرتد

(٣) فى الأصل : وبقينا

(٤) سورة الحج : ٤٠

(٥) البسابس : الكذب ، والترهات البسابس : الباطل ، وربما قالوا ترهات البسابس على الإضافة

(٦) فى الأصل : آذاه

اجتهاده إلى مخالفتى ، فهو إما سالكٌ طرقَ أهل العلم فى حُسْنِ المُعارَضة والمخاطبة بالحجة لا بالخبط والتخليط والحماقة ، وإما مُمْسِكٌ ساكتٌ ، لا كالطريق التى سلكتَ من التقحُّم فى الفتيا ، قبل أن تُسْتَفْتَى ، والتهالك فى السخف .

وأما قولك : أرجو أن يريح الله منك العباد والبلاد ، فإنما يريح الله من الكافِرِ العانِدِ عن كلام الله وسنَّةِ نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وأما المؤمن فمستريح .

وما أقولُ لك إلا كما (١) قال جرير (٢) :

تمنى رجالٌ أنْ أموتَ (٣) وإنْ أمُتْ
فتلك طريقٌ لستُ فيها بأوحدِ
لعلَّ الذى يبغى وفاتى ويرتجى
بها قبْلَ موتى أنْ يكونَ هو الرَّدِى (٤)

والله لئن متُّ ، ما أسد قبوركم ، ولا أوفر عليكم رزقاً . ولأردنَّ على رب رحيم ، وشفيع مقبول ، لأنى كنت تبعَ كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، لا أتخذ دونهما وليجة . ولكن إن مت أنت ، فتقدمُ والله على ربٍّ خالَفْتَ كتابه ، وعلى نبيٍّ اطَّرَحْتَ أوامره ظِهْرِيًّا وأطعتَ غيره دونه ، فأعِدَّ للمسألة جوابا ، وللبلاء جلبابا ، وسترد فتعلم

---

(١) فى الأصل : وأما قولك كما .

(٢) البيتان من قصيدة فى ملحق ديوان عبيد بن الأبرص : ٨٠ ولم ينسبهما أحد لجرير ، وقال الراجكوتى فى ذيل السمط : ١٠٤ إنه وجد الشعر فى كتاب الاختيارين منسوباً لمالك بن القين الخزرجى وفى تفسير الطبرى ٣٠ : ١٤٥ بيت منسوب لطرفة بن العبد وانظر أبياتاً من القصيدة والخبر المتصل بها فى أمالى القالى ٢ : ٢١٨ والعقد ٤ : ٤٤٣ ومروج الذهب ٣ : ١٣٦ والبداية والنهاية ٩ : ٢٣٢ .

(٣) رواية ديوان عبيد : تمنى مرئ القيس موتى

(٤) رواية البيت فى ديوان عبيد :

لعل الذى يرجو ردای وميتتى سفاهاً وجبناً أن يكون هو الردى

ولا عليك إن متَّ عاجلا أو تأخر موتى ، فلقد أبقى الله تعالى لك ولأمثالك مما أعاننى الله ووفقنى له حزناً طويلا ، وخزياً جزيلا ، وكسراً لكلِّ رأى وقياس (١) ونصراً للسنة مُؤَزَّراً ، ولينصرنَّ الله من ينصره ، فهل تَرَبَّصُونَ بنا إلا إحدى الحسنيين .

وبعد ، فلتطبْ نفسك بعد أن تُذيقها بَرْدَ اليأس ، على أن تُعارِضَ بِهَوَسِ مافى تلك الرسالة الحقَّ الواضح ، وكيف تعارضُ نصَّ القرآن والسنة ؟ هيهاتَ من ذلك . فأقْصِرْ فهو أروح لك ، وأجْمَلُ بك(٢) إن شاء الله تعالى . والسلام على من اتبع الهدى ورحمة الله وبركاته عليه وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد وآله وحسبنا الله تعالى ونعم الوكيل .

تمت الرسالة فى الرد على الهاتف من بعد
بحمد الله وشكره وحسن توفيقه ولله الحمد والشكر
دائما أبداً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

---

(١) فى الأصل : قياساً .
(٢) فى الأصل : واجح لك

رسالة البيان عن حقيقة الإيمان

رسالة البيان عن حقيقة الإيمان

كتب بها رضى الله عنه إلى أبى أحمد عبد الرحمن بن خلف المعافرى الطليطلى المعروف بابن الحوات ، رضى الله عنه .

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله

قال الفقيه الحافظ أبو محمد على بن حزم رضى الله عنه :

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، وعلى آله الطيبين ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، وذريته الفاضلين ، وسلم تسليماً كثيراً وبعد ، فإنه وردنى ياسيدى وأخى كتابك ، أكرمُ كتبِ الأحبة فى الله عز وجل ، وحمدت الله تعالى عز وجل على ما أدى إليه من صلاح حالك ، وأورد علىّ صاحبنا أبو عبد الله محمد بن الحسن (٢) — أكرمه الله — من خبرك ما أبهجنى ، وملأ نفسى سروراً ، فلن تزال الدنيا بخير ، مادام مثلك مرفوع اللواء ، معمور الفناء ، وحمدت الله عز وجل على ما ذكرته فيه من حسن معتقدك لى ، فهذا الذى يلزم بعضنا لبعض ، فنحن غرباء بين المتعصبين على من سلم لهم دنياهم ، ليسلمَ له دينه ، ووقفتُ على قولك فيه : إنه لولا خوفُ المُشَغْبين ، وما دُهينا به من ترؤس الجاهلين ، لكتبتُ أقوالك ومذاهبك وبَثَثْتُها فى العالم ، وناديت عليها كما يُنَادَى على السلع .

فاعلم يا أخى ، وفقنا الله وإياك ، أن خوفك المشغبين لا يكفُّ عنك غَرْبَ أذاهم . لو قدروا لك على مضرة ، وأن كشفك الحق وصَدْعكَ به

(١) كان ابن الحوات إماماً مختاراً يتكلم فى الحديث والفقه والاعتقادات بالحجة ، قوى النظر ، ذكى الذهن سريع الجواب بليغ اللسان وله تواليف جيدة ومشاركة قوية فى الأدب والشعر لقيه الحميدى تلميذ ابن حزم بالمريه ، وتوفى قريباً من سنة خمسين وأربعمائة (أنظر جذوة المقتبس رقم ٥٩٠ وبغية الملتمس للضبى رقم ٩٩٧) .

(٢) يعرف بابن الكتانى وقد ذكر الحميدى (الجذوة : ٣٥) أنه كان ذا مشاركة قوية فى علم الأدب والشعر ، وله تقدم فى علوم الطب والمنطق وكلام فى الحكم ورسائل وكتب معروفة ، ولابن حزم صلة وثيقة به واستشهاد ببعض اقواله — أنظر رسالة ابن حزم فى مراتب العلوم (وهى الرسالة الرابعة فى هذا الكتاب) .

لا يُقدِّمُ إليك مؤخراً عنك . أتخشون الناس ، فالله أحقُّ أن تخشوهُ إنْ كنتُمْ مؤمنين » (١) . يقول الواحد الأول خالقنا لا إله إلا هو « فلا تخافوهم وخافونى » (٢) .

يا أخى : اجتهدْ لربك ، وادعُ إليه وخفْهُ فى الناس ، يكفكَ الله تعالى أمرهم ، ولا تخفهم فيه ، فيدعك وإياهم ، وأعوذ بالله ، قد سبق القضاء بما هو كائن فلن يرده حيلةُ محتال ، وكائن بالموت قد نزل ، فتركتَ من تداريهم مسرورين بذهابك ، لا ينفعونك بنافعة . واذكر قول نبيك محمد عليه السلام لعلى رضى الله عنه « لأن يهدىَ الله بهداك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النَّعَم » .

ولقد أضحكنى قولك : إنك علمت من مذهبى أنى أفْصِحُ بكل من قال مقالة ، فخشيتَ أن أفصح باسمك فيما لم تقُلْه ، فمعاذ الله أن أفصح عنك أو عن غيرك ، إلا باليقين المحض ، وأما إذا علمتُ أن الأخ من إخوانى يكره أن أفصح عنه بمقالة يقولها ، فهى مدفونة خلالَ الشغاف ، لا سبيل إلى تحريك لسانى بها بينى وبين نفسى ، بحيث يمكن أن يسمعنى سامع ، فكيف أن أبُثها ؟ وأما أنا فلست أكره أن تبثَّ عنى ما أقوله على حسبه .

وأما قولك : أما تقصد الآن إلى أن لا يؤثر عليك قول إلا حتى تستخير الله تعالى فيه كثيراً ، وتصحح نيتك فى ذلك ، فحَسَنٌ جداً وحالٌ لا ينبغى لأحد تَعَدِّيها .

وأما قولك : حتى إذا بلغْتَ إلى حد الحسبة والصبر ، إن كانت محنةٌ ، تناوَلتَ الأوكد فالأوكد ، فحالةٌ أريدُ ألا تتصورها ولا تتمثلها فإنها مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ ، وتذكَّرْ قولَ العامة : فلان يحب الشهادة والرجوعَ إلى البيت ، مع أنى أرجو الكفاية من الله عز وجل ، والحماية ،

---

(١) التوبة : ١٣

(٢) آل عمران : ١٧٥

واذكر قوله ووعده الصادق المضمون عندى إذ يقول تعالى « ولينصرنَّ الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » . (١) والله ياأخى، ولله الحمد، لقد حمانى تعالى، وما أعدمنى من مُخالِفى مقالتى مَنْ يذودُ عنّى ويذبُّ عن حوزتى أشدَّ الذب ، وإنى لأدعو الله لهم مَدَى عمرى . أولهم القاضى أبو المطرف عبد الرحمن بن أحمد بن بشر (٢) وأبو عبد الله محمد بن على بن عبد الرءوف الحكم — نوَّر الله وجهيهما ، وجازاهما بأفضل سعيهما ، فلقد قام لى منهما ما يقوم من الأخوين المحبين . ثم أبو العاصى حكم بن سعيد ، غفر الله ذنبه ، وتغمد خطاياه ، وقارضه بالحسنى فإنه أبلى فى جانبى أتم بلاء ؛ وماقصر يونس بن عبد الله بن مغيث شيخنا (٣) نَضَرَ الله وجهه ، وأكرم مُنْقَلَبَه ولقد بلغ أبو جعفر أحمد بن عباس (٤) من ذلك الغاية القصوى ، واستئثار الأجر الجزيل والذكر الجميل . بردّ الله مضجعه ، ولقاه الرَّوْحَ والريحان ؛ ثم الكاتب الفاضل ذو المآثر العالية والفضائل السامية والأعمال الزاكية والسمى المحمود ، أبو العباس (٥) المشغوف بالعلم وتقديم الحسنات كشغف

---

(١) انظر ص : ١١ من هذا الكتاب

(٢) ترجم له الحميدى فى الجذوة (رقم ٥٨٨) وابن بشكوال فى الصلة (ص ٣١٩ — ٣٢١) وابن سعيد فى المغرب (رقم : ١٠٠) والنباهى فى المرقبة العليا (ص ٨٧) . ولاه على ابن حمود القضاء سنة ٤٠٧ فبقى فيه إلى آخر سنة ٤١٩ وكان مامراً بالحكومة مع حلاوة اللفظ وحسن الخط ، وعابه ابن حيان مؤرخ الأندلس بالشعوبية وبتعوده عن الرحلة إلى المشرق ، وإليه كتب ابن حزم قصيدته البائية التى يفخر فيها بنفسه وأثنى عليه بالعلم . وقد توفى أبو المطرف عام ٤٢٢ هـ .

(٣) أنظر ترجمته فى الجذوة : ٩٠٩ والبغية ص ٤٩٨ والصلة ص : ٦٢٢ و المرقبة العليا ص ٩٥ : وكان يونس من أعيان أهل العلم أخذ عنه ابن حزم وابن عبد البر ، وعرف بالزهد والميل إلى التحقيق فى التصوف وألف فيه كتباً وقد تولى القضاء بعد أبى المطرف ، وبعد أن أثنى عليه ابن حيان بمعرفته الحديث والشهرة فى الخطابة والتقدم فى علم اللسان والآداب ورواية الشعر ذمه لأنه لم يحج ، ولأنه كان يحب الدنيا ويزدلف إلى الملوك — توفى يونس سنة ٤٢٩ هـ .

(٤) المشهور بهذا الإسم والكنية فى زمان ابن حزم أبو جعفر أحمد بن عباس الأنصارى وكان كاتباً بارعاً فى الفقه ، معروفاً بحبه الشديد لجمع الكتب وبخله بها ، بلغ مرتبة الوزارة ثم قتله باديس بن حبوس سنة ٤٢٧ هـ . (أنظر الإحاطة ١ : ١٢٩)

(٥) أكاد أقطع بأن أبا العباس هذا هو أحمد بن رشيق الكاتب الذى برع فى صناعة الرسائل وشارك فى سائر العلوم ومال إلى الفقه والحديث وقدمه الأمير مجاهد العامرى على كل من فى دولته ، وكان يجمع العلماء والصالحين ويؤثرهم ويصلح الأمور جهده وقد رآه الحميدى تلميذ ابن حزم وروى عنه (انظر الجذوة : ٢٠٧)

غيره بالأموال واللذات ، صديقك ومحبك ومؤثرك ، لازالت عليه من الله واقية في دنياه فلقد هيأه وَيَسَّرَهُ لمنافع عباده ، وأجرى الصالحات على يده كثيراً . وألحقه إذا دعاه بنبيه في أعلى عليين ، آمين . والله المستعان ، وعليه الاتكال .

أما قولك : إنك تتناول في خلال ما تتناول بضروب من السياسة فحسن جداً . جعلنا الله وإياك من الداعين إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة .

ومن أعجب مامرَّ بي منذ دهر قولك في كتابك : إنه بلغك عني أني أقول عنك إنك تقول : لا إدام إلا الخل ؛ من أجل حديث النبي صلى الله عليه وسلم « نعم الإدام الخل » . (١) فاعلم — يا أخي — أنه قد ساءني هذا جداً أن أكون عندك بهذا المحل . وأقلُّ ما أقول لك : والله الذي لا أقسم بسواه — ولو علمتُ أعظمَ من هذا القسم لأقسمتُ به لك ، وأعوذ بالله أن أعتقد في العالم قسما غيره ، فكيف مثله ، فكيف أشد منه — إن كنت قط سمعت هذه المقالة من أحد من خلق الله تعالى يحكيها لي عنك ، ولا رأيتها عنك في كتاب ، ولا طَنَّتْ على أذني حتى رأيتها في كتابك ، فكيف أن أحكيها عنك . فاستجبني الكذب البحت عليك ! حاشا لله من هذا . وليس هذا النص من دليل الخطاب ، إنما كان يمكن أن يتأول على من يقول بدليل الخطاب : لا نعم الإدام إلا الخل . وأما القطع بأن لا إدام غيره ، فليست هذه القضية مقتضيةً هذه الأخرى . فبالله إلا ما أعرضت عن كل شرير يريد أن يُسْمِعَ الناس سبهم على ألسنة غيرهم .

ورأيت المدرجة ووقفت عليها . أسأل الله أن يجعلنا وإياك ممن يستمع القرآن والقول فيتبع أحسنه ، والجملة التي أوردت من قولي فيها فهو قولي أيضاً . وكذلك وقفت على الفصول التي ذكرتني بها ، أحسن الله جزاءك على ذلك ، فهكذا تكون الناس .

---

(١) أنظر حديث «نعم الإدام الخل» في شرح صحيح مسلم ١٤ : ٦

أولها قولك : انظر هل فرض الله تعالى النظر أم لا (١) فجوابى إنه لم يفترض قط فى التوحيد وصحة النبوة وجميع الشرائع ، النظر ؛ بل إنما افترض فى كل ذلك اتباعَ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقط . ولو فرضه الله تعالى فيها ، ماجاز قبولها من أحد حتى يقرر على الوجه الذى صحّ به عنده التوحيد والشريعة كلها . فتثبت يا أخى ها هنا ، فإن نظرى ونظرك لايحكمان على ميراث الأمة عن نبيها صلى الله عليه وسلم ؛ وإنما افترض على الناس فى الشرائع كلها شيئاً واحدا وهو الائتمار لما جاء به الوحى من عند الله تعالى فقط . فهذا الوجه خاصة ، هو الذى افتُرِضَ على الناس عَقْدُهُ ، والقولُ به ، والعمل . وأما طرق الاستدلال التى عُنِىَ بها المتكلمون فما افترضها الله تعالى قط على أحد . وأقول قَوْلةً أقدِّمُ لك فيها مقدمة تُصلحُ بعضَ ما يمكن أن ينكره منكر من قولى وهى : إنى أريد أن أقول قولا يعيذنى الله من أن أقوله مفتخراً أو ممتدحاً ، لكن سياق الكلام والحجة أوجب أن أقوله وهو : إنى ولله الحمد لست بمنحوس الحظ من هذا العلم ، أعنى علمَ أهل الكلام وطريقتهم فى الاستدلال (٢) فيظن ظان أنى إنما قلت ما قلتُ عداوةً لعلم جهلته ، لا ولكن الحق لا يجوز أن يُتَعَدَّى . وأما قول الله تعالى « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق من شىء » (٣) وقوله « أولم يتفكروا » وقوله « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى ، أفلا

---

(١) تحدث ابن حزم عن هذه المشكلة فى الفصل (٤ : ٣٥) وعقد لها فصلا عنوانه هل يكون مؤمناً من اعتقد الإسلام دون استدلال ، وهو فى موقفه من إنكار الاستدلال والنظر يرد على الطبرى والأشعرية .

(٢) ذكر ابن حزم كيف بقى سنين كثيرة لايعرف الاستدلال ولاوجوهه ثم تعلم طرقه وأحكمها (الفصل ٤ : ٣٨ - ٣٩) قال : فمازادنا يقيناً على ماكنا بل عرفنا أننا كنا ميسرين للحق . . . لكن أرانا صحيح الاستدلال رفض بعض الآراء الفاسدة التى نشأنا عليها فقط كالقول فى الدين بالقياس .

(٣) سورة الأعراف : ١٨٥

يؤمنون » (١) وسائر الآيات التى فى معنى هذا ، فإنك يا أخى إن تدبرتها ، كفينا التعب ؛ وهى أنها كلها بلفظ الحض لا بلفظ الأمر ، وهذا قولى نفسه وأما الأمر بالاعتبار فليس من هذا الباب ، إنما هو الأمر بالاتعاظ بمن هلك ممن عصى الله تعالى فيخاف العاصى له عز وجل مثل ذلك فقط ، وليس شىء من هذا يوجب أنه لا يصح لأحد اسم التوحيد وحكمه عند الله تعالى إلا بأن يكون اعتقاده إياه من طريق الاستدلال .

وأما قولك : انظر الأدلة المحرمة للتقليد (٢) فأنا أريد أن تتفقد وأن تتدبر كلامى ، فإنك تجده صفراً من مدح التقليد ، ومملوءاً من ذمه ؛ وليس فى قولى إن من اتفق له معرفة الحق بمعنى اعتقاده من جهة التقليد فإنه من أهل الحق عند الله تعالى وإن كان مذموماً فى تقليده لا فى اعتقاده الحق ، مايوجب على أنى أبيح التقليد ، وأنا لم أبحه قط ، لا فى التوحيد ولا فى غيره . إنما هو عندى كإنسان خرج ليسرق فاتفق له أن وجد متاعاً له قد كان سرق منه فأخذه : هو مصيب فى اعتقاده الحق ، مسىء فى تقليده . وتأمل القرآن كله لاتجد فيه إلا الحض على البحث لا على إيجابه البتة . وإنما تجد فيه ذم التقليد إذا وافق الباطل فقط ، فهنا لك ذم الله تعالى اتباع الآباء والسادة والكبراء والأحبار . وهنا ذمّه الله على كل حال . وأما إذا وافق الحق فقد قال الله عز وجل « والذين آمنوا واتبعناهم ذُرياتهم بإيمان ، ألحقنا بهم ذُرِّيَّاتِهِمْ » (٣) ، وأمر الله تعالى باتباع ما أجمع عليه أولو الأمر

---

(١) سورة الأنبياء : ٣٠

(٢) انظر المحلى : ٦٦ فى تحريم التقليد وابطاله : وخلاصة رأى ابن حزم أن التقليد هو أخذ المرء قول من دون رسول (ص) ممن لم يأمرنا الله عز وجل باتباعه قط ولا بأخذ قوله بل حرم علينا ذلك ونهانا عنه وأما أخذ المرء قول الرسول فليس تقليداً بل هو إيمان وتصديق واتباع للحق .

(٣) سورة الطور : ١٢ وأتبعناهم قراءة أبى عمرو ، وذرياتهم على الجمع منصوبا فيهما وهى قراءة البصريين وابن عامر وقرأ الباقون بغير ألف على التوحيد ، وقراءتنا فى مصحفنا « واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم » .

منا بخلاف أولى الأمر إذا اختلفوا ، فبهذا جاءت النصوص ولا مدخلَ للنظر على ماجاء به كلام الله تعالى .

وأما قولك لى أن انظر مافى الفطرة من خطأ الاقتصار على الدعوى ، فلم أحمد ذلك أصلاً ، ولاأمرت به ، وإنما قلت وأقول إن المقلِّدَ مذمومٌ فى تقليده ، فإن أصاب الحق بتوفيق الله عز وجل له إليه ، فهو من أهل الحق ، وإن حصل عليه بطريق غرر ، وهما عملان متغايران ، وفق فى أحدهما ولم يحمد فى الآخر . وهذا جواب قولك لى : إذ كلٌّ قائل مدع ، فيجب أن لايؤخذ بقول أحد من المختلفين والقائلين أو يؤخذ بقول جميعهم وكلا الأمرين خطأ . فتأمل ياأخى ، إنك ألزمتنى مالا يلزمنى وأنا لم آمر قط بالتقليد : فاضبط عنى : إنما قلت التقليد مذموم فإن أدى إلى باطل فصاحبه إما كافر إذا وافق كفرا ، وإما فاسق إذا وافق خطأ فى الشريعة ، وإما مخطىء فيه إذا وافق الصواب بالبخت ، ولم أقل قط إنه واجب ، أو يؤخذ بقول مدع ، ولا أنه جائز فضلا عن أن يكون واجباً ، ولا أنه ممكن أيضاً ، ولا قلت قط إنه جائز أن يؤخذ فيقول قائلا ما بلا دليل ، فكيف أن أوجبه ! لكن قلت إن القول بالحق واجب لأنه حق .

أما قولك لى : فكان عندك جائز أن يقول النبى صلى الله عليه وسلم : قلدونى فى قولى . فجوابى إنه عليه السلام لم يقله ، ولو قاله لوجب ولكنه لم يقله ، لكن قال : قولوا لا إله إلا الله وإنى رسول الله ، فهذا واجبٌ بيقين عندالله تعالى وعند كلّ مسلم . ولم يَقُلْ عليه السلام قط ، ولا أحدٌ من الخلفاء بعده ، إنه لا يلزمكم هذا القول أن تقولوه إلا حتى تستدلوا وتناظروا وتعرفوا الجوهر من العرض ومعاذ الله أن يكون هذا واجباً ويغفله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتتفق الأمة الفاضلة كلها على إبطاله وإغفاله . حتى جاءت المعتزلة والأشعرية (١) ، وهما الطائفتان المعروف قدرهما عند المسلمين .

---

(١) أنظر ماسماه ابن حزم شنع المعتزلة فى الفصل (٤ : ١٩٢) وهو فصل من كتاب سماه النصائح المنجية من الفضائح المخزية والقبائح المردية من أقوال أهل البدع ، ثم أضافه إلى =

فها هنا قِفْ يا أخى وقفة ، وتأمله بقلب سليم ، فإنه أظهر من كل ظاهر .

وأما قولك لى : لو جاز أن يُقَلَّدَ لجاز أن يقلد غيره ، فهذا لا يلزمنى لأنه الحق ، وغيره المبطل الباطل . فمن سكنت نفسه إلى قوله عليه السلام ، ولم تنازعه إلى دليل وقَبِلَهُ وَقَالَهُ . فقد وفق للخير والهدى ، ومن نازعته نفسه ولم تقنع إلا ببرهان ، فهذا هو الذى يلزمه النظر والاستدلال ، ويلزمنا البيان له والمحاجَّةُ والمجادلة بالتى هى أحسن ، وإقامة البرهان عليه . وهكذا فَعَلَ عليه السلام ، فإنه قبل الإسلام ممن أسلم بلا اعتراض ، ومن حاجَّهُ أتاه بالآيات ، ودعاه إلى المباهلة وتمنِّى الموت وأقام عليه حجة البرهان الواضح . فتأمل هذا تجده كما أقول لك ، ودع عنك بالله حماقات أهل السفسطة المسخرين لحماقات كتب ابن فورك (١) والباقلانى (٢) ، وما هنالك . فما سرَّنى انتساخك لكتابه المعروف بالدقائق وستقف عليه إن شاء الله تعالى وتتدبره ، فلتعلمْ أن الكاغد مخسور فى نسخه ، بل المدادُ على تفاهة قدره .

وأما قولك : أما الرسول فلا تجب طاعته إلا بعد معرفة الله ضرورةً ، إذ من جهل (٣) المرسل وقدره ، وما يلزم من طاعته ، لم يلزمه اتباع مرسله ولا طاعته ، هذا ما لم يدفعه عقل ، فمعرفة الله مُقَدَّمَةٌ على معرفة رسله ، هنا انتهى قولك . وهذا قول يجب أن تتأمله ، فليس على ما ذكرت ، ولا كانت معرفة الله واجبة قبل الرسل . قال الله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعثَ

= كتاب الفصل ؛ وأما الأشعرية فقد هاجمهم فى مواضع شتى من كتابه وانظر بخاصة (الفصل ٤ : ٢٠٤) وقد عدهم من المرجئة وأكثر ما يعيبهم عنده قولهم إن الإيمان عقد بالقلب وإن أعلن المرء الكفر بلسانه وعبد الأوثان أو لزم اليهودية والنصرانية . . . . إلخ قال : وأما الأشعرية فكانوا ببغداد وبالبصرة ثم قامت لهم سوق بصقلية والقيروان وبالأندلس ثم رق أمرهم والحمد لله رب العالمين ؛ وهذا يدل على انحسار المذهب أيام ابن حزم .

(١) انظر ترجمته فى طبقات السبكى ٣ : ٥٢ وتبيين كذب المفترى : ٢٣٢ ومرآة الجنان ٣ : ١٧ والشذرات ٣ : ١٨١ وكانت وفاته سنة ٤٠٦ هـ .

(٢) توفى القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى سنة ٤٠٣ هـ ، انظر ترجمته فى تبيين كذب المفترى : ٢١٧ وتاريخ بغداد رقم ٢٩٠٦ وابن كثير ١١ : ٣٥٠ والمنتظم ٧ : ٢٦٥

(٣) فى الاصل : جعل

رسولا(١) » . فإذا سقط العذاب عن كل من لم يأته رسول بنص كلام الله تعالى بيقين ندرى أن كل ما لا يعذب الله تعالى عليه ولا ينكره فليس واجباً بل إنما وجبت على الناس معرفة الله بدعاء الرسل عليهم السلام ، إليه تعالى فقط ، لا قبل ذلك .

يا أخى تدبر قولك فى وجوب معرفة الله تعالى قبل الرسل ، والوجوب فعل يقتضى موجباً بضرورة العقل ، فقل لى : من أوجب المعرفة ؟ فإن قلت إن الله تعالى أوجبها . قلنا لك : فمن أين زعمت أن الله تعالى أوجبها ؟ فإن قلت : بضرورة العقل ، ادعيت على العقول ما ليس فيها(٢) ، وجمهور الناس من أصحاب الحديث والفقهاء والخوارج والشيعة متفقون مصرحون بأن معرفة الله تعالى لا تلزم إلا بمجىء الرسل ودعائهم إلى الله تعالى فقط . وإن قلت : إن العقل أوجب ذلك فرضاً ، فهذا محال ظاهر والعقل لا يحرم شيئاً ولا يوجبه ، والعقل عرض [من] الأعراض محمول فى النفس ومن المحال أن تحكم الأعراض وتوجب وتشرع ؛ وإنما فى العقل معرفة الأشياء على ما هى عليه من كيفياتها وكمياتها ولا مزيد . وهذا باب قد أحكمته غاية الإحكام فى صدر كتاب « أصول الأحكام(٣) » . فتأمل هذا الفصل تجده كما قلت .

ولا تحسن ظنك بكل ما تجده لأولئك المهذرين السوفسطائيين على

---

(١) سورة الإسراء : ١٥

(٢) قارن هذا بفكرة ابن الطفيل فى حى بن يقظان فهى تعتمد على الاستدلال النظرى لمعرفة الله تعالى ، دون رسول ، وابن حزم ربما لم ينكر هذا ولكنه ينكر وجوب المعرفة .

(٣) هو كتابه الإحكام فى أصول الأحكام ، وفيه حديث مفصل عن مهمة العقل (١ : ١٣ وما بعدها) وخلاصة رأيه أن فى العقل الفهم عن الله تعالى ومعرفة صفات المدركات ، لكنه لا يوجب أن يكون الخنزير حراماً أو حلالا أو أن تكون صلاة الظهر أربعاً وصلاة المغرب ثلاثاً ، أو أن يقتل من زنا وهو محصن وإن عفا عنه زوج المرأة وأبوها ، ولا يقتل قاتل النفس المحرمة عمداً إذا عفا عنه أولياء المقتول . . . الخ (المصدر المذكور ص ٢٨) .

الحقيقة ، المتسمين بالمتكلمين الذين يأتونك بألف كلمة من هذرهم(١) يُنْسى آخرها أولها ، وليست إلا الهذيان والتخليط وقضايا فاسدة بلا برهان ، بعضها ينقض بعضاً .

وأما قولك : مع أن ظواهر الشريعة دلّتْ على لزوم المعرفة والعلم بالله عزّ وجل ، من ذلك قوله « فاعلم أنه لا إله إلا هو (٢) » والمقلد غير عالم ولا عارف ، فإنما المأمور بهذا العلم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المأمور بعقب هذا الأمرِ بالاستغفار للمؤمنين ، وهو عليه السلام قد علم الله تعالى بأعظم البراهين ، من مشاهدة الملائكة ، ومشاهدة السموات سماءً سماءً ، ومكالمة الله تعالى ، ورؤية المعجزات على يده ، فهو المأمور بالعلم حقاً ، وأما سائر الناس فلم يؤمروا قط بهذا ، وإنما أمروا بأن يقولوا شهادة الإسلام بألسنتهم ويعتقدوها بقلوبهم ، فهذا هو الذى أمروا به حتى لا تجد أنهم أمروا بغير ذلك أصلا . فمن شرِهَتْ نفسه إلى العلم المحقق فليطلب الاستدلال ، كما فعل إبراهيم عليه السلام فى إحياء الطير ومن لم تنازعه نفسه ، فلو فعل ذلك لكان حسناً ، ومن لم يفعل ، لم يخرج بذلك من كونه من أهل الحق إذا وفقه الله تعالى .

وأما قولك : وأريد أن تتأمّل قولك : لا يلزم من معرفة البارى تعالى والنبوة إلا (٣) ما دعاهم إليه نبيهم المختوم به الرسل من صحة الاعتقاد هل (٤) الذى دعاهم إليه من الاعتقاد هو المعرفة أو غيرها ؟ فإن كانت المعرفة ، فلا تكون إلا بتقديم البراهين وإلا كانت غير معرفة . وإن كانت غيرها فالمعرفة لم تُفْرَضْ ، وإنما فُرِضَ غيرها ، ويجب أن تعرف ماذلك المفترض

---

(١) غير واضحة فى الأصل .

(٢) سورة محمد : ١٩

(٣) فى الأصل : إلى

(٤) فى الأصل : هل هو

وفى آثار (١) هذا الكلام ما فيه — فنعم يا أخى قد تأملته جداً وأنا ثابت عليه ،والحمد لله رب العالمين. وأنا أكرر فأقول: لم يفترض الله تعالى على الناس قط [إلا](٢) الإقرار بألسنتهم بدعوة الاسلام واعتقاد تحقيقها بقلوبهم فقط ؛ وأما المعرفة التى لا تكون إلا ببرهان فما كلفوها قط . وأما من عبر (٣) عن صحة الاعتقاد بالمعرفة فإن الجواب عن هذا دخول فى استعمال الألفاظ المشتركة التى استعمالها أسُّ البلاء . لكن نقول لك : إن كنت تعبرُ بالمعرفة عن صحة الاعتقاد للحق ، فالناس مُكلفُونَ هذا . وإن كنت تعنى بقولك المعرفة : العلم المتولد عن البرهان فما كلَّفَ الناسُ قط هذا . وهذا علم الانبياء عليهم السلام ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم وجميع أُمته بعده حتى حدث من تعرف ، فأتوا بقول إذا حققته لزم التقصير البين للنبى صلى الله عليه وسلم ولأئمة المسلمين بعده .

وأما قولك لى : وأرغب أن تتأمل قولك « حاشا من كان عقده أنه لو كان أبوه يهوديا أو نصرانيا لكان يهودياً أو نصرانيا ، فهذا ليس عقده بصحيح (٤) . ثم قلت أنت : وهل من لم يكن عارفا بالأدلة ولا واثقاً بها وكان مقلداً إلا على ذلك ؟ وهل يرتفع أحد من هذا العقد الذى ليس بصحيح عندك حتى يعتقد الدين ، لا لأن آباءه اعتقدوه إلا عن معرفة بالبراهين الصحيحة ومعرفة الحق مجرداً ؛ وإنما لحظت هذا وما اتصل به ، لأنَّ (٥) الدليل الذى اقتصرت عليه ليس بصحيح عندك ؛ فإن الرسول لم يقتصر (٦) على دعواه فيما دعا إليه ولا رضى عمن (٧) قلده — هذا نص

---

(١) فى الأصل : إيثار
(٢) زيادة لازمة
(٣) فى الأصل : غير
(٤) فى الأصل : صحيح
(٥) فى الأصل : بأن
(٦) فى الأصل : أن الرسول يقصر
(٧) فى الأصل : من

قولك — فاعلم يا أخى أن كلَّ من اعتقد الحق من غير استدلال فليس على ما ذكرت ، بل أكثر الأمة والحمد لله ممن لا يدرى يَتَهَجَّى لفظة استدلال فكيف أن يعرفَ معناها ، تجده لو خُيِّرَ بين أن يعذَّبَ بأنواع العذاب ؛ إلى إنقضاء عمر الدنيا وبين أن يفارق الاسلام لتخير بلا شك أنواع العذاب ونجده لو كفر أبوه وأهل بلاده بعد أن تحقق عَقْدُ الاسلام فى قلبه ، لاستحل دمَ أبيه وولده وأهل بلده ، وهذا أمر تشاهده بنفسك من أكثر العوام الذين أنت تدرى أنهم لم يعرفوا الدينَ قطُّ من طريق الاستدلال . وأما من تعتقد أنه لو كَفَرَ أهْلُ بلده لكفر هو معهم ، فهذا عند الناس كلهم كافر غير مصحح لاعتقاده ، فتأمل هذا تجـــده كما أقول لك أيضاً ، والله أعلم .

وأما قولك لى : إن الرسول عليه السلام لم يَقْتَصِرْ على دعواه فيما دعا إليه ولا رضى عمن قلده ، فكلام غيرُ محقق ، بل ما اقتصر قط عليه السلام إلا على دعائه فقط ، إلا من طالبه بآية ، فحينئذ أتاه بها وأما من لم يطلبه بها فما قال له عليه السلام قط : لا تؤمن حتى ترى آية ، وما زال عليه السلام راضياً عمن اتبعه ورضى به ، وإن لم يطلبه بدليل على ما أورد بعد هذا إن شاء الله تعالى ، فصحَّ أن الدليل الذى استدللتُ به فى غاية الصحة ، وأنه عيان مشهور منقول نقل الكوافِّ ، لا مُعْتَرَضَ فيه ، والحمد لله رب العالمين .

وأما قولك فى الخبر الصحيح « وأما المنافق أو المرتاب فهو الذى يقول سمعتُ الناس يقولون شيئاً فقلته ، وأن المؤمنَ هو الذى يقول جاءنا بالبينات والهدى » فخبر صحيح وهو حجتى عليك (١) لأنه صلى الله عليه

---

(١) أورد البخارى هذا الحديث فى كتاب العلم وكتاب الكسوف وكتاب الجمعة (والأخير ٢ : ١٠) ، وهو بصورته هذه من حديث أسماء فى سؤال القبر : فأما المؤمن أو قال الموقن — شك هشام — فيقول (إذا سئل عن النبى) هو رسول الله ، هو محمد صلى الله عليه وسلم =

وسلم إنما حكى القول « سمعت الناس يقولون شيئا فقلته » عن منافق أو مرتاب وإنما أتيتُ أنا على محقق بقلبه مثبت ليقينه نافر عن الشك والجحد كل النفار إلا أنه فتح (١) الله عز وجل له فى ذلك الحق بالبخت لا عن استدلال؛ وهذا بعينه هو الذى يقول بقلبه ولسانه فى الدنيا كما نقول ، إذا مات ، جاءنا بالبينات والهدى . فتأمل هذا تجده كما قلت لك ، والحمد لله رب العالمين .

وأما قولك لى : ويجب أن تنظر فى القول إنه عليه السلام لم يدع أحداً إلى غير هذا عموماً ، وإذا لم يدع إليه فهو تكلف وإذا كان تكلّفاً فكيف يرجع إليه من اختلج فى صدره شىء أو كيف يجده . فنعم يا أخى ما دعا عليه السلام إلى غير هذا ، ومن العجب أن يكون دعا إلى غير هذا واتفقت الأمم على كتمان هذا وطيه . أترى هذا يا أخى ممكناً ؟ حاشا لله من هذا ، ونعم هو تكلف حسن ممن لم تنازعه نفسه إليه . وأما تعجبك بقولك : فكيف يرجع إليه من اختلج فى صدره شىء أو كيف يجده ؟ أما علمت أن شرب الدواء والكى تكلف ؟ وأن من احتاج إليهما لِدَفْعِ ضَرَرٍ حل به وجب عليه أن يرجع إليهما ؟ فأى عجب فى هذا ؟ وأنا لم أحتج عليك بهذا التنظير ، وإنما أريتك أن هذا الذى أنكرت وجوده موجودٌ فى العالم ، وإنما طلب الاستدلال لتعلم القرآن كله ، وتعلم الكتاب ليس فرضاً لكنه تكلف حسن ممن تكلفه ، وهما فرض على من قصد ضَبْطَ الديانة للناس ، والاستكثارَ من الخير والعلم فقط .

وأما قولك : فان قيل هو مندوب إليه ، ولذلك كان له عليه أجر ، قيل

= جاءنا بالبينات والهدى فآمنا وأجبنا واتبعنا وصدقنا فيقال له نم صالحاً قد كنا نعلم إنك لتؤمن به وأما المنافق أو قال المرتاب — شك هشام — فيقال له ما علمك بهذا الرجل فيقول لا أدرى ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلت (وفى نسخة فقلته) .

وحجة ابن حزم فى هذا الخبر أن الرسول قال : المنافق والمرتاب ولم يقل غير المستدل فاللفظ لا يسعف خصوم ابن حزم ، ثم إن المنافق والمرتاب مقلدان للناس لا محققان ، والتقليد شىء غير الاستدلال .

(١) غير معجمه فى الأصل .

فجائز لجميع الأمة تركه ولا إثم عليها فى إغفاله ، وإذا كان هذا أدى إلى أن يكون جميع الشرع بأيدينا دعوى ، وفى هذا مالا يخفى . فاعلم أنه مندوب إليه كما قلنا ببرهان أنَّهُ لم يأت به قط أمرٌ من عندالله تعالى ، ولو (١) أن الأمة كلها التقت بالقبول وصحة العقد ، ولم يكن فيها منازع ولا كافر ، مااحتيجَ إلى الاستدلال البتة ، إذ لم يأت بإيجابه أمرٌ من الله عز وجل ولا من رسوله صلى الله عليه وسلم . وأما قولك : إذا كان هذا ، أدى إلى أن جميع الشرائع بأيدينا دعوى ، وفى هذا مالا يخفى ، فإن الله تعالى حض على الاستدلال كما قلنا ولم يفترضه ، وعلمنا إياه ولم يوجب تعلمه على أحد ، وأوجب علينا مناظرة المعاندين بالبراهين ، وأنا يا أخى لم أنكرْ هذا قط وإنما قلت إن من لم تنازعْه نفسه إليه ، وأنِسَ إلى إعتقاد صحة الإسلام والإقرار به فهو مسلم صحيح الاسلام عند الله تعالى ، وإن المعتقد لذلك عن إستدلال أفضل فالزمتنى مالم يلزمنيه قولى (٢) .

وأما قولك : فينظر فيما فرض الله تعالى من تدبر القرآن وما فيه من الدلائل . فتدبر القرآن فرض ، ومعنى تدبره فهم معانى ألفاظه . وكيف لا يكون فرضاً وهو بيان ما افترض ، وقد تدبرناه ولله الحمد فلم نجد فيه أنه لا إسلام لمن لايعتقده من طريق الاستدلال ولا وجدنا فيه أن معرفة الله تعالى فرض قَبْلَ الرسل وهذا قولنا والحمد لله . وهنا انتهى قولك وما اقتضاه من جواب .

* * *

ثم أنا أبتدئك بما يلزم بعضنا لبعض من بيان الحق وتعاطى البراهين ، فأقول لك وبالله تعالى التوفيق :

---

(١) فى الأصل ولولا :

(٢) قابل هذا بقول ابن حزم (الفصل ٤ : ٤٠) : ونحن لاننكر الاستدلال بل هو فعل حسن مندوب إليه محضوض عليه كل من أطاقه لأنه تزود من الخير وهو فرض على كل من لم تسكن نفسه إلى التصديق . . . . . وإنما ننكر كونه فرضاً على كل أحد ، لا يصح إسلام أحد دونه ، هذا هو الباطل المحض (وانظر أيضاً وقفة ابن حزم عند هذا الموضوع فى الفصل ٥ : ١١٠) .

قبل كل شيء أريد أن تنظر فى كلامى بعين (١) سليمةٍ من الإعراض ومن الاستحسان معاً ، وبنفس بريئة من النفار والسكون معاً ، لا (٢) كما ينظر المرء بما لم يسمعْهُ قط ، فيسبق إليه منه قَبُولٌ يُسَهِّلُ عليه الباطل أو نفار يوعر عليه الحق . فمن هذين السعيين تاه أكثر الناس وفارقوا المحجة ؛ فأقول لك يا أخى : كان إسلام خيار أهل الأرض بعد النبيين عليهم السلام كخديجة وعائشة أمىّ المؤمنين ، وأبى بكر الصديق وعلى بن أبى طالب ، وسعد بن أبى وقاص ، وبلال ، وزيد بن حارثة ، وخالد بن سعيد بن العاصى وعمرو بن عَبَسَه ، وعثمان بن عفان ، والزبير وطلحة ، وزينب وأم كلثوم وفاطمة ورقية ، بنات النبى صلى الله عليه وسلم . فهل ذكر قط أحدهم أو جميعهم أو غيرهم عنهم أنهم لم يُسْلموا حتى سألوا آيةً وطلبوا معجزة ، وعرض عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم برهانا ؟ هل كان أكثرُ من أنْ دعا عليه السلام خديجة إلى الإسلام وأبا بكر عليهما الرضوان ، فلم تكن لهما كَبْوَةٌ ولا تردد ؛ وأما عائشة وعلى وزينب وأم كلثوم وفاطمة ورقية فهل كان إسلامهم إلا على تدريب الكافل والأبوين ولا مزيد ؟ وسكت عن عمر وابن مسعود رضى الله عنهما ، لأنه قد قيل إنهما لم يسلما إلا بعد معجزة رأياها . فلعمرى يا أخى إن قال قائل : إن هؤلاء المذكورين لم يسلم منهم أحد إلا عن معجزة طلبها فعرضت عليه ليقولن ما يشهد قلبه بأنه كاذب ثم لا يبقى أحد فى العالم لم يدر شيئاً من السير والأخبار إلا كَذَّبَهُ ودرى أنه كاذب .

تفكر يا أخى كيف أسلم النجاشى وباذان والمنذر بن ساوى وعباد (٣) وجيفر ابنا الجلندى وذو الكلاع وذو ظليم وذو مران وذو زود وهؤلاء

---

(١) فى الأصل : بغير

(٢) فى الأصل : لكن

(٣) سماه المقريزى فى الأمتاع عمراً وأسمه فى جوامع السيرة والفصل : عياذ ؛ وفى سيرة ابن سيد الناس : عبد

ملوك بلادهم(١) ، وكيف أسلم الستة من الأنصار ، والاثنا عشر ، والثلاثة وسبعون الذين هم خيار أهل الأرض . هل طلب واحد منهم معجزة أو رغب آية ؟ تفكر فى هذا ، ودعنا من استبشاع مخالفة هذيان المتكلِّمين(٢) الذين لم ينتج الله تعالى على أيديهم إلا افتراق الكلمة ، وتكفير المسلمين بعضهم بعضاً . ألم يصح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « دعوا لى صاحبى فإن الناس قالوا كذبت ، وقال أبو بكر صدقت(٣) » ولذلك سمى الصديق .

فتفكر يا أخى فى نفسك : كيف كان إسلامك مذ بلغت مبالغ التكليف وتوجه إليك الخطاب من الله عز وجل ، عن استدلال كان منك من تلك الليلة ؟ فهذا بعيد جداً ، وإن كان استدلالا بعد ذلك فكيف تعرف نفسك بين بلوغك إلى وقت استدلالك ، أترى تلزم نفسك حكم الكفر ؟ معاذ الله من هذا .

ثم أقول لك : الناس أربعة : فانسان استدلّ فأدّاه استدلاله إلى حق مأجور مرتين ، وآخر استدل وبحث ونظر ، فأدّاه ذلك إلى دهرية أو تبرهم أو مثنوية أو بعض أنواع الكفر ، فهذا كافر مخلد فى النار إن مات على ذلك . أو أداه إلى قول الأزارقة وأصحاب الأصلح أو بعض البدع المهلكة ، فهو فاسق . وآخر قلد فاتفق له الحق فهو من أهل الحق وهكذا عوام أهل الإسلام كلهم . وآخر قلد فأداه ذلك إلى الباطل ، فهو إما كافر وإما فاسق .

وتثبت فيما قلت لك من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم الناس كلهم ، فهو برهان ضرورى منقول نَقْلَ الكواف ، لا يشك فيه مسلم موحد ولا ملحد فى أنه عليه السلام لم (٤) يقل لأحد دعاه إلى الإسلام : لا تسلم حتى تستدل .

---

(١) أنظر جوامع السيرة الورقة ٢٠ وما بعدها وكذلك الفصل ٢ : ٨٥ .

(٢) فى الأصل : هذان المتكلفين .

(٣) فى صحيح البخارى (٥ : ٥) إن الله بعثنى إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدق وواسانى بنفسه وماله فهل أنتم تاركو لى صاحبى . وانظر حديثاً مقارباً فى مجمع الزوائد ٩ : ٤٤

(٤) فى الأصل : لا

وهذه كتبه إلى كسرى وقيصر والملوك، وذكر رسله إلى البلاد، ما فى شىء منها ولا فى بعوثه وغزواته إيجابٌ استدلال، فإن جاز عندك أن يتفق الناس كلهم على كتمان هذا، فأعيذك بالله من أن يجوز هذا عندك.

ثم أعلم يا أخى أن الفرقة المحدثة لهذه المقالة، فرقةٌ أنت تدرى أنها غير مرضية عند جميع أئمة الهدى قديماً وحديثاً، وأنهم مطعونٌ عليهم فى أديانهم مظنون بهم السوء فى اعتقادهم. وبرهان ذلك أنهم أجسر الناس على عظيمة تقشعر منها الجلود وعلى إطلاق العظائم على البارى عز وجل بلا مبالاة، ولم يزالوا عند جميع الأمة مرذولين إلى أن يُبْلَغَ(١) إلى الذين لقينا منهم. ولقد قال لى بعض إخوانى كلاماً أقوله لك — قال: أسألك بالله هل بلغك أن أحداً أسلم على يدى متكلم من هؤلاء المتكلمين، واهتدى على أيديهم من ضلاله، وهل أسلم من أسلم واهتدى من اهتدى إلا بالدعاء المجرد الذى مضى عليه السلف؟ فوالله يا أخى ما وجدت لقوله جواباً، بل ما وجدتهم أحدث الله تعالى على أيديهم إلا الفرقة والشتات والتخاذل وافتراق الكلمة والجَسْرَ على كلِّ طامة وعظيمة وتكفير المسلمين بعضهم بعضاً. وهذا أمر مشاهد. ثم هم فى خلال ذلك أبعد الناس عن المجىء ببرهان حق، وأكثرهم سفسطةً وتخليطاً واضطراباً وتناقضاً.

فإن قال قائل: قد ذممت التقليد وأبو بكر وخديجة وعائشة وعلى وخالد ابن سعيد وعمرو بن عبسة والانصار رضى الله عن جميعهم مقلدون أَفَهُم مذمومون (٢) فى تقليدهم؟ قلنا وبالله تعالى التوفيق: لسنا نقول هذا، ولكنا قد بينا فى غير هـذا الموضع أن التقليد هو لمن اتبع من لا (٣) يؤمر بأتباعه فهذا هو المذموم فى تقليده وإن أصاب الحق. أما من اتبع من افترض الله تعالى عليه اتباعه، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فليس

(١) فى الأصل: إلى يبلغ
(٢) فى الأصل: فهم مهمومون.
(٣) فى الأصل: مما

يسمى مقلداً بل هو موفق مطيع لله تعالى ، محسن ، سواء اتبعه فى عقدة الاسلام أو فيما دون ذلك من الاعتقادات أو العبادات والأحكام . وقد بيَّنا أيضاً فى غير هذا الموضع أنه قد تقعُ الضرورةُ بخبر الواحد ويصح به العلم المتيقن ، وكل هؤلاء وقع لهم العلم الحق واليقين الضرورى بإخبار النبى صلى الله عليه وسلم لهم بالاسلام وبصحة نبوته . هذا مالا شك فيه عندنا البتة ، ولا يجوز غير هذا البتة .

ولقد كانوا أعلم وأفضل وأجلّ وأسلم وأتم من أن يستجيبوا لقول قائل ، بلا برهان(١) لولا أن الله تعالى أنزل السكينة عليهم كما قال الله : عزّ وجل « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً (٢) » وكما قال تعالى « حبب إليكم الإيمانَ وزيَّنَهُ فى قلوبكم ، وكَرَّهَ إليكم الكُفْرَ والفُسُوقَ والعصيانَ أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة . والله عليم حكيم » (٣)

وأيضاً فقد صح برهان واضح أن الله تعالى خَلَقَ كلَّ شىء فى العالم من حامل ومحمول ولا ثالث لهما فى العالم ، فإذ ذلك كذلك ، فهو تعالى خالق الإيمان فى قلوب المؤمنين ، فمن خلق الله تعالى الايمان فى قلبه ولسانه فهو مؤمن صحيح الايمان ، سواء خلقه فى قلبه ولسانه دون استدلال أو خلقه باستدلال . وكذلك الكفر أيضاً : من خلق الله تعالى الكفر [فى قلبه] أو خلقه على لسانه فهو كافر محض .

وأيضاً فقد يستدل الدهر كله من لا يوفق للحق كما استدل الفيومى (٤)

---

(١) فى الأصل : فلا معنى .

(٢) سورة الفتح : ١٨

(٣) سورة الحجرات : ٧

(٤) قال ابن النديم (الفهرست : ٢٣) : و من أفاضل اليهود وعلمائهم المتمكنين من اللغة العبرانية و يزعم اليهود أنها لم تر مثله الفيومى ، واسمه سعيد ويقال سعديا وكان قريب العهد وقد أدركه جماعة فى زماننا » وله كتب عدة .

والمقمس وأبو ريطة اليعقوبى واذرباذ الموبذ (١) وأبو على مردان بخت المنانى ، ثم من فرق المسلمين : هشام بن الحكم (٢) وعلى بن منصور (٣) والنظام وغيره ، فبعضهم يسّر للكفر وبعضهم يسر للإيمان ولضلال البدعة معاً .

وقد يدّعى المجتهدون فى نصر أقوال مالك وأبى حنيفة أنهم مستدلون جهدهم وقد ملأوا الدنيا صحائف سمجة ، ولم يسروا إلا للخطاء فى أكثر أقوالهم، وقد ييسر الله تعالى للإيمان والسنة من لا يستدل ، فالكل فعل الله تعالى ، فمن يسر للحق ، فهو محق كيفما اعتقده ، ومن يسر للباطل فهو مبطل كيفما اعتقده .

فإن قلت : بأى شىء يعرف الموفّق للعلم الصحيح أنّ هذا حق وأن هذا باطل ؟ قلنا : بالبراهين ، وهذا ما لا نخالفك فيه ، إلا أن عدم الاستدلال بالبرهان لا يخرج الحق عن أن يكون حقا فى ذاته ولا الباطل عن أن يكون باطلا فى ذاته . والله تعالى يخلق الإيمان والكفر فى قلوب عباده، وهم طبقات: فمنهم من يخلق الإيمان فى قلبه ضرورة بداءة كما خلق الله فى قلوبنا معرفة أن الكل أكثر من الجزء، وأن الحلو حلو والمر مر، وهذا أرفع درجات الإيمان، وهذا إيمان الملائكة والأنبياء عليهم السلام ؛ ومنهم من خلق الإيمان فى قلبه ضرورة عن تصديق مخبر كإسلام من ذكرنا من الصحابة ، رضى الله عنهم ، الذين صدقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خبره . ومنهم من خلق الإيمان فى قلبه ضرورة عن استدلال وبرهان برؤية المعجزات أو نقلها إليه ، وهذه

---

(١) هو اذرباذ بن مار كسفند، موبذ موبذان، عاصر مانى وناظره بحضرة الملك بهرام بن بهرام فى مسألة قطع النسل وتعجيل فراغ العالم ، فانقطع مانى وقتله بهرام على الأثر (الفصل ١ : ٣٦)

(٢) انظر ترجمة هشام بن الحكم فى الفهرست : ١٧٥ — ١٧٦ ، واعتقادات الرازى: ٦٤ وتبصير الأسفرايينى: ٧٠، ٩٣، وهو زعيم الحكمية أو الهاشمية من فرق الشيعة، ويدين بالتجسيم .

(٣) هو الحلاج ، أنظر أخباره فى صلة الطبرى ، وتجارب الأمم ، ونشوار المحاضرة والمنتظم وفيما جمعه ماسينيون من أخباره وأقواله . وانظر أيضا ديوانه الذى جمعه ماسينيون فى المجلة الأسيوية ، ١٩٣١

صفة إيمان المستدلين منا ، ومنهم من خلق الإيمان فى قلبه بغير سبب ، وهذه صفة إيمان المحققين من العوام ، ولا إيمان لمن خرج من هذه الطباق .

وكذلك خلق الله تعالى الكفر فى قلوب عباده ، فمنهم من خلقه تقليداً ، ومنهم من خلقه فى قلبه حسداً للعرب وللنبى صلى الله عليه سلم ، ومنهم من خلقه فى قلبه اتباعاً لهوى وقع له أو سكوناً إلى الشك . ومنهم من خلقه فى قلبه استدلالا ببعض الأدلة الفاسدة ، ومنهم من حكم الله تعالى عليه بالكفر وإن اعتقد الإيمان وعمل به وأعلنه ، لكن خرق الإجماع فى بعض أقواله كمن أقر بنبى بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، أو كذب بآية من القرآن أو بشريعة مجتمع عليها ، أو عمل عملا يكون به كافراً ، إن شاء الله تعالى .

فهذا بيان جميع هذه المسألة ، والحمد لله رب العالمين ، ثم السلام عليك أيها الأخ المحمود ، ورحمة الله وبركاته .

تمت بحول الله عز وجل ، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليما كثيراً
والحمد لله وحده

رسالة التوقيف على شارع النجاة

باختصار الطريق

بسم الله الرحمن الرحيم
صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

رسالة التوفيق على شارع النجاة

باختصار الطريق

قال الشيخ الحافظ أبو محمد على بن أحمد بن حزم رضى الله عنه:

الحمد لله رب العالمين كثيراً، وصلى الله على محمد عبده ورسوله، وسلم تسليما، وبالله نستعين على كل ما يقرب منه، أما بعد فإن خطابك اتصل بى فيما شاهدته من انقسام أهل عصرنا قسمين: فطائفة اتبعت علومَ الأوائل وأصحابَ تلك العلوم، وطائفة اتبعت علمَ ما جاءت به النبوة، ورغبتَ فى أن أبيّنَ لك وجه الحقِّ فى ذلك بغاية الاختصار، لئلا يُنسى آخرُ الكلام أولَه، وبنهاية البيان، ليفهمه كلُّ من قرأه، بلا كلفةٍ. وأنْ يكونَ عليه من البرهان ما يصححه لئلا يصير دعوى كسائر الدعاوى، فسارعت إلى ذلك متأيّداً بالله عز وجل لوجوبِ نصيحة الناس والسعى فى استنقاذهم من الهلكة، وحسبنا الله تعالى.

اعلم — وفقنا الله وإياك لما يرضيه — أن علوم الأوائل هى: الفلسفة وحدود المنطق التى تكلم فيها أفلاطون وتلميذه ارسطاطاليس والاسكندر (١) ومن قفا قفوهم، وهذا علم حسنٌ رفيع لأنه فيه معرفة العالم كله، بكل ما فيه من أجناسه إلى أنواعه إلى أشخاص جواهره وأعراضه، والوقوف على البرهان الذى لا يصح شىء إلا به، وتمييزه مما يظن مَنْ جهل (٢) أنه برهان، وليس برهاناً، ومنفعة هذا العلم عظيمه فى تمييز الحقائق مما سواها.

---

(١) هو الاسكندر الافروديسى الذى فسر أكثر كتب أرسطاطاليس (أنظر الفهرست: ٢٥٢ وابن أبى أصيبعة ١: ٦٩ والقفطى: ٥٤) وكانت بينه وبين جالينوس مناظرات ومشاغبات كما كانت شروحه يرغب فيها فى الأيام الرومية والإسلامية.

(٢) من جهل: مكررة فى الأصل.

وعلم العدد الذى تكلم فيه أندروماخش(١) مؤلف كتاب الارثماطيق فى طبائع العدد ، ومن نحا نحوه ، وهو علم حسن صحيح برهانى ، إلا أن المنفعة به إنما هى فى الدنيا فقط : فى قسمة الأموال على أصحابها ونحو هذا ، وكل ما لا نفع(٢) له إلا فى الدنيا فهى منفعة قليلة وَتِحَةٌ(٣) لسرعة خروجنا من هذه الدار ولامتناع (٤) البقاء فيها ، وكل ما ينقضى فكأنه لم يكن ، وكما يقول يحيى(٥) :

وما هذه الدنيا سوى كرِّ لحظة(٦) نعد بها الماضى وما لم يحن بعد
هى الزمن الموجود لاشىء غيره ومامَرّ والآتى عَدِيمان يادَعَد(٧)

وعلم المساحة التى تكلم فيها جامع كتاب أقليدس(٨) ومن نهج نهجه وهو علم حسن برهانى وأصله معرفة نسبة الخطوط والأشكال بعضها من بعض ومعرفة ذلك فى شيئين : أحدهما فهمُ صفة هيئة الأفلاك والأرض ، والثانى فى رفع الأثقال(٩) والبناء وقسمة الأرضين ونحو ذلك . إلا أن هذا القسم منفعته

---

(١) لم يذكر كل من ابن أبى أصيبعة والقفطى لأندروماخس الحكيم الفيلسوف كتاباً فى طبائع العدد ، (أنظر القفطى : ٧٢)، أما مؤلف كتاب الارثماطيق فى علم العدد فهو نيقوماخوس (القفطى : ٣٣٦) .

(٢) فى الأصل : يقع

(٣) فى الأصل : وتحى ، والوتحة القليلة التافهة

(٤) فى الأصل : والامتناع .

(٥) فى الأصل : يحى . ولعل الشاعر هو يحيى بن حكم الجيانى الملقب بالغزال ، وهو شاعر أندلسى حكيم .

(٦) فى الأصل : لر محطة

(٧) الشطر الثانى من هذا البيت غير واضح كثيراً فى الأصل .

(٨) كتاب إقليدس هو المعروف بأصول الهندسة أو الأصول كما سماه الاسلاميون وهو كتاب جامع فى بابه ، وقد نقل إلى العربية مرات عدة ، وعملت عليه شروح كثيرة ، وشرحه بعض الأندلسيين (القفطى : ٦٢ — ٦٥ ومقدمة ابن خلدون ٤٢٤)

(٩) فى الأصل : الاثقال

فى الدنيا فقط . وقد قلنا إن مالا نفع له إلا فى الدنيا فمنفعته قليلة لسرعة انقطاعها ولأنه قد يبقى المرء فى دنياه — طول مدته فيها — عاريا من هذين العلمين ولا يعظم ضرره بجهلهما(١) لا فى عاجل ولا فى آجل .

وعلم الهيئة : الذى تكلم فيه بطليموس ، ولونخس(٢) قبله ، ومن سلك مسلكهما ، أو سلكا مسلكه، ممن كان قبلهما من أهل الهند والنبط والقبط وهو علم برهانى حسىّ حسن، وهو معرفة الأفلاك ومدارها وتقاطعها ومراكزها وأبعادها ومعرفة الكواكب وانتقالها وأعظامها وأبعادها وأفلاك تداويرها . ومنفعة هذا العلم إنما هو فى الوقوف على أحكام الصنعة وعظيم حكمة الصانع(٣) وقدرته وقصده واختياره وهذه منفعة جليلة جداً لا سيما فى الآجل .

وأما القضاء بالكواكب فباطل لتعرّيه من البرهان ، وإنما هو دعوى فقط ، ولانحصى كم شاهدنا من كذب قضاياهم المحققة ، وإن أردت الوقوف على ذلك فجرّبْ ، تجد كذبها أضعاف صدقها كالراقى والمتكهن سواء سواء ولا فرق .

وعلم الطب الذى تكلم فيه أبقراط وجالينوس وذياسقوريدس(٤) ومن جرى مجراهم . وهو علم مداواة الأجسام من أمراضها مدة مقامها فى الدنيا ،

---

(١) فى الأصل : ضروره بجهلها

(٢) أما بطليموس فهو القلوذى صاحب المجسطى ومنظم علم الفلك ، وكل من جاء بعده من علماء الهيئة فإنما حاول شرح كتابه ، وأما لونخس فلم أتبينه والأشبه أن يكون هو ابرخس الذى يقال إنه أستاذ بطليموس وعنه أخذ (أنظر الفهرست : ٢٦٧)

(٣) فى الأصل : الصنائع .

(٤) أنظر الفهرست : ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ والقفطى : ١٠٠ ، ١٢٢ ، ١٨٣ ، وذياسقوريدس المشار إليه هنا هو العين زربى ؛ قال القفطى : وهو أعلم من تكلم فى أصل علاج الطب ، وهو العلامة فى العقاقير المفردة ، وهو من حيث الزمن سابق على جالينوس.

وهو(١) علم حسن برهانى إلا أن منفعته إنما هى فى الدنيا فقط ، ثم ليست أيضاً صناعة عامة ، لأنا قد شاهدنا سكان البوادى وأكثر البلاد يبرأون من عللهم بلا طبيب ، وتصحُّ أجسامهم بلا معالجة كصحة المتعالجين وأكثر ، ويبلغون من الأعمار كالذى يبلغه أهلُ التداوى فى القصر والطول ، وفيهم من يرتاضُ ومن يخدم ولا يرتاض ، ومن لا يرتاض ولا يخدم كأهل اليسار منهم والدعة من الرجال والنساء . فإن قيل : إن لهم علاجات يستعملونها (٢) قلنا تلك العلاجات ليست جاريات على قوانين الطب بل هى مذمومةٌ عند أهل العلم بالطب ، وأكثر ما يُقْدِمُون عليه بالرَّقْ ولا مدخل له عند أهل الطب .

فاعلم الآن أنَّ كلَّ علم قلَّتْ منفعته ، ولم تكن مع قلَّتها إلا دنياوية وعاش مَن جَهِلهُ كعيش من علِمَهُ — مدة كونهما(٣) فى الدنيا — فإن العاقل الناصح لنفسه لا يجعله وَكْدَهُ ، ولا يُفْنى فيه عمره ، لأنه ينفق أيامَ حياته ، التى لا يستعيض فى الدنيا منها(٤) فيما لا ضرورة به إليه ولا كثيرَ حاجةٍ تدعوه نحوه .

ووجدنا ما جاءت به النبوة ومنفعته فى ثلاثة أشياء : أحدها : إصلاح الأخلاق النفسية وإيجاب التزام حَسَنِهَا : كالعدل والجود والعفة والصدق والنجدة فى موضعها ، والصبر والحلم والرحمة ، واجتناب سيئها كأضداد هذه التى ذكرنا . وهذه منفعةٌ عظيمة لاغنى لساكنى الدنيا عنها ، ولا شك فى العقل فى أن صلاحَ النفس ومداواتها من فسادها ، أنفعُ من مداواة الجسد وإصلاحه ، لأن مداواةَ الجسد تابعة لمداواة النفس . إذ فى

---

(١) فى الأصل : وهم (٢) فى الأصل : يستعملوها
(٣) فى الأصل : كونها (٤) فى الأصل : فيها

مداواة النفس إيجاب ألا يدخل الإنسان على جسده ما يؤلمه بالمرض ، فيقطع به عن مصالحه . وما عمَّ إصلاحَ النفس والجسد معاً أفضلُ وأولى بالاهتبال به مما خصَّ إصلاحَ الجسد فقط — هذا برهان عقلى ضرورى حسى .

ولا يمكن البتة إصلاحُ أخلاق النفس بالفلسفة دون النبوة ، إذ طاعة غير الخالق - عز وجل - لا تَلْزَمُ . وأهل العقول مختلفون فى تصويب هذه الأخلاق فذو القوة الغضبية التى هى غالبة (١) على نفسه لا يرى من ذلك ما يراه ذو القوة النباتية (٢) الغالبة على نفسه ، وكلاهما لا يرى من ذلك ما يرى ذو القوة الناطقة الغالبة على نفسه (٣) .

والوجه الثانى من منافع ما جاءت به النبوة : دفعُ مظالم الناس الذين لم تصلحهم الموعظة ولا سارعوا إلى الحقائق ، وحياطةُ الدنيا والأبشار والفروج والأموال ، والأمنُ على كل ذلك من التعدى والغلبة وكفايةُ من ضاع ولم يقدر على القيام بنفسه . وهذه منفعة عظيمة جليلة ، لا بقاءَ لأحدٍ فى هذه الدنيا ، ولا صلاحَ لأهلها إلا بها ، وإلا فالهلاك لازمٌ والبوارُ واجب . وليست كذلك منفعة العلوم التى قدمنا قبل ، وقد قدمنا أنه لا سبيل إلى منع التظالم ولا إلى إيجاد التعاطف بغير النبوة أصلاً ،

---

(١) فى الأصل : عالية .

(٢) فى الأصل : السانية .

(٣) قسم الفلاسفة الأخلاق والقوى بنسبتها إلى الأنفس وهى : النفس النباتية الشهوانية والنفس الحيوانية الغضبية ، والنفس الانسانية الناطقة فالأولى مسئولة عن شهوة الغذاء ، والثانية عن شهوة الجماع والانتقام والرياسة ، والثالثة عن شهوة العلوم والمعارف والتبحر والاستكثار منها (أنظر رسائل إخوان الصفا ١ : ٢٤١ وما بعدها) .

لما ذكرنا من أن طاعة غير الخالق تعالى لم يَقُمْ برهان بوجوبها ، ولأن الفسوق ومُخْتَلِفَةَ الأهواء لا يَنْقَادُ بعضها إلى بعض .

والوجه الثالث من منافع ما جاءت به النبوة هو التقدم لنجاة النفس فيما بعد خروجها من هذه الدار ، من المهلكة التى ليس معها ولا بعدها شيءٌ من الخير ، لاما قل ولا ما كثر ، ولا سبيل ألبتَّةَ إلى معرفة حقيقة مراد الخالق منها ولا إلى معرفة طريق خلاصنا إلا بالنبوة ، وأما بالعلوم الفلسفية التى قدّمنا فلا ـ أصلاً ـ . ومن ادَّعى ذلك فقد ادعى الكذب ، لأنه يقول ذلك بلا برهان البتة ، وما كان هكذا فهو باطل ، ولا يعجز أحدٌ عن الدعوى ، وليست دعوى أحد أولى من دعوى غيره بلا(١) برهان . ثم البرهان قائم على بُطْلان هذه الدعوى ، لأن الفلاسفة الذين إليهم يستَنِدُ هذا المدَّعى يختلفون فى أديانهم كاختلاف غيرهم سواء سواء ، فوجب طلب الحقيقة فى ذلك عند من قام البرهان على أنه إنما يخبر عن خالق العالم ومدَبِّره ـ عز وجل ـ . وهذا مكان يُلزم العاقلَ الناصحَ لنفسه ألا يجعل كَدَّه ولا اجتهاده إلا فى الوقوف على حقيقته ، وإلا فهو مُوبِقٌ لنفسه ، ولا يشتغل عن ذلك بعلم من العلوم تقِلُّ منفعته ، ومَنْ فَعَلَ هذا فهو ضعيف العقل فاسد التمييز ، سيء الاختيار ، مستحق للذم ، جانٍ على نفسه عظيم الجنايات .

فأول ذلك أن ينظر : هذا العالمُ مُحْدَثٌ كما قالت الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وأكثر علماء الأوائل والفلاسفة ، أمْ لم يزل كما قال غيرهم . ومعرفة حقيقة ذلك قريبة جداً لصحة البرهان الحسى الضرورى المشاهد على تناهى عدد الأشخاص النامية من كل نوع من أنواع الحيوان والنبات فإن أشخاص نوعين منها أكثر عدداً بلا (٢) شك من أشخاص أحد ذينك

---

(١) فى الأصل : فلا

(٢) فى الأصل : عدد فلما

النوعين . فاذْ لاشكَّ فى هذا عند أحد ، فقد ثبت المبدأ فى وجود كل عدد متناه ، فقد وجب لها المبدأ ضرورة ـ ولا بدَّ ـ وإن زمان وجود الفلك الكلى ـ بكل ما فيه ـ يزيد عدد ساعاته بما يأتى منه ، وبالضرورة يدرى كل أحد (١) أن ما قبل الزيادة ، فإن النقص موجود فيه قبل تلك الزيادة . عما صار إليه بتلك الزيادة . ولا شـــك فى [أن] الزيادة والنقص لا يمكن وجودهما إلا فى ذى نهاية ومبدأ . فصحَّ المبدأ للعالم ضرورة ، وصحَّ أنه محدث مبتدأ (٢) والله أعلم .

وأيضاً فإن الزمانَ كلَّه يومٌ ثم يوم ـ هكذا مُدَّةَ وجوده ـ وكلُّ يوم فله مبدأ ونهاية بالمشاهدة . فاذ كل جزء من أجزاء الزمان ذو مبدأ ونهاية ـ والزمان ليس هو شيئاً غيرَ أجزائه التى هى أيامه ـ فالزمان ذو مبدأ ونهاية ـ ولا بدَّ ـ ضرورةً ، ومن أدعى مُدَّةً غيرَ الزمان فقد ادعى الباطل ومالا يقوم به برهان أبداً . ومن أراد إيقاع الزمان على البارى تعالى فقد تناقض بالباطل ، لأن الزمان ـ كما بيَّنَّا ـ ذو مبدأ ، والبارى لامبدأ له ، فهو خالق الزمان ، فهو فى غير زمان ـ ولا بد ـ

ثم ينظر هل له محدث مبتدىءٌ أو لا . فوجب بأول العقل أن الحدوث والإبتداء فعلٌ ، والفعل يقتضى فاعلاً ضرورة ، ولا يمكن غير ذلك أصلا .

وأيضاً فإن النشأة والتربية والعيش ، وعمارة مالا عيش إلا به من نبات الأرض والحيوان المُسَخَّرِ ، لا يمكن شىءٌ من ذلك البتة ولا يكون وجوده أصلا إلا بلغة يقع بها التخاطبُ والتفاهمُ ، ووجدنا كل مَنْ لم يعلم اللغة لا يتكلم أبداً . وهكذا وجدنا كلَّ من يولد أصمَّ ، فإنه لا يكون ضرورة إلا أبكم لاينطق أبداً ، فصحَّ ضرورةً أنه لا يتكلم أحدٌ أبداً إلا من سمع

---

(١) فى الأصل : أن كل أحد .

(٢) أنظر ما أورده ابن حزم من براهين على حدوث العالم فى الفصل ١ : ١٤ وما بعدها

الكلام وعلمه ، وكذلك جميع العلوم لا يمكن البتة أن يحسنها أحدٌ أبداً إلا حتى يعلمها . برهان ذلك المشاهد ، مُدَّةَ عمر العالم إلى يومنا هذا ، فإن كلَّ من لا يعلم الكلام لا يعلمه . والبلاد التى لا علم فيها كبلاد الروم والصقالبة والترك والديلم والسودان والبربر والبوادى التى بين الحواضر لا سبيل إلى أن يوجد فيها شئ من العلوم التى لم يعلموها مذ وجد (١) العالم إلى يومنا هذا وكذلك جميع الصناعات من الحرث والحصاد والدَّرس ، وآلات كل ذلك والذَّرْوِ والطحن وعمل الكتان والقطن والقنب والحرير وغزل ذلك كله ، لا سبيل إلى أن يعرف أحدٌ شيئاً من ذلك كله إلا حتى يوقَفَ عليه فيقبله ويترفق به ويفتق (٢) بذهنه فى ذلك بما جعل فى طبعه من قبوله (٣) وبرهان ذلك أنه من لم يعلمه قط لا يدريه ، وأنَّ البلاد التى خلت من بعض هذه الصناعات لا توجد أصلا فيها مذ كان العالم إلى يومنا هذا ، بخلاف ما تقتضيه الطبيعةُ مما لا يُحْتَاج فيه إلى معلم : كالرضاع والأكل والشرب والجماع وغير ذلك مما لا يحتاج فيه الإنسان إلى معلم وكذلك سائر الحيوان . فصحَّ ضرورةً — صحةً حسنةً مشاهدة — أنه لابد فى اللغات من معلم ، ولا بد فى الصناعات من معلم ، ليس من المعلمين الذين فى طبعهم تعلم ذلك دون تعليم ، إذ لو كان ابتداءُ ذلك موجوداً فى الطبيعة لوجدَ ذلك فى كلِّ عصر وفى كل مكان ، لأن الطبيعة واحدة فى جميع النوع ؛ وكذلك نجدهم يستوون كلهم فيما توجبه الطبيعة لهم ، إلا أن يعرض عارضٌ حائلٌ فى بعض النوع . فوجب ضرورةً أن مبتدئ إيجاد (٤) العالم هو الذى ابتدأ تعليم اللغات وابتدأ تعليم الصناعات ، لابدَّ من ذلك ؛ وأنه تعالى علَّم كلَّ ذلك أوَّل من أحدث من نوع الإنسان ، ثم علَّمها ذلك المعلِّمُ سائر نوعه . ثم تداولوا

---

(١) فى الأصل : وجدوا

(٢) فى الأصل : ويفيق

(٣) اقرأ فى الفصل ١ : ٦٨ ، ٧٢ نصاً مشابهاً لهذه الفقرة .

(٤) فى الأصل : إيجاب

تعلم ذلك . وهذا برهان ضرورى حسى مشاهد ، يقتضى — ولا بد — وجود الخالق ووجود النبوة ، وهى تعليم الخالق اللغات (١) والعلوم والصناعات ابتداء ، ووجود الرسالة وهى تعليم ذلك النبى صلى الله عليه وسلم لمن أمر بتعليمه إياه .

فإذ قد صح هذا كله من قرب ، فالنظر واجب : هل مبتدىء العالم واحد أم أكثر من واحد . ومعرفة حقيقة هذا يقرب جداً — وذلك أنه لولا الواحد لم يوجد عدد ولا معدود ، ففتشنا العالم كله هل نجد فيه واحداً فلم نجده أصلا ، لأن كل ما فى العالم فإنه ينقسم أبداً فهو كثير لا واحد ، فإذاً لابد من واحد فى العالم ، فالواحد هو غير العالم ، وليس غير العالم إلا مبتدىء العالم ، فهو الواحد الذى لا يتكثر ، لا واحد سواه ؛ فوجدنا العالم محدثاً تالياً كما وصفنا ، لم يكن ثم كونه مكونه الذى ابتدأه ، ولا بد من أول ، إذ لولا الأول لم يكن الثانى أصلا ، ووجود الثانى يقتضى ضرورة وجود الأول ، ولا بد ؛ والثانى موجود فالأول موجود . ففتشنا العالم كله عن أول لم يزل فلم نجده لأنه كله محدث ، لم يكن ثم كونه مبتدئه ، فوجب ضرورة أن الأول غير العالم ، وليس غير العالم إلا مبتدىء العالم ومحدثه .

فإذ قد صح الخالق وأنه واحد أول لم يزل ، وصحت النبوة ، وصحت الرسالة ، فالنظر واجب فى الأنبياء : —

فوجدنا شريعة النصارى فى غاية الفساد لوجوه : أحدها قولهم بخلاف التوحيد فى الابن والأب وروح القدس . والثانى لفساد نقلهم لرجوعه إلى ثلاثة فقط وهم مرقش ولوقا ويوحنا الناقل من متى ، (٢) فوضح عليهم

(١) أنظر رأى ابن حزم فى كيفية ظهور اللغات أعن توقيف أم عن اصطلاح ، مفصلا فى الإحكام ١ : ٢٩ وما بعدها .

(٢) راجع فى هذا المعنى كتاب الفصل ١ : ١١٤ ، ٢١٠

الكذب وأن أناجيلهم متضادة ، ظاهرة الكذب (١) فى أخبارها ، فبطلت الثقة بنقلهم ، مع أنها شريعة معمولة من أساقفتهم وملوكهم بإقرارهم ، وما كان هكذا فالأخذ به لا يجوز ، إذ لا يجوز فى هذا المكان إلا ما صحَّ أنه جاء به المرسل عن الله تعالى .

ووجدنا اليهود أيضاً شريعتهم فى غاية الفساد لأنها راجعة إلى كتب ضائعة النقل ، لم ينقلها من أول كونها إلى فُشُوِّها عندهم كافة ، بل دخلها التغيير والإتلاف وانقطاع حكمها ونقلها ، لكفرهم بها أيام دولتهم — ثم نقلوها — (٢) واتصال ذلك فيهم المئين من السنين ، مع عظيم ما فيها من كذب الأخبار ، مع بطلان شرائعهم التى أمروا بها بإقرارهم ، وامتناع إقامتها وما كان هكذا فليس هو من عند الله بل هو باطل مفتعل ، إذ لا سبيل إلى العمل بالواجب عندهم .

ثم نظرنا فى المجوس فوجدناهم مُقِرِّينَ أن شريعتهم كثيرٌ منها من عمل أزدشير بن بابك الملك ، وأنه ضَاعَ من شريعتهم وكتابهم نحو الثلثين (٣) أيام أحرقَ الاسكندرُ كتابهم ، وما كان هكذا فلا يجوز التدينُ به لأن الدين الذى يزعمون أنه الحق لا يختلفون فى أنه قد عدِمَ ، وما كان هكذا فلا يتدين به عاقل .

ثم نظرنا فى المنانية (٤) فوجدنا نقلهم فاسداً غير متصل بصاحبهم مع ظهور الكذب فى كتب صاحبهم ، وفساد ما أتى به وأخبر عنه ، ولم ينقل له

---

(١) فى الأصل : الذب

(٢) غير واضحة فى الأصل

(٣) كذا ذكر فى الفصل (١ : ١١٥) وقبل ذلك (١ : ١١٣) قال : متزون بلا خلاف أنه ذهب منه مقدار الثلث .

(٤) فى الأصل : المباينة : والمنانية هم اتباع مانى (أنظر كتاب الفصل ١ : ٣٥ والشهرستانى على هامش الفصل ٢ : ٨١) ومدار مذهب مانى على تخليص النور من الظلمة ، وهذا يقتضى الزهد والرياضة ، التى ينتج عنها طبقة الصفوة من الناس فيحرم عليهم التناسل ، وكل شىء حتى إطعام أنفسهم بأنفسهم ، وكل رجل من هؤلاء لابد له من رفيق من طبقة السماعين أو=

وهذه كتبه إلى كسرى وقيصر والملوك، وذكر رسله إلى البلاد، ما فى شىء منها ولا فى بعوثه وغزواته إيجابٌ استدلال، فإن جاز عندك أن يتفق الناس كلهم على كتمان هذا. فأعيذك بالله من أن يجوز هذا عندك.

ثم أعلم يا أخى أن الفرقة المحدثة لهذه المقالة، فرقةٌ أنت تدرى أنها غير مرضية عند جميع أئمة الهدى قديماً وحديثاً، وأنهم مطعونٌ عليهم فى أديانهم مظنون بهم السوء فى اعتقادهم. وبرهان ذلك أنهم أجسر الناس على عظيمة تقشعر منها الجلود وعلى إطلاق العظائم على البارى عز وجل بلا مبالاة، ولم يزالوا عند جميع الأمة مرذولين إلى أن يُبْلَغَ (١) إلى الذين لقينا منهم. ولقد قال لى بعض إخوانى كلاماً أقوله لك — قال: أسألك بالله هل بلغك أن أحداً أسلم على يدى متكلم من هؤلاء المتكلمين، واهتدى على أيديهم من ضلاله، وهل أسلم من أسلم واهتدى من اهتدى إلا بالدعاء المجرد الذى مضى عليه السلف؟ فوالله يا أخى ما وجدت لقوله جواباً، بل ما وجدتهم أحدث الله تعالى على أيديهم إلا الفرقة والشتات والتخاذل وافتراق الكلمة والجسْرَ على كلِّ طامة وعظيمة وتكفير المسلمين بعضهم بعضاً. وهذا أمر مشاهد. ثم هم فى خلال ذلك أبعد الناس عن المجىء ببرهان حق، وأكثرهم سفسطةً وتخليطاً واضطراباً وتناقضاً.

فإن قال قائل: قد ذممت التقليد وأبو بكر وخديجة وعائشة وعلى وخالد ابن سعيد وعمرو بن عبسة والانصار رضى الله عن جميعهم مقلدون أفَهُم مذمومون (٢) فى تقليدهم؟ قلنا وبالله تعالى التوفيق: لسنا نقول هذا، ولكنا قد بينا فى غير هـذا الموضع أن التقليد هو لمن اتبع من لا (٣) يؤمر بأتباعه فهذا هو المذموم فى تقليده وإن أصاب الحق. أما من اتبع من افترض الله تعالى عليه اتباعه، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فليس

---

(١) فى الأصل: إلى يبلغ

(٢) فى الأصل: فهم مهمومون.

(٣) فى الأصل: مما

يسمى مقلداً بل هو موفق مطيع لله تعالى ، محسن ، سواء اتبعه فى عقدة الاسلام أو فيما دون ذلك من الاعتقادات أو العبادات والأحكام . وقد بيَّنا أيضاً فى غير هذا الموضع أنه قد تقعُ الضرورةُ بخبر الواحد ويصح به العلم المتيقن ، وكل هؤلاء وقع لهم العلم الحق واليقين الضرورى بإخبار النبى صلى الله عليه وسلم لهم بالاسلام وبصحة نبوته . هذا مالا شك فيه عندنا البتة ، ولا يجوز غير هذا البتة .

ولقد كانوا أعلم وأفضل وأجلّ وأسلم وأتم من أن يستجيبوا لقول قائل ، بلا برهان(١) لولا أن الله تعالى أنزل السكينة عليهم كما قال الله : عزّ وجل « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً (٢) » وكما قال تعالى « حبب إليكم الإيمانَ وزيَّنَهُ فى قلوبكم ، وكَرَّهَ إليكم الكُفْرَ والفسُوقَ والعصيانَ أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة . والله عليم حكيم » (٣)

وأيضاً فقد صح برهان واضح أن الله تعالى خَلَقَ كلَّ شىء فى العالم من حامل ومحمول ولا ثالث لهما فى العالم ، فإذ ذلك كذلك ، فهو تعالى خالق الإيمان فى قلوب المؤمنين ، فمن خلق الله تعالى الايمان فى قلبه ولسانه فهو مؤمن صحيح الايمان ، سواء خلقه فى قلبه ولسانه دون استدلال أو خلقه باستدلال . وكذلك الكفر أيضاً : من خلق الله تعالى الكفر [فى قلبه] أو خلقه على لسانه فهو كافر محض .

وأيضاً فقد يستدل الدهر كله من لا يوفق للحق كما استدل الفيومى (٤)

---

(١) فى الأصل : فلا معنى .

(٢) سورة الفتح : ١٨

(٣) سورة الحجرات : ٧

(٤) قال ابن النديم (الفهرست : ٢٣) : و من أفاضل اليهود وعلمائهم المتمكنين من اللغة العبرانية و يزعم اليهود أنها لم تر مثله الفيومى ، واسمه سعيد ويقال سعديا وكان قريب العهد وقد أدركه جماعة فى زماننا » وله كتب عدة .

والمقمس وأبو ريطة اليعقوبي واذرباذ الموبذ (١) وأبو على مردان بخت المنانى ، ثم من فرق المسلمين : هشام بن الحكم (٢) وعلى بن منصور (٣) والنظام وغيره ، فبعضهم يسّر للكفر وبعضهم يسر للإيمان ولضلال البدعة معاً .

وقد يدّعى المجتهدون فى نصر أقوال مالك وأبى حنيفة أنهم مستدلون جهدهم وقد ملأوا الدنيا صحائف سمجة . ولم يسروا إلا للخطاء فى أكثر أقوالهم، وقد ييسر الله تعالى للإيمان والسنة من لا يستدل ، فالكل فعل الله تعالى ، فمن يسر للحق ، فهو محق كيفما اعتقده ، ومن يسر للباطل فهو مبطل كيفما اعتقده .

فإن قلت : بأى شىء يعرف الموفّق للعلم الصحيح أنّ هذا حق وأن هذا باطل ؟ قلنا : بالبراهين ، وهذا ما لا نخالفك فيه ، إلا أن عدم الاستدلال بالبرهان لا يخرج الحق عن أن يكون حقا فى ذاته ولا الباطل عن أن يكون باطلا فى ذاته . والله تعالى يخلق الإيمان والكفر فى قلوب عباده، وهم طبقات: فمنهم من يخلق الإيمان فى قلبه ضرورة بداءة كما خلق الله فى قلوبنا معرفة أن الكل أكثر من الجزء، وأن الحلو حلو والمر مر، وهذا أرفع درجات الإيمان، وهذا إيمان الملائكة والأنبياء عليهم السلام ؛ ومنهم من خلق الإيمان فى قلبه ضرورة عن تصديق مخبر كإسلام من ذكرنا من الصحابة ، رضى الله عنهم ، الذين صدقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خبره . ومنهم من خلق الإيمان فى قلبه ضرورة عن استدلال وبرهان برؤية المعجزات أو نقلها إليه ، وهذه

---

(١) هو اذرباذ بن مارسفند، موبذ موبذان، عاصر مانى وناظره بحضرة الملك بهرام بن بهرام فى مسألة قطع النسل وتعجيل فراغ العالم ، فانقطع مانى وقتله بهرام على الأثر (الفصل ١ : ٣٦)

(٢) انظر ترجمة هشام بن الحكم فى الفهرست : ١٧٥ — ١٧٦ ، واعتقادات الرازى: ٦٤ وتبصير الأسفرايينى: ٩٣، ٧٠، وهو زعيم الحكمية أو الهاشمية من فرق الشيعة، ويدين بالتجسيم .

(٣) هو الحلاج ، أنظر أخباره فى صلة الطبرى ، وتجارب الأمم ، ونشوار المحاضرة والمنتظم وفيما جمعه ماسينيون من أخباره وأقواله . وانظر أيضا ديوانه الذى جمعه ماسينيون فى المجلة الأسيوية ، ١٩٣١

صفة إيمان المستدلين منا ، ومنهم من خلق الإيمان فى قلبه بغير سبب ، وهذه صفة إيمان المحققين من العوام ، ولا إيمان لمن خرج من هذه الطباق .

وكذلك خلق الله تعالى الكفر فى قلوب عباده ، فمنهم من خلقه تقليداً ، ومنهم من خلقه فى قلبه حسداً للعرب وللنبى صلى الله عليه سلم ، ومنهم من خلقه فى قلبه اتباعاً لهوى وقع له أو سكوناً إلى الشك ، ومنهم من خلقه فى قلبه استدلالا ببعض الأدلة الفاسدة ، ومنهم من حكم الله تعالى عليه بالكفر وإن اعتقد الإيمان وعمل به وأعلنه ، لكن خرق الإجماع فى بعض أقواله كمن أقر بنبى بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، أو كذب بآية من القرآن أو بشريعة مجتمع عليها ، أو عمل عملا يكون به كافراً ، إن شاء الله تعالى .

فهذا بيان جميع هذه المسألة ، والحمد لله رب العالمين ، ثم السلام عليك أيها الأخ المحمود ، ورحمة الله وبركاته .

تمت بحول الله عز وجل ، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليما كثيراً
والحمد لله وحده

رسالة التوقيف على شارع النجاة

باختصار الطريق

بسم الله الرحمن الرحيم
صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

رسالة التوفيق على شارع النجاة

باختصار الطريق

قال الشيخ الحافظ أبو محمد على بن أحمد بن حزم رضى الله عنه :

الحمد لله رب العالمين كثيراً ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله ، وسلم تسليما ، وبالله نستعين على كل ما يقرب منه ، أما بعد فإن خطابك اتصل بى فيما شاهدته من انقسام أهل عصرنا قسمين : فطائفة اتبعت علومَ الأوائل وأصحابَ تلك العلوم ، وطائفة اتبعت علمَ ما جاءت به النبوة ، ورغبتكَ فى أن أُبيّنَ لك وجه الحقّ فى ذلك بغاية الاختصار ، لئلا يُنسى آخرُ الكلام أولَه ، وبنهاية البيان ، ليفهمه كلُّ من قرأه ، بلا كلفةٍ ، وأنْ يكونَ عليه من البرهان ما يصححه لئلا يصير دعوى كسائر الدعاوى ، فسارعت إلى ذلك متأيّداً بالله عز وجل لوجوبِ نصيحة الناس والسعى فى استنقاذهم من الهلكة ، وحسبنا الله تعالى .

اعلم — وفقنا الله وإياك لما يرضيه — أن علوم الأوائل هى : الفلسفة وحدود المنطق التى تكلم فيها أفلاطون وتلميذه ارسطاطاليس والاسكندر (١) ومن قفا قفوهم ، وهذا علم حسَنٌ رفيع لأنّه فيه معرفة العالم كله ، بكل ما فيه من أجناسه إلى أنواعه إلى أشخاص جواهره وأعراضه ، والوقوف على البرهان الذى لا يصح شىء إلا به ، وتمييزه مما يظن مَنْ جهل (٢) أنه برهان ، وليس برهاناً ، ومنفعة هذا العلم عظيمه فى تمييز الحقائق مما سواها .

---

(١) هو الاسكندر الافروديسى الذى فسر أكثر كتب أرسطاطاليس (أنظر الفهرست : ٢٥٢ وابن أبى أصيبعة ١ : ٦٩ والقفطى : ٥٤) وكانت بينه وبين جالينوس مناظرات ومشاغبات كما كانت شروحه يرغب فيها فى الأيام الرومية والإسلامية .

(٢) من جهل : مكررة فى الأصل .

وعلم العدد الذى تكلم فيه أندروماخش(١) مؤلف كتاب الارثماطيق فى طبائع العدد ، ومن نحا نحوه ، وهو علم حسن صحيح برهانى ، إلا أن المنفعة به إنما هى فى الدنيا فقط : فى قسمة الأموال على أصحابها ونحو هذا ، وكل ما لا نفع(٢) له إلا فى الدنيا فهى منفعة قليلة وَتِحَةٌ(٣) لسرعة خروجنا من هذه الدار ولامتناع (٤) البقاء فيها ، وكل ما ينقضى فكأنه لم يكن ، وكما يقول يحيى(٥) :

وما هذه الدنيا سوى كرِّ لحظة(٦) نعد بها الماضى وما لم يحن بعد
هى الزمن الموجود لاشىء غيره ومامَرّ والآتى عَدِيمان يادَعْد(٧)

وعلم المساحة التى تكلم فيها جامع كتاب أقليدس(٨) ومن نهج نهجه وهو علم حسن برهانى وأصله معرفة نسبة الخطوط والأشكال بعضها من بعض ومعرفة ذلك فى شيئين : أحدهما فهمُ صفة هيئة الأفلاك والأرض ، والثانى فى رفع الأثقال(٩) والبناء وقسمة الأرضين ونحو ذلك . إلا أن هذا القسم منفعته

---

(١) لم يذكر كل من ابن أبى أصيبعة والقفطى لأندروماخس الحكيم الفيلسوف كتاباً فى طبائع العدد ، (أنظر القفطى : ٧٢)، أما مؤلف كتاب الارثماطيق فى علم العدد فهو نيقوماخوس (القفطى : ٣٣٦) .

(٢) فى الأصل : يقع

(٣) فى الأصل : وتحى ، والوتحة القليلة التافهة

(٤) فى الأصل : والامتناع .

(٥) فى الأصل : يحى . ولعل الشاعر هو يحيى بن حكم الجيانى الملقب بالغزال ، وهو شاعر أندلسى حكيم .

(٦) فى الأصل : لر محطة

(٧) الشطر الثانى من هذا البيت غير واضح كثيراً فى الأصل .

(٨) كتاب إقليدس هو المعروف بأصول الهندسة أو الأصول كما سماه الاسلاميون وهو كتاب جامع فى بابه ، وقد نقل إلى العربية مرات عدة ، وعملت عليه شروح كثيرة ، وشرحه بعض الأندلسيين (القفطى : ٦٢ — ٦٥ ومقدمة ابن خلدون ٤٢٤)

(٩) فى الأصل : الاثقال

فى الدنيا فقط . وقد قلنا إن مالا نفع له إلا فى الدنيا فمنفعته قليلة لسرعة انقطاعها ولأنه قد يبقى المرء فى دنياه — طول مدته فيها — عاريا من هذين العلمين ولا يعظم ضرره بجهلهما(١) لا فى عاجل ولا فى آجل .

وعلم الهيئة : الذى تكلم فيه بطليموس ، ولونخس(٢) قبله ، ومن سلك مسلكهما ، أو سلكا مسلكه ، ممن كان قبلهما من أهل الهند والنبط والقبط وهو علم برهانى حسّىٌّ حسن ، وهو معرفة الأفلاك ومدارها وتقاطعها ومراكزها وأبعادها ومعرفة الكواكب وانتقالها وأعظامها وأبعادها وأفلاك تداويرها . ومنفعة هذا العلم إنما هو فى الوقوف على أحكام الصنعة وعظيم حكمة الصانع(٣) وقدرته وقصده واختياره وهذه منفعة جليلة جداً لا سيما فى الآجل .

وأما القضاء بالكواكب فباطل لتعرّيه من البرهان ، وإنما هو دعوى فقط . ولانحصى كم شاهدنا من كذب قضاياهم المحققة . وإن أردت الوقوف على ذلك فجرِّبْ ، تجد كذبها أضعاف صدقها كالراقى والمتكهن سواء سواء ولا فرق .

وعلم الطب الذى تكلم فيه أبقراط وجالينوس وذياسقوريدس(٤) ومن جرى مجراهم . وهو علم مداواة الأجسام من أمراضها مدة مقامها فى الدنيا ،

---

(١) فى الأصل : ضروره بجهلها

(٢) أما بطليموس فهو القلوذى صاحب المجسطى ومنظم علم الفلك ، وكل من جاء بعده من علماء الهيئة فإنما حاول شرح كتابه ، وأما لونخس فلم أتبينه والأشبه أن يكون هو ابرخس الذى يقال إنه أستاذ بطليموس وعنه أخذ (أنظر الفهرست : ٢٦٧)

(٣) فى الأصل : الصنائع .

(٤) أنظر الفهرست : ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ والقفطى : ١٠٠ ، ١٢٢ ، ١٨٣ ، وذياسقوريدس المشار إليه هنا هو المين زربى ؛ قال القفطى : وهو أعلم من تكلم فى أصل علاج الطب ، وهو العلامة فى العقاقير المفردة ، وهو من حيث الزمن سابق على جالينوس .

وهو(١) علم حسن برهانى إلا أن منفعته إنما هى فى الدنيا فقط ، ثم ليست أيضاً صناعة عامة ، لأننا قد شاهدنا سكان البوادى وأكثر البلاد يبرأون من عللهم بلا طبيب ، وتصحُّ أجسامهم بلا معالجة كصحة المتعالجين وأكثر ، ويبلغون من الأعمار كالذى يبلغه أهلُ التداوى فى القصر والطول ، وفيهم من يرتاضُ ومن يخدم ولا يرتاض ، ومن لا يرتاض ولا يخدم كأهل اليسار منهم والدعة من الرجال والنساء . فإن قيل : إن لهم علاجات يستعملونها (٢) قلنا تلك العلاجات ليست جاريات على قوانين الطب بل هى مذمومةٌ عند أهل العلم بالطب ، وأكثر ما يُقْدِمُون عليه بالرَّقْ ولا مدخل له عند أهل الطب .

فاعلم الآن أنَّ كلَّ علم قلَّتْ منفعته ، ولم تكن مع قلَّتها إلا دنياوية وعاش مَن جَهِلَهُ كهيش من علِمَهُ — مدة كونهما(٣) فى الدنيا — فإن العاقل الناصح لنفسه لا يجعله وَكْدَهُ ، ولا يُفْنى فيه عمره ، لأنه ينفق أيامَ حياته ، التى لا يستعيض فى الدنيا منها(٤) فيما لا ضرورة به إليه ولا كثيرَ حاجةٍ تدعوه نحوه .

ووجدنا ما جاءت به النبوة ومنفعته فى ثلاثة أشياء : أحدها : إصلاح الأخلاق النفسية وإيجاب التزام حَسَنِهَا : كالعدل والجود والعفة والصدق والنجدة فى موضعها ، والصبر والحلم والرحمة ، واجتناب سيئها كأضداد هذه التى ذكرنا . وهذه منفعةٌ عظيمة لاغنى لساكنى الدنيا عنها ، ولا شك فى العقل فى أن صلاحَ النفس ومداواتها من فسادها ، أنفعُ من مداواة الجسد وإصلاحه ، لأن مداواةَ الجسد تابعة لمداواة النفس . إذ فى

---

(١) فى الأصل : وهم (٢) فى الأصل : يستعملوها

(٣) فى الأصل : كونها (٤) فى الأصل : فيها

مداواة النفس إيجاب ألا يدخل الإنسان على جسده ما يؤلمه بالمرض ، فيقطع به عن مصالحه . وما عمَّ إصلاحَ النفس والجسد معاً أفضلُ وأولى بالاهتبال به مما خصَّ إصلاحَ الجسد فقط — هذا برهان عقلى ضرورى حسى .

ولا يمكن البتة إصلاحُ أخلاق النفس بالفلسفة دون النبوة ، إذ طاعة غير الخالق - عز وجل - لا تَلْزَمُ . وأهل العقول مختلفون فى تصويب هذه الأخلاق فذو القوة الغضبية التى هى غالبة (١) على نفسه لا يرى من ذلك ما يراه ذو القوة النباتية (٢) الغالبة على نفسه ، وكلاهما لا يرى من ذلك ما يرى ذو القوة الناطقة الغالبة على نفسه (٣) .

والوجه الثانى من منافع ما جاءت به النبوة : دفعُ مظالم الناس الذين لم تصلحهم الموعظة ولا سارعوا إلى الحقائق ، وحياطةُ الدنيا والأبشارِ والفروج والأموال ، والأمْنُ على كل ذلك من التعدى والغلبة وكفايةُ من ضاع ولم يقدر على القيام بنفسه . وهذه منفعة عظيمة جليلة ، لا بقاءَ لأحدٍ فى هذه الدنيا ، ولا صلاحَ لأهلها إلا بها . وإلا فالهلاك لازمٌ والبوارُ واجب . وليست كذلك منفعة العلوم التى قدمنا قبل ، وقد قدمنا أنه لا سبيل إلى منع التظالم ولا إلى إيجاد التعاطف بغير النبوة أصلاً ،

---

(١) فى الأصل : عالية .

(٢) فى الأصل : السانية .

(٣) قسم الفلاسفة الأخلاق والقوى بنسبتها إلى الأنفس وهى : النفس النباتية الشهوانية والنفس الحيوانية الغضبية ، والنفس الانسانية الناطقة فالأولى مسئولة عن شهوة الغذاء ، والثانية عن شهوة الجماع والانتقام والرياسة ، والثالثة عن شهوة العلوم والمعارف والتبحر والاستكثار منها (أنظر رسائل إخوان الصفا ١ : ٢٤١ وما بعدها) .

لما ذكرنا من أن طاعة غير الخالق تعالى لم يَقُمْ برهان بوجوبها ، ولأن الفسوق ومُخْتَلِفَةَ الأهواء لا يَنْقَادُ بعضها إلى بعض .

والوجه الثالث من منافع ما جاءت به النبوة هو التقدم لنجاة النفس فيما بعد خروجها من هذه الدار ، من الهلكة التى ليس معها ولا بعدها شيء من الخير ، لاما قل ولا ما كثر ، ولا سبيل ألبتَّةَ إلى معرفة حقيقة مراد الخالق منها ولا إلى معرفة طريق خلاصنا إلا بالنبوة ، وأما بالعلوم الفلسفية التى قدّمنا فلا ـ أصلاً ـ . ومن ادَّعى ذلك فقد ادعى الكذب ، لأنه يقول ذلك بلا برهان البتة ، وما كان هكذا فهو باطل ، ولا يعجز أحدٌ عن الدعوى ، وليست دعوى أحد أولى من دعوى غيره بلا (١) برهان . ثم البرهان قائم على بُطْلان هذه الدعوى ، لأن الفلاسفة الذين إليهم يسْتَنِدُ هذا المدَّعى يختلفون فى أديانهم كاختلاف غيرهم سواء سواء ، فوجب طلب الحقيقة فى ذلك عند من قام البرهان على أنه إنما يخبر عن خالق العالم ومدَبِّره ـ عز وجل ـ . وهذا مكان يُلزم العاقلَ الناصحَ لنفسه ألا يجعل كَدَّه ولا اجتهاده إلا فى الوقوف على حقيقته ، وإلا فهو مُوبِقٌ لنفسه ، ولا يشتغل عن ذلك بعلم من العلوم تقِلُّ منفعته ، ومَنْ فَعَلَ هذا فهو ضعيف العقل فاسد التمييز ، سيء الاختيار ، مستحق للذم ، جانٍ على نفسه عظيم الجنايات .

فأول ذلك أن ينظر : هذا العالمُ مُحْدَثٌ كما قالت الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وأكثر علماء الأوائل والفلاسفة ، أمْ لم يزل كما قال غيرهم . ومعرفة حقيقة ذلك قريبة جداً لصحة البرهان الحسى الضرورى المشاهد على تناهى عدد الأشخاص النامية من كل نوع من أنواع الحيوان والنبات فإن أشخاص نوعين منها أكثر عدداً بلا (٢) شك من أشخاص أحد ذينك

---

(١) فى الأصل : فلا

(٢) فى الأصل : عدد فلا

النوعين . فاذْ لاشكَّ فى هذا عند أحد ، فقد ثبت المبدأ فى وجود كل عدد متناه ، فقد وجب لها المبدأ ضرورة ـ ولا بدَّ ـ وإن زمان وجود الفلك الكلى ـ بكل ما فيه ـ يزيد عدد ساعاته بما يأتى منه ، وبالضرورة يدرى كل أحد (١) أن ما قبل الزيادة ، فإن النقص موجود فيه قبل تلك الزيادة . عما صار إليه بتلك الزيادة . ولا شـــك فى [أن] الزيادة والنقص لا يمكن وجودهما إلا فى ذى نهاية ومبدأ . فصحَّ المبدأ للعالم ضرورة ، وصحَّ أنه محدث مبتدأ (٢) والله أعلم .

وأيضاً فإن الزمانَ كلَّه يومٌ ثم يوم ـ هكذا مُدَّةَ وجوده ـ وكلُّ يوم فله مبدأ ونهاية بالمشاهدة . فاذ كل جزء من أجزاء الزمان ذو مبدأ ونهاية ـ والزمان ليس هو شيئاً غيرَ أجزائه التى هى أيامه ـ فالزمان ذو مبدأ ونهاية ـ ولا بدَّ ـ ضرورةً ، ومن أدعى مُدَّةً غيرَ الزمان فقد ادعى الباطل ومالا يقوم به برهان أبداً . ومن أراد إيقاع الزمان على البارى تعالى فقد تناقض بالباطل ، لأن الزمان ـ كما بيَّنَّا ـ ذو مبدأ ، والبارى لامبدأ له ، فهو خالق الزمان ، فهو فى غير زمان ـ ولا بد ـ

ثم ينظر هل له محدث مبتدىءٌ أو لا ، فوجب بأول العقل أن الحدوث والإبتداء فعلٌ ، والفعل يقتضى فاعلاً ضرورة ، ولايمكن غير ذلك أصلا .

وأيضاً فإن النشأة والتربية والعيش ، وعمارة مالا عيش إلا به من نبات الأرض والحيوان المُسَخَّرِ ، لا يمكن شىءٌ من ذلك البتة ولا يكون وجوده أصلا إلا بلغة يقع بها التخاطبُ والتفاهمُ ، ووجدنا كل مَنْ لم يعلم اللغة لا يتكلم أبداً . وهكذا وجدنا كلَّ من يولد أصمَّ ، فإنه لا يكون ضرورة إلا أبكم لاينطق أبداً ، فصحَّ ضرورةً أنه لا يتكلم أحدٌ أبداً إلا من سمع

---

(١) فى الأصل : أن كل أحد .

(٢) أنظر ما أورده ابن حزم من براهين على حدوث العالم فى الفصل ١ : ١٤ وما بعدها

الكلام وعلمه ، وكذلك جميع العلوم لا يمكن البتة أن يحسنها أحدٌ أبداً إلا حتى يعلمها . برهان ذلك المشاهد . مُدَّةَ عمر العالم إلى يومنا هذا ، فإن كلَّ من لا يعلم الكلام لا يعلمه . والبلاد التى لا علم فيها كبلاد الروم والصقالبة والترك والديلم والسودان والبربر والبوادى التى بين الحواضر لا سبيل إلى أن يوجد فيها شئ من العلوم التى لم يعلموها مذ وجد (١) العالم إلى يومنا هذا وكذلك جميع الصناعات من الحرث والحصاد والدَّرس ، وآلات كل ذلك والذَّرْوِ والطحن وعمل الكتان والقطن والقنب والحرير وغزل ذلك كله ، لا سبيل إلى أن يعرف أحدٌ شيئاً من ذلك كله إلا حتى يوقَفَ عليه فيقبله ويترفق به ويفتق (٢) بذهنه فى ذلك بما جعل فى طبعه من قبوله (٣) وبرهان ذلك أنه من لم يعلمه قط لا يدريه ، وأنَّ البلاد التى خلت من بعض هذه الصناعات لا توجد أصلا فيها مذ كان العالم إلى يومنا هذا ، بخلاف ما تقتضيه الطبيعةُ مما لا يُحْتَاج فيه إلى معلم : كالرضاع والأكل والشرب والجماع وغير ذلك مما لا يحتاج فيه الإنسان إلى معلم وكذلك سائر الحيوان . فصحَّ ضرورةً — صحةً حسنةً مشاهدة — أنه لابد فى اللغات من معلم ، ولا بد فى الصناعات من معلم ، ليس من المعلمين الذين فى طبعهم تعلم ذلك دون تعليم ، إذ لو كان ابتداءُ ذلك موجوداً فى الطبيعة لوجدَ ذلك فى كلِّ عصر وفى كل مكان ، لأن الطبيعة واحدة فى جميع النوع ؛ وكذلك نجدهم يستوون كلهم فيما توجبه الطبيعة لهم ، إلا أن يعرض عارضٌ حائلٌ فى بعض النوع . فوجب ضرورةً أن مبتدئ إيجاد (٤) العالم هو الذى ابتدأ تعليم اللغات وابتدأ تعليم الصناعات ، لابدَّ من ذلك ، وأنه تعالى علَّم كلَّ ذلك أوَّل من أحدث من نوع الإنسان ، ثم علَّمها ذلك المعلِّمُ سائر نوعه . ثم تداولوا

---

(١) فى الأصل : وجدوا

(٢) فى الأصل : ويفيق

(٣) اقرأ فى الفصل ١ : ٦٨ ، ٧٢ نصاً مشابهاً لهذه الفقرة .

(٤) فى الأصل : إيجاب

تعلم ذلك . وهذا برهان ضروري حسي مشاهد ، يقتضي — ولا بد — وجود الخالق ووجود النبوة ، وهي تعليم الخالق اللغات (١) والعلوم والصناعات ابتداء ، ووجود الرسالة وهي تعليم ذلك النبي صلى الله عليه وسلم لمن أمر بتعليمه إياه .

فإذ قد صح هذا كله من قرب ، فالنظر واجب : هل مبتدئ العالم واحد أم أكثر من واحد . ومعرفة حقيقة هذا يقرب جداً — وذلك أنه لولا الواحد لم يوجد عدد ولا معدود ، ففتشنا العالم كله هل نجد فيه واحداً فلم نجده أصلا ، لأن كل ما في العالم فإنه ينقسم أبداً فهو كثير لا واحد ، فإذاً لابد من واحد في العالم ، فالواحد هو غير العالم ، وليس غير العالم إلا مبتدئ العالم ، فهو الواحد الذي لا يتكثر ، لا واحد سواه ؛ فوجدنا العالم محدثاً تالياً كما وصفنا ، لم يكن ثم كونه مكونه الذي ابتدأه ، ولابد من أول ، إذ لولا الأول لم يكن الثاني أصلا ، ووجود الثاني يقتضي ضرورة وجود الأول ، ولابد ؛ والثاني موجود فالأول موجود . ففتشنا العالم كله عن أول لم يزل فلم نجده لأنه كله محدث ، لم يكن ثم كونه مبتدئه ، فوجب ضرورة أن الأول غير العالم ، وليس غير العالم إلا مبتدئ العالم ومحدثه .

فإذ قد صح الخالق وأنه واحد أول لم يزل ، وصحت النبوة ، وصحت الرسالة ، فالنظر واجب في الأنبياء : —

فوجدنا شريعة النصارى في غاية الفساد لوجوه : أحدها قولهم بخلاف التوحيد في الابن والأب وروح القدس . والثاني افساد نقلهم لرجوعه إلى ثلاثة فقط وهم مرقش ولوقا ويوحنا الناقل من متى ، (٢) فوضح عليهم

(١) أنظر رأى ابن حزم في كيفية ظهور اللغات أعن توقيف أم عن اصطلاح ، مفصلا في الإحكام ١ : ٢٩ وما بعدها .

(٢) راجع في هذا المعنى كتاب الفصل ١ : ١١٤ ، ٢١٠

الكذب وأن أناجيلهم متضادة ، ظاهرة الكذب (١) فى أخبارها ، فبطلت الثقة بنقلهم ، مع أنها شريعة معمولة من أساقفتهم وملوكهم بإقرارهم ، وما كان هكذا فالأخذ به لا يجوز ؛ إذ لا يجوز فى هذا المكان إلا ما صحَّ أنه جاء به المرسل عن الله تعالى .

ووجدنا اليهود أيضاً شريعتهم فى غاية الفساد لأنها راجعة إلى كتب ضائعة النقل ، لم ينقلها من أول كونها إلى فُشُوِّها عندهم كافة ، بل دخلها التغيير والإتلاف وانقطاع حكمها ونقلها ، لكفرهم بها أيام دولتهم — ثم نقلوها — (٢) واتصال ذلك فيهم المئين من السنين ، مع عظيم ما فيها من كذب الأخبار ، مع بطلان شرائعهم التى أمروا بها بإقرارهم ، وامتناع إقامتها وما كان هكذا فليس هو من عند الله بل هو باطل مفتعل ، إذ لا سبيل إلى العمل بالواجب عندهم .

ثم نظرنا فى المجوس فوجدناهم مُقِرِّينَ أن شريعتهم كثيرٌ منها من عمل أزدشير بن بابك الملك ، وأنه ضَاعَ من شريعتهم وكتابهم نحو الثلثين (٣) أيام أحرقَ الاسكندرُ كتابهم ، وما كان هكذا فلا يجوز التدينُ به لأن الدين الذى يزعمون أنه الحق لا يختلفون فى أنه قد عدِمَ ، وما كان هكذا فلا يتدين به عاقل .

ثم نظرنا فى المنانية (٤) فوجدنا نقلهم فاسداً غير متصل بصاحبهم مع ظهور الكذب فى كتب صاحبهم ، وفساد ما أتى به وأخبر عنه ، ولم ينقل له

---

(١) فى الأصل : الذب

(٢) غير واضحة فى الأصل

(٣) كذا ذكر فى الفصل (١ : ١١٥) وقبل ذلك (١ : ١١٣) قال : مذرون بلا خلاف أنه ذهب منه مقدار الثلث .

(٤) فى الأصل : المباينة : والمنانية هم اتباع مانى (أنظر كتاب الفصل ١ : ٣٥ والشهرستانى على هامش الفصل ٢ : ٨١) ومدار مذهب مانى على تخليص النور من الظلمة ، وهذا يقتضى الزهد والرياضة ، التى ينتج عنها طبقة الصفوة من الناس فيحرم عليهم التناسل ، وكل شىء حتى إطعام أنفسهم بأنفسهم ، وكل رجل من هؤلاء لابد له من رفيق من طبقة السماعين أو=

أحد أيّة معجزة نقلاً يوجب صحة العلم بها ، وما كان هكذا فهو باطل بلا شك ، مع ما فيها من الفساد الظاهر من إيجابه قطع النسل ليعودَ النور إلى خلاصه وهذا أمر لا يمكن البتة لاختلاف أجناس الحيوان البحرى والطائر والدارج وعدم القوة على قطع تناسلها ، فلا أفسد من شريعة مدارها على سبيل إيجاب ما لا سبيل اليه .

ثم نظرنا فى الصابئين فوجدناها ملة قد بطلت بالكلية ، ولم يبق لها أثر مع أن أصولهم أصولُ المنانية التى لا شك فى كذبها . وأيضاً فإن نقلهم قد انقطع فلا سبيل إلى تصحيح معجزة شاهدةٍ لمن قلدوه دينهم . وأيضاً فإن شرائعهم بإقرارهم من عمل أكابرهم ، وما كان هكذا فلا يتدين به عاقل .

فإذ قد بطلت هذه الديانات وليس فى العالم ملة تقر بنبىٍّ غير هؤلاء — ولابُدّ من ملة مأخوذة عن نبىٍّ إذ لا سبيل إلى معرفة ما يأمر به الخالق تعالى إلا بنقل نبى — لم يبق إلا محمد بن عبد الله عليه السلام وملته وهو الذى كتابه منقول نقل الكوافّ من عنده إلينا — بخلاف نقل الانجيل الراجع إلى ثلاثة قد ظهر كذبهم ، وبخلاف نقل (١) التوراة التى هى راجعة إلى واحد وهو عزرا (٢) ، وكانت قبل ذلك أيام دولتهم ممنوعةً من كل واحد إلا من الكاهن وحده — وأعلامُهُ منقولة كذلك فى الكتاب المذكور كاعجاز القرآن وعجز العرب عنه وكشقه القمر إذ سألوه آية ، وكتجربة اليهود بأن يتمنوا الموتَ وإعلامه أنهم (٣) لا يتمنونه أبداً (٤) وإذعانِ ملوك اليمن وإيمانهم به دون خوف منهم له ولا طمع

= المريدين يقوم بخدمته (١) فى الأصل : فعل

(٢) هو من الشخصيات الهامة فى التاريخ الاسرائيلى ويقال إن ملك الفرس المسمى Artaxerxes أرسله من بابل الى القدس ليعيد الشريعة المهملة فقرأ فى القدس الشريعة على الناس وأدخل فيها إصلاحات . ويقال إن عمله لم يقتصر على إعادة توراة موسى التى كانت قد احترقت بل إنه أحيى كثيراً مما كان قد درس من كتب اليهود ، غير أن بعض المؤرخين يظن أنه لم يكن شخصية تاريخية.

(٣) فى الأصل : أنه

(٤) سورة البقرة : ٩٤ وأنظر فصلا عقده ابن حزم عن أعلام الرسول فى كتابه « جوامع السير » الورقة السادسة وما بعدها . قال : ودعا اليهود إلى تمنى الموت وأخبرهم أنهم لا يتمنونه فحيل بينهم وبين النطق بذلك .

منه فى حظوة دنيا من مال أو جاه لديه ، بل دعاهم إلى ترك الملك والنزول عنه والدخول فى العامة ، وإسقاط الفخر والثأر والعداوات وطلب الدماء ، والرجوع إلى مؤاخاة من قتل الآباء والأبناء ، فأجابوه كلهم كملوك اليمن وملوك عمان والبحرين وغيرهم — حتى جبلة بن الأيهم ثم ارتد أنفة ولم يزل نادماً على ردته — لا ينكر ذلك أحد ، مع براءة كتابه المنزل عليه من كل كذب ومن كل مناقضة ومن كل محال ، فصحت نبوته صحة لا مرية فيها ، وشريعته المتصلة من عهده عنه إلينا ، لأنها لم تكن قط منقطعة فيما بينه وبيننا ولا طرفة عين فما فوقها ، ولا كانت عند خاص دون عام ، بل منقولة من بين المشرق والمغرب .

فإذ قد صح هذا كله : فالواجب على العاقل ألا يقطع دهره إلا بطلب معرفة ما ينجيه فى معاده ، ويخلصه من الهلكة ومن النيران المحيطة بها ، ويرفعه إلى السموات التى هى محل الحياة الأبدية والنجاة من كل مكروه وموضع السرور السرمدى واللذات الدائمة التى لا انقطاع لها . ولا يشتغل من سائر العلوم إلا بمقدار ما يعرف به أعراضها ، ويزيل عن نفسه عمى (١) الجهل بأنه لعل فيها ما ليس فيها ، وما يتعلق بالديانة منها ، ثم يرجع إلى ما فيه خلاصه .

وإذ لا شك فى هذا فاعلم أن الفلاسفة لم يدعوا قط أنهم تخلصوا بها بعد الموت ، ولو ادعوا ذلك لكانت دعواهم كاذبة لتعريها من برهان يصدق الأبدية ، والنجاة من كل مكروه ، وموضع السرور السرمدى واللذات الدائمة التى لا انقطاع لها ، والله أعلم بالصواب . وأيضاً فإنهم فى آرائهم فى أديانهم يختلفون : هذا بين فى كتبهم ، فبعضهم يثبت حدوث العالم كسقراط وافلاطون ، وبعضهم يثبت أنه لم يزل وأنه له فاعل لم يزل يخلق ، وهذا قول ينسب إلى أرسطاطاليس ، وبعضهم يثبت النبوة والمعاد

---

(١) فى الأصل : عم

والجزاء فى المعاد ، والملائكة ، كأفلاطون وصاحب كليلة ودمنة من فلاسفة الهند ، وبعضهم يقول بتناسخ الأرواح ، كصاحب كتاب سندباد من فلاسفة الهند . فهم كغيرهم فى الإختلاف ، ولا فرق ، ولا فضل .

فالعاقل الناصح لنفسه هو من اتبع من يُخَلِّصه ، والمجنون هو من اتبع من لا يخلصه ولا يغنى عنه شيئاً ، ولا ينفعه عاجلا ولا آجلا . ليس فى الحماقة أكثر من هذا . وإذ لا شك فى هذا فهذه صفة تعمُّ كل أحد حاشا الذى أرسله الله خالقنا تعالى إلينا ، لخلاصنا فى عاجلنا وآجلنا .

واعلم أنَّ من طلب علم الشريعة ليدرك به رياسة أو يكسب به مالا فقد هلك ، لأنه طلبه لغير ما أمره خالقه أن يطلبه ؛ لأن خالقنا ـ عزَّ وجل ـ إنما أمرنا أن نطلب ما شرع لنا لننجو به بعد الموت من العذاب والسخط . فمن طلبه لغير ما أمره به خالقـــه ، فَقَدَ عطاءه وبطل تعبه وحبط عمله وضلَّ سعيه .

واعلم أنَّ من أخذ الشريعة عن غير ماصحَّ عن صاحب الشريعة الذى أرسله الله تعالى بها ، واتبع من لم يأمره الله تعالى باتباعه فقد خاب وخسر وبطل عمله . والذى قلنا فى هذا هو الذى مضى عليه أهل الحق من الذين صحبوا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فمن بعدهم ، جيلاً جيلاً ؛ وحدث فى خلال ذلك من الآراء الفاسدة ما لا يخفى على أحد حدوثه ومبدأه ، وقد لاحَ أنَّ كلَّ حادث غير ما أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو باطلٌ مفترى ، والباطل فرضٌ اجتنابه ، وبالله التوفيق .

فهذا بيان ما سألت عنه بغاية الاختصار والبيان ونهاية البرهان ، والحمد لله كثيراً ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله وسلم تسليما كثيراً .

كملت رسالة التوقيف على شارع النجاة باختصار الطريق ؛
بحمـد الله تعـالى وعونه وحسن توفيقه ، وبالله المستعـان

رسالة مراتب العلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

رسالة مراتب العلوم

قال الفقيهُ الإمام الحافظ أبو محمد على بن سعيد بن حزم ، رحمه الله : الحمد لله رب العالمين الذى أفاض علينا النعم الجزيلة ، ومنحنا القوى الرفيعة ، حمداً يرضيه عنا ، ويقتضى لنا المزيد من آلائه (١) ومواهبه السنية ، وصلى الله على سيدنا محمد ، خيرته من الأنس ، وصفوته من ولد آدم ، المبعوث بالهدى لاستنقاذ من اتبعه من ظلمات الكفر وعمى الجهل إلى نور العلم .

أما بعد : فإن الله تعالى كرم بنى آدم وفضلهم على كثير ممن خلق . وخصهم على سائر خليقته بالتمييز الذى مكنهم به من التصرف فى العلوم والصناعات . فواجب على المرء ألا يضيع وديعة خالقه عنده وأن لا يهمل عطية باريه لديه ، بل فرض عليه أن يصونها باستعمالها فيما له خلق ، وأن يحوطها فى تصريفها فيما دعى إليه .

وبعد : فإن لكل مقام مقالا ، ولكل زمان حالا ، وإن السالفين قبلنا كانت لهم علوم يواظبون على تعليمها ، ويورثها الماضى منهم الآتى . ثم إن من تلك العلوم ما بقى وبقيت الحاجة إليه ، ومنها ما درس رسمه ، ودثرت أعلامه ، وانبتَّ(٢) جملة فلم يبق إلا اسمه . فمن ذلك علم السحر ، وعلم الطلسمات(٣) . فإن بقاياها ظاهرة لائحة ، وقد طمس معرفة علمها ، ومن

---

(١) فى الأصل : الاله

(٢) فى الأصل : وأبنت

(٣) أنظر مقدمة ابن خلدون : ٤٣٣ وقد عرف الاندلسيون علوم السحر والطلسمات عن طريق مسلمة بن أحمد المجريطى إمام أهل الأندلس فى التعاليم والسحريات فهو الذى لخص كتب الأقدمين فى هذه الناحية .

ذلك علم الموسيقى وأصنافها الثلاثة، فإن الأوائل يصفون أنه كان منها [ما] يشجع الجبناء وهو اللوى. ونوع ثان يسخّى البخلاء وأظنه الطنينى، ونوع ثالث يؤلف بين النفوس وينفر (١). وهذه صفات معدومة من العالم اليوم جملة. فاعلموا أسعدكم الله بتوفيقه أن من رأيتموه يدعى علم الموسيقى واللحون، وعلم الطلسمات، فإنه ممخرق كذاب ومشعوذ وقاح، وكذلك من وجدتموه يتعاطى علم الكيمياء فإنه قد أضاف إلى هذه الصفات الذميمة التى ذكرنا استئكال (٢) أموال الناس، واستحلال التدليس فى النقود وظلم من يعامل فى ذلك، والتغرير بروحه وبشرته فى جنب ما يعانى من هذه الرذيلة. فإن العلمين المذكورين أولا، وإن كانا قد عدما وانقطعا ألبتة، فقد كانا موجودين دهورا. وأما هذا العلم الذى يَدَّعونه من قلب جوهر الفلزّ، (٣) فلم يزل عدماً غير موجود. وباطلا لم يتحقق ساعة من الدهر؛ إذ من المحال قلب نوع إلى نوع، ولا فرق بين أن يقلب نحاس إلى أن يصير ذهباً أو قلب ذهب إلى أن يصير نحاسا، وبين قلب إنسان إلى أن يصير حماراً، أو قلب حمار إلى أن يصير إنسانا. وهكذا سائر الأنواع كلها، وهذا ممتنع ألبتة، وبالله تعالى التوفيق، ومنه أستمد لا إله إلا هو، فلا وجه للاشتغال بعلم قد دثر وعدم، وإنما الواجب أن يتهمم المرء بالعلوم الممكن تعلمها التى قد ينتفع بها فى الوقت، وأن يؤثر منها بالتقديم ما لا يتوصل إلى سائره إلا به ثم الأهم فالأهم والأنفع فالأنفع، فإن من رام الارتقاء إلى أرفع العلوم دون معاناة ما لا يوصل إليه إلا به، كمن رام الصعود الى علية مفتحة مظلمة أنيقة البناء دون أن يتكلف التنقل إليها فى الدرج والمراقى التى لا سبيل إلى تلك العلية إلا بها.

---

(١) الأجناس فى الموسيقى ثلاثة أحدها الطنينى والثانى اللوى والثالث التأليفى وتسمى كذلك بنسبة تقسيم الأبعاد فالأول أخلها وهو يحرك النفس إلى النجدة وشدة الانبساط ويسمى الرجلى والثانى يحرك النفس للكرم والحديث والجراءة ويسمى الخنثوى، والثالث يولد الشجا والحزن ويسمى النسوى (مفاتيح العلوم: ١٤٠).

(٢) فى الأصل: فى استئكال (٣) فى الأصل: الفكر

وليس للمرء إلا داران : دار الدنيا ، ودار معاده إذا فارق الدنيا ؛ وبيقين ندرى أن مدة المقام فى هذه الدار إنما هى أيام قلائل . وإجهاد المرء نفسه فيما لا ينتفع به إلا فى هذه الدار من العلوم رأى فائل (١) ، وسعى خاسر ، لأن المنتفع به فى هذه الدار من العلوم ، إنما هو ما اكتسب به المال ، أو ما حفظت به صحة الجسم فقط ، فهما وجهان لا ثالث لهما . فأما العلوم التى يكتسب بها المال فإن وجه الكسب بها ضيق غير متسع ، واكتساب المال بغير العلم أجدى وأشد توصلا إلى المرء من التوسع فى [العلم] (٢) لكسب المال، كصحبة السلطان وعمارة الأرض والتقلب فى التجارات . وهذه الوجوه كلها قد نجد الجاهل الأغتم أنفذَ (٣) فيها من العالم النحرير ؛ فإذ ذاك كذلك ، فالشغل بطلب العلم ليكون سببا إلى كسب المال والتعب فيه بهذه النية عناءٌ وضلال ، وفاعله قد جمع عيبين عظيمين : أحدهما ترك أخصر الطريقين إلى مطلوبه وأسهلهما فى التوصل إلى غرضه ، وركب أوعرهما مسلكا وأطولهما تعباً وأقلهما فائدة وأبعدهما منفعة . والوجه الثانى أنه استعمل الفضيلة التامة التى بان بها عن الحشرات والبهائم فى اقتناء حجارة لا يدرى متى تدعه أو يدعها ، وكان كمن أتعب نفسه ، وأسهر ليله وأطال كده فى إقامة سيف هندى قاطع نفيس ، وبنى داراً سرية أنيقة البناء محكمة النقوش (٤) ، موثقة الأساس ، فلما تمَّا له كما أراد جعل يستعمل السيف فى كسر العظام وقطع البقل ، وأوقف الدار لطرح ما يكنس فيها من الحشوش ، فمن أخسر صفقة من هذا ! !

وأما العلم الذى ليس فيه الا حفظ صحة الجسم فقط ، فإن المتعب فيه

---

(١) فى الأصل : قائل
(٢) زيادة يقتضيها السياق
(٣) فى الأصل : انفسد
(٤) فى الأصل : النفوس

بدنه ، المجهد لنفسه فى تلقّيه (١) وتقييده لا يحصل من تمامه لديه إلا على البصر (٢) فى معاناة مرض لا يدرى أيتم له غرضه من برئه أم لا يتم . ثمّ إن تمّ فليس على ثقة من عود ذلك الداء بعينه أشد ما كان ، أو حدوث داء آخر مثل الذى استنفد طوقه فى معاناته (٣) وأعضل منه . وأما المضمون المحتوم فإنه لا يقدر على دفع الموت إذا حل ، ولا على علاج الزمانة إذا استحكمت ؛ ولعل ذلك يحدث بمن أتعب نفسه فى مداواته فى أسرع من كرّ (٤) الطرف .

فمن تأمل ما ذكرنا ، علم أن المنفعة بما قصد به من العلوم إلى المنفعة الخاصة ، قليلة جداً وضعيفة العائدة جملة . إلا أن هذين الوجهين (٥) وإن كانا وتحى النفع قليلىَ الإجزاء (٦) لاتصالهما (٧) بالتعب فى اقتناء العلم الذى هو سببهما ، فلهذا حظٌّ من النفع . وإنما الداء العياء ، والذم الكامل ، والخسارة المحضة ، حال من اقتنى أرفع العلوم ليحصل به على كسب مال من غير وجهه ، وصرف ما علم فى غير طريقه ، فإن حال الجاهل الخاملة أجل (٨) من حال العالم ، لما ذكرنا . ونسأل الله التوفيق ونعوذ به من الخذلان .

فإذ الأمر كما ذكرنا ، فأفضل العلوم ما أدّى إلى الخلاص فى دار الخلود ووصل إلى الفوز فى دار البقاء . فطالب هذه العلوم لهذه النية هو المستعيض بتعب يسير راحة الأبد ، وهو ذو الصفقة الرابحة والسعى المنجح الذى بذل

---

(١) فى الاصل : تتقينه
(٢) فى الاصل : الحصر
(٣) فى الاصل : استنفذ طونه فى معاته
(٤) فى الاصل : كد
(٥) فى الاصل : إن هذا من الوجهين
(٦) الوتح : القليل التافه ، والإجزاء : مصدر من أجزأ بمعنى أغنى وكفى
(٧) فى الأصل : لاتحاصلها (٨) فى الأصل : لحامله أمل

قليلا واستحقّ كثيراً ، وأعطى تافهاً وأخذ عظيما. وهو الذى عرف مالا يبقى معه فزهد فيه ، وَمَيَّزَ مالا يزايله فسعى له ، ونسأل الله أن يجعلنا فى عدادهم بمنّه آمين .

وباليقين يدرى كل ذى [لب] (١) سليم أنه لا يتوصل إلى العلوم إلا بطلب ، ولا يكون الطلب إلا بسماع وقراءة وكتاب ، لابدّ من هذه الثلاث خصال ، وإلا فلا سبيل دونها إلى شىء من العلوم ألبتة . فإذ ذلك كذلك ، فلنتكلم — بعون الله تعالى — على وجه التوصل إلى العلوم ، وبيان أفضلها صفة وأعلاها قدراً ، والذى بالناس إليه الضرورة الماسة ، والفاقة الشديدة والحد الذى لا يجزىء منه ما دونه ، والنهاية التى لا وراء لها منه . فالواجب على من ساس صغار ولدانه وغيرهم أن يبدأ منذ أول اشتدادهم وفهمهم ما يخاطبون به ، وقوتهم على رجع الجواب — وذلك يكون فى خمس سنين أو نحوها من مولد الصبى — فيسلمهم [الى مؤدب] (٢) فى تعليم الخط وتأليف الكلمات من الحروف فإذا درب الغلام فى ذلك ، درس (٣) وقرأ

والحدّ الذى لا ينبغى أن يقتصر المعلم على أقلّ منه أن يكون الخط قائم الحروف ، بيناً صحيح التأليف الذى هو الهجاء ، فإن الخط إن لم يكن هكذا لم يقرأ إلا بتعب شديد . وأما التزيد فى حسن الخط فليس هو فضيلة بل لعله داعية إلى التعلق بالسلطان ، فيفنى دهره إما فى ظلم الناس ، وإما فى تسويد القراطيس بتواقيع بعيدة (٤) من الحق ، مشحونة بالكذب والباطل ، فيضيع زمانه باطلا ، وتخسر صفقته ، ويندم حين لا ينفعه الندم ، وكان كإنسان ملك مسكاً كثيراً فترك أن يصرفه فى التطييب به ومداواة النفوس بريحه وفغوته (٥)

---

(١) زيادة لازمة

(٢) زيادة يقتضيها السياق

(٣) فى الاصل : ودرب

(٤) فى الاصل : بعيد

(٥) فى الاصل : وقوته ؛ والفغوة : الرائحة الطيبة .

وأقبل يطيِّبُ به البهائم ، ويصبه فى الطريق حتى فنى فى غير فائدة . فهذا [حدّ] تعلم الكتاب .

وحد تعلم القراءة أن يمهر فى القراءة لكل (١) كتاب يخرج من يده بلغته التى يخاطب بها صقعه ، وينفذ فيه ، ويحفظ مع ذلك القرآن فإنه يجمع بذلك وجوهاً كثيرة عظيمة ، أحدها التدرب فى القراءة له وتمرين (٢) اللسان على تلاوته فيحصلُ من ذلك حداً ، إلى مايحْصُلُ عنده من عهوده الفاضلة ووصاياه الكريمة . ليجدها عدة عنده مدخرةً لديه قبل حاجته إليها يوم حاجته إليها (٣) .

فإذا نفذ فى الكتابة والقراءة كما ذكرنا . فلينتقل إلى علم النحو واللغة معاً :

ومعنى النحو : هو معرفة تنقل هجاء اللفظ وتنقل حركاته الذى يدل كل ذلك على اختلاف المعانى كرفع الفاعل ونصب المفعول ، وخفض المضاف ، وجزم الأمر والنهى ، وكالياء فى التثنية والجمع ، فى النصب وخفضهما ، وكالألف فى رفع التثنية ، والواو فى رفع الجمع وما أشبه ذلك . فإن جهل هذا العلم عسر عليه علم ما يقرأ من العلم .

واللغـــة : هى ألفاظ يعبر بها عن المعانى فيقتضى من علم النحو كل ما يتصرف فى مخاطبات الناس وكتبهم المؤلفة ، ويقتضى من اللغة المستعمل الكثير التصرف . وأقل ما يجزئ من النحو « كتاب الواضح » للزبيدى (٤) أو ما نحا نحوه « كالموجز » لابن السرّاج (٥) ، وما أشبه هذه الأوضاع

---

(١) فى الاصل : كل

(٢) فى الأصل : وتميز

(٣) فى الاصل : إليه يوم حاجته إليه

(٤) هو محمد بن الحسن نحوى الاندلس ولغويها المشهور ؛ انظر ترجمته فى الجذوة رقم ٣٤ وانباه الرواة : ٦٢٤ وأخبار المحمدين : ٧٣ — ٧٤ والوافى ٢ : ٣٥١ وبغية الوعاة : ٣٤

(٥) هو محمد بن السرى البغدادى النحوى صاحب المبرد وعنه أخذ الزجاجى والسيرافى . توفى سنة ٣١٦ وله مؤلفات أخرى عدا الموجز منها الأصول فى النحو ، والجمل والاشتقاق وغيرها (أنظر تاريخ بغداد ٥ : ٣٩٣ ومعجم الأدباء ٧ : ٩ والوافى ٣ : ٧٦) .

الحقيقية ، وأما التعمق فى علم النحو ففضول لا منفعة بها بل هى مشغلة عن الأوكد ، ومقطعة دون الأوجب والأهم ، وإنما هى تكاذيب فماوجه الشغل بما هذه صفته ؟ وأما الغرض من هذا العلم فهى المخاطبة ، وما بالمرء حاجة إليه فى قراءة (١) الكتب المجموعة فى العلوم فقط . فمن يزيد فى هذا العلم إلى إحكام كتاب سيبويه فحسن ، إلا أن الاشتغال بغير هذا أولى وأفضل ، لأنه لا منفعة للتزيد على المقدار الذى ذكرنا إلا لمن أراد أن يجعله معاشاً فهذا وجه فاضل لأنه باب من العلم على كل حال .

والذى يجزىء من علم اللغة كتابان : أحدهما « الغريب المصنف » لأبى عبيد ، والثانى « مختصر العين » للزبيدى ، ليقف على المستعمل بهما . ويكون ما عدا المستعمل منهما عُدَّة لحاجة إن عنّتْ يوما ما فى لفظ مستغلق فيما يقرأ من الكتب . فإن أوغل فى علوم اللغة حتى يحكم « خلق الإنسان » لثابت ، و « الفرق » له ، (٢) و « المذكر والمؤنث » لابن الانبارى و « الممدود والمقصور والمهموز » لأبى على القالى و « النبات » لأبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى ، وما أشبه ذلك فحسن بخلاف ما قلنا فى علل النحو ، لأن اللغة كلها حقيقة وذات أوضاع صحاح وعبارات عن المعانى ولو كانت اللغة أوسع حتى يكون لكل معنى فى العالم اسم مختص به ، لكان أبلغ للفهم وأجلى للشك وأقرب للبيان ، إلا أن الاقتصار على المقدار الجارى مما ذكرنا ، والانصراف الى الأهم والأوكد من سائر العلوم أولى .

وإن كان مع ما ذكرنا رواية شىء من الشعر فلا يكن إلا من الأشعار التى فيها الحكم والخير كشعر حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله ابن رواحة رضى الله عنهم ، وكشعر صالح بن عبد القدوس ونحو ذلك ، فإنها نعم العون على تنبيه النفس وينبغى أن يتجنب من الشعر أربعة أضرب :

---

(١) فى الأصل : قل

(٢) ثابت بن أبى ثابت ، أبو محمد اللغوى ، من أصحاب أبى عبيد القاسم بن سلام وكتابه «خلق الانسان» أجاد فيه حق الاجادة (أنظر انباه الرواة : ١٦٢ وبغية الوعاة : ٢١٠)

أحـــدها : الأغزال والرقيق فإنها تحث على الصبابة وتدعو إلى الفتنة ، وتحض على الفتوة وتصرف النفس إلى الخلاعة واللذات (١) وتسهل الانهماك فى الشطارة والعشق وتنهى عن الحقائق حتى ربما أدى ذلك إلى الهلاك والفساد فى الدين وتبذير المال فى الوجوه الذميمة وإخلاق العرض وإذهاب المروءة وتضييع الواجبات . وإن سماع شعر رقيق لينقض بنية المرء الرائض لنفسه حتى يحتاج إلى إصلاحها ومعاناتها برهة لاسيما ما كان يعنى (٢) بالمذكر وصفة الخمر والخلاعة ، فإن هذا النوع يسهل الفسوق ويهون المعاصى ويردى جملة .

والضرب الثانى : الأشعار المقولة فى التصعلك وذكر الحروب كشعر عنترة وعروة بن الورد وسحد (٣) بن ناشب وما هنالك ، فإن هذه أشعار تثير النفوس وتهيج الطبيعة وتسهل على المرء موارد التلف فى غير حق وربما أدّته إلى هلاك نفسه فى غير حق ، وإلى خسارة الآخرة مع إثارة الفتن وتهوين الجنايات والأحوال الشنيعة والشره إلى الظلم وسفك الدماء .

والضرب الثالث : أشعار التغرب ، وصفات المفاوز والبيد المهامه ، فإنها تسهل التحوّل والتغرب وتنشب المرء فيما ربما صعب عليه التخلص منه بلا معنى .

والضرب الرابع : الهجاء ، فإن هذا الضرب أفسد الضروب لطالبه ، فإنه يهوّن على المرء الكون فى حالة أهل السفه من كناسى الحشوش (٤) والمعاناة لصنعة الزمير المتكسبين بالسفاهة والنذالة والخساسة وتمزيق الأعراض وذكر العورات وانتهاك حرم الآباء والأمهات وفى هذا حلول الدمار فى الدنيا والآخرة .

---

(١) فى الأصل : الذات .

(٢) فى الأصل : ينهى

(٣) فى الأصل : سعيد . أما سعد فهو أحد شعراء الحماسة ؛ كان من شياطين العرب وهو صاحب يوم الوقيط فى الإسلام بين تميم وبكر ، وقد أصاب دماً فهدم بلال داره . راجع الشعر والشعراء : ٦٧٧ والخزانة ٣ : ٤٤٤ والسمط : ٧٩٢ .

(٤) فى الأصل : كنانى الحسوس

ثم صنفان من الشعر لا يُنهى عنهما نهياً تاماً ولا يُحَض عليهما بل هما عندنا من المباح المكروه وهما : المدح والرثاء : فأما إباحتهما فلأن فيهما ذكر فضائل الموت والممدوح وهذا يقتضى للراوى ذلك الشعر الرغبةَ فى مثل ذلك الحال ، وأما كراهتنا لهما فإن أكثر ما فى هذين النوعين الكذب ، ولا خير فى الكذب .

وأيضاً فإن الإكثار من رواية الشعر ، هو كسب غير محمود ، لأنه [من] طريق الباطل والفضول ، لا من طريق الحق والفضائل ، ولا يظن ظان أن هذا علم جهلناه فذممناه فقد علم من داخلنا أو باطنه أمرنا كيف تَوَسَّعْنَا فى رواية الأشعار ، وكيف تمكنا من الإشراف على معانيها ، وكيف وقوفنا على أفانين الشعر ومحاسنه ، ومعانيه وأقسامه ، وكيف قُوَّتنا على صناعته ، وكيف تأتّى مقَصَّده ومقطوعه لنا ، وكيف سهولة نظمه علينا فى الإطالة فيه والتقصير (١) ، ولكن الحق أولى بما قيل .

فإذا بلغ المرء من النحو واللغة إلى الحد الذى ذكرنا فلينتقل إلى علم العدد ، فليحكم الضرب والقسم والجمع والطرح والتسمية وليأخذ طرفاً من المساحة ، وليشرف على الارثماطيق — وهو علم طبيعة العدد — وليقرأ كتاب أقليدس قراءة متفهم له ، واقف على أغراضه ، عارف بمعانيه ، فإنه علم رفيع ، به يتوصل إلى معرفة نصبة الأرض ومساحتها وتركيب الأفلاك ودورانها ومراكزها وأبعادها ، والوقوف على براهين كل ذلك وعلى دوران الكواكب وقطعها فى البروج ، فهذا علم رفيع جداً يقف به المرء على حقيقة تناهى جرم العالم وعلى آثار صنعة البارى فى العالم فلا يبقى له إلا مشاهدة الصانع فقط ؛ وأما الصنعة والادارة والتركيب ، فقد شاهد كلَّ ذلك بوقوفه

---

(١) بذلك شهد الحميدى تلميذ ابن حزم (الجذوة : ٧٠٨) حين قال : وكان له فى الآداب والشعر نفس واسع وباع طويل ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه ، وشعره كثير » .

على ماذكرنا . وبمطالعته كتاب المجسطى يعرف الكسوفات وعروض البلاد وأطوالها والأوقات وزيادة الليل والنهار والمدّ والجزر ومنازل الشمس والقمر والدرارى . وأما الايغال فى المساحة فمنفعته فى جلب المياه ورفع الأثقال وهندسة البناء وإقامة الآلات الحكمية .

وأما الاشتغال بأحكام النجوم فلا معنى له ، ولا يخلو من أن يكون مايحكون من قضاياها حقاً أو باطلاً ، إذ لاسبيل إلى قسم ثالث ، فإن كانت حقاً فما لها فائدة إلا استعجال الهم والغم والبؤس والنكد ، لتوقع المرض والنكبات وموت الأحبة وانقطاع كمية العمر ومعرفة فساد المولد . فإن قالوا إنه قد يمكن دفع ما يتوقع من ذلك فقد قضوا بأنها لا حقيقة لها ، إذ الحق الحتم لا سبيل إلى ردّه . وإن كان باطلاً فأهل (١) أن لا يشتغل به . ونقول قولا صحيحاً متيناً ليعلم كل ذى عقل ينصح نفسه بأنه لاسبيل إلى قلب الأنواع وإحالة الطبائع ، فمن اشتغل بشىء من هذين العلمين ، فإنما هو إنسان محروم مخذول يطلب مالا يجد أبداً . وبالجملة فليس القضاء بالنجوم علمَ برهان ، وإنما هى تُراعى (٢) أبداً ، وبالجملة تجارب ، وإذ هى كذلك ، فباطل بلا شك ، لأن التجارب لا تكون إلا بتكرير الحال مراراً كثيرة جدا على صفة واحدة لا تستحيل أبدا (٣) والنصبة التامة من الكواكب لا تعود إلا إلى عشرة آلاف من السنين ، ولا سبيل إلى ضبط تجربة مثل هذه إلا بتداول قوم متعاقبين لرصد تلك النصب (٤) . وباليقين ندرى أنه

---

(١) فى الأصل : أهل (٢) فى الأصل : تداعى

(٣) تكلم ابن خلدون فى إبطال صناعة النجوم ناقضاً إمكان كمال التجربة فقال : فالمتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة وهو أمر تقصر الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله ، إذ التجربة إنما تحصل فى المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن (مقدمة : ٤٧٧) .

(٤) كرر ابن حزم نقض القضاء بالنجوم فى كتابه الفصل (٥ : ٣٨) مستدلا بفكرة استحالة

لا يبقى فيما انحدر عن شرق العمود ، مملكة عشر الدَّوْر ، فكيف الدور كله ؟ وإذا ذهبت المملكة لم تذهب إلا بحروب وغارات وسوء حال وفساد بلاد وحدوث أخر ، وهذا كله يذهب علوم تلك المملكة ورتبها وأرصادها وأكثر أخبارها بل كلها ، فلا سبيل مع ذلك إلى اتصال رصد هذه المدة كلها ، فكيف أن يمكن دوام التجربة تكرارا دورا بعد دور ؟ وما عندنا تاريخ أبعد من تاريخ التوراة وليس له إلا ثلاثة آلاف سنة فقط ، فأين يقع مما نريد (٢) ؟ وأما تاريخ الفرس [فما] عندنا أخبار لهم فاشية محققة إلا من عهد ملوك الساسانية وذلك أقلّ من ألف عام ، وكذلك تاريخ الروم . وأما تاريخ القبط والسريانيين وأدوم وعمون ومؤاب وسائر تلك الأمم ، فما لهم اليوم فى الدنيا خبر ولا أثر ، فكيف تبقى أرصاد المدة المذكورة ؟ وأما الهند والصين فلم تبلغنا آثارهم كما نريد ، ولعل لهم أرصاداً قديمة ، فإنهما مملكتان سلمتا من الآفات على مر الدهور . على أن أهل الصين ليسوا أهلَ علوم ألبتة ، وإنما هم أهلُ صناعات ، فلعل هذا يكون بالهند . فإن لم يكن فمضمونٌ عَدَمُهُ من العالم — هذا إلى ما فى شروط علم القضاء من الصفات التى لا سبيل لمن يدعى علمها إلى استيفائها (٣) : من مواقع السهام ومطارح الشعاعات والدرج النيرة والمظلمة ، والقتمة والآبار (٤) ، وخواص

= التجربة فقال « إن التجربة لا تصح إلا بتكرر كثير موثوق بدوامه تضطر النفوس إلى الإقرار به كاضطرارنا إلى الإقرار بأن الإنسان إن بقى ثلاث ساعات تحت الماء مات ، وإن أدخل يده فى النار احترق ولا يمكن هذا فى القضاء بالنجوم لأن النصب الدالة عندهم على الكائنات لا تعود إلا فى عشرات آلاف من السنين ، لا سبيل إلى أن يصح منها تجربة » .

(٢) فى الأصل : فأين يقعان مما أريد .

(٣) أنظر العبارة التالية فى شروط علم القضاء مكررة نصاً فى الفصل ٥ : ٣٨ وهى محرفة أيضاً هنالك .

(٤) فى الأصل : والقيمة والآثار . قال الخوارزمى فى مفاتيح العلوم : ١٣٢ « والدرجات المظلمة درج معروفة والدرجات القتمة من القتام وهو الغبار ، والآبار درج فى البروج إذا بلغتها الكواكب نحست فيها واحدها بئر » .

الدرارى فى كل برج ، والكواكب البنيانية(١) وغير ذلك مما لا يمكنهم توفيته حقه على أصولهم . فإذا كان ذلك كذلك ، فتحقيق علمهم فى القضاء لا سبيل إليه ألبتة ، ولا يحصى كم شهدنا لهم من القضايا المحققة المتفق عليها من أهل الإحسان لهذا العلم ، على ما فى كتبهم ، فما صدق منها شىء إلا الأقل النزر الذى يصدق بالتقدير أكثر منه ، نعنى من المواليد التى لا شىء فى علمهم أحق منها . وأما المناخات وتحاويل السنين والقرانات الصغار فيعلم الله أننا ما رأيناهم صدقوا منها فى قضية أبدا ، كلَّ سنةٍ رأينا ، وما وجدنا أكثر كلامهم فى ذلك إلا على ظاهر الرأى والتقدير فقط(٢) ، ولو لم يكن من ظاهر الدعوى إلا قولهم زحل يشرف فى برج كذا ، ويسقط فى برج كذا(٣) ، وكذا سائر الدرارى ودعواهم فى وجوه المطالع وسائر تلك الخرافات ، فإنهم لا يأتون على ذلك لا ببرهان ولا بإقناع ولا بشغب وإنما هو « اسمع واسكت وصدق الأمير » ، وما كان هذا سبيله فلا ينبغى أن يشتغل به عاقل اشتغال معتدٍّ به علماً ، إلا أنه لا ينبغى لطالب الحقائق أن يخلو من النظر فيه ليعرف أغراضهم ، ويريح نفسه من تطلعها إلى الوقوف [عليها] ، وليفيق من دعاويهم ومَخْرَقَتهم ، ويزيل عن نفسه الهمَّ إذا عرف أنه لا فائدة فيه .

ولقد حدثنى شيخنا يونس بن عبدالله القاضى(٤) قال : سمعت يحيى بن مجاهد الفزارى الزاهد يقول : هذا كان أوان طلبى للعلم إذ قوى فهمى واستحكمت إرادتى . فقلت له : فعلمنا الطريق ، لعلنا ندرك ذلك بوَصاتك ، فى استقبال

---

(١) كذا فى الفصل ، وهذه القراءة توافق رسم الكلمة فى المخطوطة ، ولم أهتد إلى المقصود منها ، فالكواكب منها السيارة والثابتة ، ومنها العلوية والسفلية ، ومنها المتحيرة .

(٢) راجع الفصل ٥ : ٣٩

(٣) شرف الكوكب درجه فى برج ينسب إليه ولكل واحد من السبعة سر فشرف زحل فى الميزان وشرف المشترى فى السرطان وشرف المريخ فى الجدى ... وهكذا ، والذى يقابل الشرف هو الهبوط أو السقوط .

(٤) مرت ترجمته فى رسالة البيان عن حقيقة الإيمان ، ص : ٢٢ تعليق : ٣ .

أعمارنا قال : نعم كنت آخذ من [كل] علم طرفا ، فإن سماع الإنسان قوماً يتحدثون وهو لا يدرى ما يقولون غمة عظيمة . أو كلاماً هذا معناه . قال أبو محمد : ولقد صدق رحمه الله .

فإذا بلغ الانسان حيث ذكرنا ، أخذ فى النظر فى حدود المنطق وعلم الأجناس والأنواع والأسماء المفردة والقضايا والمقدمات والقرائن والنتائج ليعرف المرء ما البرهان وما الشغب ، وكيف التحفظ مما يظن أنه برهان وليس ببرهان ، فبهذا العلم يقف على الحقائق كلها ويميزها من الأباطيل تمييزاً لا يبقى معه ريب ، وينظر فى الطبيعيات ، وعوارض الجو ، وتركيب العناصر ، وفى الحيوان والنبات والمعادن ، ويقرأ كتب التشريح ليقف على محكم الصنعة وتأثير الصانع وتأليف الأعضاء واختيار المدبر وحكمته وقدرته ، فإذا أحكم ذلك فى خلال ابتدائه بالنظر فى العلوم فلا يكن منه إغفال لمطالعة أخبار الأمم السالفة والخالفة ، وقراءة التواريخ القديمة والحديثة ليقف من ذلك على فناء (١) الممالك المذكورة ، وخراب البلاد المعمورة ، ودثور المدائن المشهورة التى طالما حُصِّنَتْ وأحكمت مبانيها ، وذهاب من كان فيها وانقطاعهم ، وتقلب الدنيا بأهلها ، وذهاب الملوك الذين قتلوا النفوس وظلموا الناس واستكثروا من الأموال والجيوش والعدد ليستديموها لهم (٢) ولأعقابهم فما دامت (٣) لهم ، بل ذهبوا وانقطعت آثارهم ، ورَحلَ بنوهم وضاعوا ، وبقى ما تحملوا من الآثام والذم والذكر القبيح لازماً لأرواحهم فى المعاد ولذكرهم فى الدنيا ، فيحدث له فيها بذلك زهد وقلة رغبة وليشرف على اغترار الملوك بها ، لعظيم الحسرات النازلة بهم وبمخلفيهم ، وليقف على حمد المتقين الأخيار للفضائل فيرغب فيها ، ويسمع ذمهم للرذائل فيكرهها . ويوفى على تيقّن النصح منها لما يرى من تناصر التواريخ على تباعد

---

(١) فى الأصل : خنا

(٢) فى الأصل : ليستدموا ماهم ولا

(٣) فى الأصل : دام

أقطار حامليها ، وتفاوت أزمانهم وتباين هممهم واختلاف أديانهم وتفرق مذاهبهم على نقل قصة ما ، فيوقن أنها حق لاشك فيه ، ويسمع بخلاف نقلهم فى قصة ما ، فيدرى أنها مضطربة . ويرى أخبار العلماء والصالحين فيرى الحرص على مثل حالهم ويرغب فى إلحاق اسمه بأسمائهم إذا سلك طريقهم وحذا حذوهم وعمل عملهم ، ويطالع آثار المفسدين فى الأرض وسوء الآثار عليهم ، وما أبقوا من الأسماء الذميمة ، فيمقت طريقهم ، ويجتنب أن يكون مذكوراً فيهم . ويجعل هذا العلم خاصة وقت راحته وسآمته من تعلم غيره من العلوم ، فإن هذا العلم سهل جداً وَمَنْشَطٌ ومُنْتَزَهٌ ولذة ، لا ينبغى لأحد أن يخلو منه فلا يدرى أثرا ولا ما تقوم به الحجة من الأخبار التى يضطر إلى العلم بها حقيقة ، بل يكون بمنزلة من قدَّر أن العالم لم يكن إلا مذكان هو .

فإذا أحكم ما ذكرنا فأولى الأشياء به معرفة ما له خرج إلى هذا العالم ، وما إليه يرجع إذا خرج من هذا العالم ، وبيان ذلك بيان انقضاء أيام سفره ، فإنها قليلة جداً ، فلا شىء أوكد عليه من هذا ، لأن ماعدا ذلك من بؤس ونعيم ولذة ومال ورياسة وفقر وخمول ونكد فمنقضٍ كله فى أسرع وقت ، لسنا نقول بالموت الذى لابد منه فقط ، بل بالهرم وعوارض الدهر الذى لا يؤمن تقلبه بأهله قبل كر الطرف .

فيلزم(١) المرء أن ينظر — إذا أحكم ما ذكرنا — أن يطلب البرهان من العلوم الضرورية التى ذكرنا على : هل العالم محدث أو لم يزل . فإذا حصل له أنه محدث وذلك قائم فى إحصاء العدد لازمانه وعدد أشخاصه وأنواعه ، نظر هل [له] (٢) محدث أو لا محدث له فإذا حصل له أنه مُحْدِث لم يزل ، وهذا قائم من باب الفضائل من حدود المنطق ، نظر هل المحدِث واحدٌ أو أكثر من واحد ، فإذا حصل له أنه واحد وهذا قائم من باب الإحصاء المذكور

(١) فى الأصل : فليزم

(٢) زيادة لازمة .

فى العدد ، [نظر] (١) هل النبوة ممكنة أو واجبة أو ممتنعة ، فإذا حصل له أنها ممكنة بالقوة بما يوجبه أن المحدث مختار لا يعجز عن شىء ، ثم إذا حصل له أنه قد وجدت بالأخبار الضرورية ، نظر فى النبوات التى افترقت عليها الملل ، فإذا حصل له أن كل ما ثبتت به نبوةُ واحد منهم ، فواجب أن تثبت بمثله نبوةُ مَنْ نَقَلَ عنه مثل الذى نقل عن غيره منهم ، وقف عند ذلك وسلّم الأمر إلى من صحّت له البراهين بنبوته ، وأنه عن الله عز وجل يتكلم وعن عهوده يخبر ، وتبحّث حينئذ عن كل ما أُمِرَ به أَو نُهى عنه فاستعمل نفسه به . ولم يقبل من إنسان مثله لم يؤيد بوحى من الله ، عز وجل ، أمراً ولا نهياً ، فهذا [طريق] (٢) الخلاص وشارع النجاة ومحلة الفوز التى من عاج عنها طال تحيره وتردده . وافترقت به السبل حتى يهلك خاسرا نادماً ، أو موفيا [على النجاة] (٣) بالبخت ، كمن وجد لقطة بلا طلب ، ونعوذ بالله من البلاء .

وهذه الطريق التى (٤) وصفنا مؤدّيةٌ إلى الإقرار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وموجبة لطلبنا فى القرآن من عهود الله تعالى ، وطلب عهوده عليه السلام . وتمييز صحيحهما مما لم يصحّ منهما والأخذ بكل ذلك ، والتمسك به فإن هذا معدوم فى جميع الملل ، حاشا ملة الإسلام : لأن ملة من عبد الأوثان أو دانَ بقول البراهمة المبطلين للنبوات فإنه لا سبيل إلى إثبات شريعة لهم وإذ قد أعدموا المثبت الشارع ، وأعدموا الطريق الموصلة إليه ، فبقى الناس على قولهم سدًى لا زاجر لهم عن ظلم ولا عن فاحشة — وأما دين المنانية

---

(١) زيادة لازمة

(٢) زيادة يقتضيها المعنى

(٣) زيادة موضحة للمعنى

(٤) فى الأصل : الذى

فظاهر التخليط لقولهم بأن الصانع صَنَع فى نفسه، وهذا مُبْطَل بما يوجب حدوث العالم على ما بيّناه فى كتابنا الموسوم بالفصل بالملل والنحل (١) — وأما شريعة النصارى فإنهم مُقِرُّونَ أن شرائعهم ليست عن وحى الله تعالى، وإنما هُنَّ وضع زكريا الملك وسائر بطارقته ، وهذا تشهد العقول بأنه لا يلزم إذ لم يُوجِبْ إلزامَهُ برهان — وأما ملة المجوس فهم معترفون بأن ثلثى كتابهم ذهب ، وأن فى ذلك الذاهب كانت الشرائع ، ومن الباطل الممتنع أن يكلف الله تعالى الناسَ أنْ يعملوا بشىء لا يدرونه ، وقد ذهب عن أيديهم . ويقرون أن أزدشير بن بابك وضع لهم شرائع غير التى كانت لازمة لهم ، فهذا لا يعتقده إلا جاهل ، ولا يدين به إلا مخذول — وأما ملة اليهود فمعترفون أن أكثر شرائعهم اللازمة لا سبيل لهم اليها إذ خرجوا عن صهيون، وإن شرائع الربانيين منهم (٢) التى هم الآن عليها ، هى غير شرائعهم التى أمروا بها فى التوراة ، وأن علماءهم عوَّضوهم عن تلك هذه ، ويلزمهم الإقرار بمن صحَّ عنه من الأعلام مثلما صحَّ عن نبيهم عليه السلام .

فإن اشتغل مغفل عن علم الشريعة بعلم غيره ، فقد أساء النظر وظلم نفسه، إذ آثر الأدنى والأقلّ منفعة ، على الأعلى والأعظم منفعة ؛ فإن قال قائل إن فى علم العدد والهيئة والمنطق (٣) معرفة الأشياء على ما هى عليه . قلنا إن هذا حسن إذا قصد به الاستدلال على الصانع للأشياء بصنعته ، ليتدرج بذلك الى الفوز والنجاة والخلاص من العذاب والنكد ؛ وأما إن لم يكن الغرض إلاّ معرفة الأشياء الحاضرة على ما هى عليه فقط ، فطالب هذه العلوم ، ومن جعل وكده معرفة صفة البلاد على ما هى عليه ، وصفات سكان أهل كل بلد ، وما هى عليه، وصورهم ، سواء .

---

(١) كذا ورد اسم الكتاب هنا وهو معروف باسم الفصل فى الملل والأهواء والنحل وأنظر فى هذا الكتاب ١ : ١٤ وما بعدها أدلته على حدوث العالم ؛ وقد تصدى ابن حزم لمحاكمة النحل أيضاً فى رسالة «التوقيف على شارع النجاة» — فيما تقدم .

(٢) قال ابن حزم فى ذكر فرق اليهود (الفصل ١ : ٩٩): الربانية هم الأشعنية ، وهم القائلون بأقوال الأحبار ومذاهبهم ، وهم جمهور اليهود .

(٣) فى الأصل : لمنطق

ومن كان هذا هو غرضه فقط فهو إلى أن يوصف بالفضول والحماقة أقرب منه الى أن يوصف بالعلم ، إذ حقيقة العلم هو ما قلنا إنه يطلبه لينتفع به طالبه ، وينتفع به غيره فى داره العاجلة وداره الآجلة التى هى محل قراره ومكان خلوده ، وبالله تعالى نتأيد .

فإن كان المرء العالم فى كفاف من العيش ، من وجه مرضى ، فليحمد الله عز وجل ، وليقنع به ، وليعمل لدار القرار ، ولا يسرّه الإكثار من أحجارٍ وخرقٍ يتركها عما قريب ، أو تتركه . وإن كان فى حاجة ، فإن أمكنه أن يجعل مكتسبه من العلم فحسن ، اما أن يكون معلّمَ هجاءٍ — فهى فضيلة عظيمة لأنه سبب [حياة] (١) كل من تعلم منه شيئا وله الأجر المضاعف من كل من يتعلم ممن علّمه هو إلى انقضاء الأبد ، بأن كان سبب حياة نفوسهم — أو مؤدب نحو أو مؤدب حساب أو طبيباً . فإن كان فى أحد هذه السبل فلينصح فى صناعته تلك ، وليطلب التزيد من العلم بما أمكنه ، ليكون سببا للخير فى تعليم الجاهل ، وإبراء الأدواء بإذن الله تعالى ، ولا يرض بالغش والتمويه ، فيفسد خلقه ومتاعه ومكتسبه فيخسر صفقته ، وليستعمل القناعة جهده .

وإن ابتلى بصحبة سلطان فقد ابتلى بعظيم البلايا ، وعرض للخطر الشنيع فى ذهاب دينه ، وذهاب نفسه وشغل باله وترادف همومه ، فلا يشاركه فى محظور ألبتة وإن أداه ذلك إلى التلف ، فلأن يتلف مظلوماً مأجوراً محتسباً محموداً أفضل من أن يبقى ظالماً مسيئاً آثماً مذموماً ، ولعل تلفه سريع وإن تأخر مدة ، فلا بدّ من التلف ، وليعلم أن السلطان إذا رأى منه إشفاقاً على دينه ونصيحة له فيما لا يؤذيه فى معاده ، فإنه تتزيد ثقته به ، ويجلّ فى عينه ، وإذا رآه شرهاً مؤثراً عاجلته على آخرته ، ساء ظنه به ، ولم يأمنه على نفسه إذا رأى الحظ له فى هلاكه .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

ولقد نكره للفاضل أن يصحب السلطان بعلم الطب ، فإن الغالب على الملوك الجهل والسبعية (١) وقلة الصبر على ما قطع بهم عن لذاتهم . وتدبيرُ الأصحاء ومعاناة المرضى لا يحتمل هذا ، فهم دأباً يكلفون الطبيب إحياءَ الموتى ويستقصرونه(٢) دون هذه المنزلة، فإن اتبع أهواءهم غشَّهم ، وإن نصحهم عصوه واستثقلوه .

وأما صحبتهم بالنجوم فلا يدخل فى ذلك ذو مسكة عقـــل ألبتة ، لأنه يتعاطى ما ليس فى قوته الوفاء به ، فهو دهره فى كذب متصل ومواعيد مختلقة وخدائع متصلة ، وفضائح متواترة ، وخزايا متتابعة . وكدٌّ من اتصل بسلطان ، إصلاح أخلاقهم وحملهم على البر وصرفهم عن المأثم جهده وطاقته .

ودعائم العلم مشهورة مستحكمة يؤثر بها العلم على سائر أعراض الدنيا من اللذات والمال والصوت (٣) ، ثم قَصْد إلى عين العلم ، ليخرج به ، عن جملة أشباه البهائم فقط ، لا ليجعله مكتسبه ولا ليمدح به ، وذكاء وفهمٌ وبحث وذكر وصبر على كل ذلك ، والتعب فيه وإنفاق المال عليه والاستكثار من الكتب ، فلن يخلو كتاب من فائدة وزيادة علم يجدها فيه إذا احتاج إليها ، ولا سبيل إلى حفظ المرء لجميع علمه الذى يختص به . فإذ لا سبيل إلى ذلك فالكتب نعم الخازنة له إذا طلب ، ولولا الكتب لضاعت العلوم ولم توجد . وهذا خطأ من ذم الإكثار منها ، ولو أخذ برأيه لتلفت العلوم ولجاذبهم الجهال فيها وادَّعوا ما شاءوا . فلولا شهادة الكتب لاستوت دعوى العالم والجاهل . وسقوط الأنفة فى التكرر على العلماء ، وتقييد ما [يسمع] وجمعه ، وملازمة المحبرة والكتب يده وكُمَّه ، وسكنى حاضرة فيها العلم ، ولقاء المتنازعين وحضور المتناظرين ، فبهذا تلوح الحقائق ، فليس من تكلم عن نفسه وما يعتقد

---

(١) فى الأصل : والستعية

(٢) فى الأصل : ويستقصرونهم

(٣) الصوت والصات والصيت : الذكر الحسن .

كمن تكلم عن غيره ، ليست الثكلى كالنائحة المستأجرة ، ومن لم يسمع إلا من عالم واحد أوشك أن لا يحصل على طائل ، وكان كمن يشرب من بئر واحدة ولعله اختار الملح المكدر ، وقد ترك العذب . ومع اعتراك الأقران ومعارضتهم يلوح الباطل من الحق ، ولا بد ، فمن طلبه كما ذكرنا ، أو شك أن ينجح مطلبه وأن لا يخفق سعيه وأن يحصل فى المدة اليسيرة على الفائدة العظيمة . ومن تعدى هذه الطريق كثر تعبه ، وقلت منفعته . ومن اقتصر على علم واحد لم يطالع غيره ، أو شك أن يكون ضحكة وكان ما خفى عليه من علمه الذى اقتصر عليه ، أكثر مما أدرك منه لتعلق العلوم بعضها ببعض ، كما ذكرنا ، وأنها درج بعضها إلى بعض ، كما وصفنا ، ومن طلب الاحتواء على كل علم أو شك أن ينقطع وينحسر ، ولا يحصل على شىء ، وكان كالمحضر إلى غير غاية ، إذ(١) العمر يقصر عن ذلك ، ليأخذ من كل علم بنصيب ، ومقدار ذلك معرفته بأعراض ذلك العلم فقط ، ثم يأخذ مما به ضرورة إلى مالا بد له منه كما وصفنا ، ثم يعتمد العلم الذى يسبق (٢) فيه بطبعه وبقلبه [و] بحيلته ، فيستكثر منه ما أمكنه ، فربما كان ذلك منه فى علمين أو ثلاثة . أو أكثر على قدر زكاء فهمه ، وقوة طبعه ، وحضور خاطره ، وإكبابه على الطلب ، وكل ذلك بتيسير الله تعالى : فلو بارادة المرء كان ، لكان منى كل أحد أن يكون أفضل الناس . والفهم والعناية مقسومان كقسمة المال والحال :

* والحظ مقسوم فأجمل فى الطلب *

ومن طلب [العلم] (٣) ليفخر به أو ليمدح به أو ليكتسب به مالا أو جاهاً ، فبعيد عن الفلاح لأنه ليس له غرض فى التحقيق فيه ، وإنما غرضه شىء آخر غير العلم . ونفس الإنسان وعينه طامحان إلى غرضه فقط فلا يبالى كيف كان طلبه إذا حصل على مراده الذى إياه قصد .

---

(١) فى الأصل : أذى

(٢) فى الأصل : ينشق

(٣) زيادة لازمة .

فالعلوم تنقسم أقساماً سبعة عند كل أمة وفى كل زمان وفى كل مكان وهى: علم شريعة كل أمة ، فلا بدّ لكل أمة من معتقد ما ، إما إثبات وإما إبطال وعلم أخبارها وعلم لغتها ، فالأمم تتميز فى هذه العلوم الثلاثة ، والعلوم الأربعة الباقية تتفق فيها الأمم كلها ، وهى [علم النجوم] وعلم العدد والطب وهو معاناة الأجسام وعلم الفلسفة وهى معرفة الأشياء على ما هى عليه من حدودها من أعلى الأجناس إلى الأشخاص ، ومعرفة إلهية .

وقد بينا أن كل شريعة سوى الإسلام فباطل ، فالواجب الاقتصار على شريعة الحق ، وعلى كل ما أعان على التبحر فى علمها .

وعلم شريعة الإسلام ينقسم أقساماً أربعة : علم القرآن ، وعلم الحديث ، وعلم الفقه ، وعلم الكلام .

فعلم القرآن : ينقسم إلى معرفة قراءته ومعانيه . وعلم الحديث : ينقسم إلى معرفة متونه ومعرفة رواته . وعلم الفقه : ينقسم إلى أحكام القرآن ، وأحكام الحديث ، وما أجمع المسلمون عليه وما اختلفوا فيه ، ومعرفة وجوه الدلالة وما صحّ منها وما لا يصح . وعلم الكلام : ينقسم إلى معرفة مقالاتهم ومعرفة حجاجهم وما يصح منها بالبرهان وما لا يصح .

وعلم النحو : ينقسم إلى مسموعه القديم وعلله المحدثة .

وعلم اللغة : مسموع كله فقط .

وعلم الأخبار ينقسم على مراتب : إما على الممالك(١) أو على السنين وإما على البلاد وإما على الطبقات أو منثورا . فأصح التواريخ عندنا تاريخ الملة الإسلامية ومبدؤها وفتوحها وأخبار خلفائها وملوكها والمتزين عليهم وعلمائهم وسائر ما انتظم بذلك . وأما تاريخ بنى إسرائيل فأكثره صحيح وفى بعضه دخل ، وإنما يصح منه أخبارهم مذ صاروا بالشام إلى أن خرجوا

---

(١) فى الأصل : ممالك

عنها الخرجة الآخرة ، لا من قبل ذلك . وأخبار الروم إنما تصح من عهد الاسكندر لا ما قبل ذلك . وأخبار الترك والخزر وسائر أمم الشمال وأمم السودان فلا علوم لهذه الأمم ولا تواليف ولا تواريخ . ولم تبلغنا أخبار الهند والصين كما نريد ، إلا أنهم أمّتا علم وضبط وتواليف وجمع . وأما الأمم الدائرة من القبط واليمانيين والسريانيين والاشمانين وعمون وموآب وسائر الأمم فقد بادت أخبارهم جملة ، فلم يبق منها إلا تكاذيب وخرافات . وأما الفرس فلا يصح شيء من أخبارهم إلا ما كان من عهد دارا بن دارا فقط . وأصحّ أخبارهم ما كان من عهد أزدشير بن بابك فقط . فالطالب للأخبار ينبغى له ألا يشتغل إلا بما أعلمناه بصحته — ولا ينبغى له قطع وقته بما لا يجدى عليه نفعاً — لا بما أخبرناه ببطلانه فقد كفيناه التعب فى ذلك ، وإن أحب التعب وقف على ما وقفنا عليه من ذلك .

وعلم النسب جزء من علم الخبر .

وعلم النجوم : ينقسم إلى معرفة علم الهيئة والتعديل ببرهانه ثم الذى يذكرونه من القضاء .

وعلم العدد : ينقسم إلى ضبط قوانينه ثم برهانه ثم العمل بذلك فى المساحات وغير ذلك .

وعلم المنطق : ينقسم إلى عقلى وحسى أما العقلى فالاهى وطبيعى ، وأما الحسى فطبيعى فقط .

وعلم الطب : ينقسم قسمين : طب النفس وهو من نتيجة علم المنطق بإصلاح الأخلاق ومداواتها(١) وصرفها عن الإفراط والتقصير وإقامتها على الاعتدال ، وطب الأجسام : وهو ينقسم إلى معرفة الطبائع الجسمية ومعرفة تركيب الأعضاء ومعرفة العلل وأسبابها وما تعارض به من الأدوية وتميز القوى من الأدوية والأغذية(٢) ، وينقسم أيضاً قسمين : عمل باليد كالجبر

(١) فى الأصل : ومداراتها (٢) فى الأصل : للأغذية

والبط والكيّ والقطع، وعمل فى صرف قوى العلل بقوى الأدوية ، وينقسم أيضاً قسمين : حفظ الصحة لئلا يحدث المرض ثم معاناة المرض .

وعلم الشـــعر : ينقسم إلى روايته ومعانيه ومحاسنه ومعايبه وأقسامه ووزنه ونظمه .

وها هنا علمان إنما يكونان (١) نتيجة العلوم التى ذكرنا إذا اجتمعت أو من نتيجة اجتماع علمين منهما فصاعداً ، وهما علم البلاغة ، وعلم العبارة : فأما علم البلاغة فإن صرفه صاحبه إلى الله عز وجل وإلى تبيين الحقائق وتعليم الجهال فهى فضيلة ، وأما إن صرفه فى ضد ذلك خسرت صفقته ، إذ أتعب نفسه وأفنى عمره فيما هو وبال عليه ، ونعوذ بالله من البلاء .

وأما علم العبارة (٢) فهو طبع فى المعبر مع عون العلم عليه ولا يقطع بصحته إلا بعد ظهور ذلك عليه لا قبله .

فهذه الأفانين هى التى يطلق عليها فى قديم الدهر وحديثه اسم العلم والعلوم .

وعند التحقيق وصحة النظر فكل ماعلم فهو علم ؛ فيدخل فى ذلك علم التجارة والخياطة والحياكة وتدبير السفن وفلاحة الأرض وتدبير الشجر ومعاناتها ، وغرسها ، والبناء وغير ذلك . إلا أن هذه إنما هى للدنيا خاصة فيما بالناس إليه الحاجة فى معايشهم . والعلوم التى قدمنا ، الغرض [منها] التوصل إلى الخلاص فى المعاد فقط ، فلذلك استحقت التقديم والتفضيل وبالله تعالى التوفيق .

ونحن نوصى طالب العلم بأن لا يذم ما جهل منها فهو دليل على نقصه وقوله بغير معرفة ، وأن لا يعجب بما علم فتطمس فضيلته ، ويستحق المقت

---

(١) فى الأصل : يكونا

(٢) يعنى علم تعبير الرؤيا

من الواهب له ما وهب ، وأن لا يحسد من فوقه حسداً يؤديه إلى تنقيصه ، فهذه رذيلتان . وأما إن حسده ولم ينتقصه ، وكان ذلك رغبة فى الوصول إلى ما وصل إليه محسودُهُ فحسن ، وهو رغبة فى الخير . وأن لا يحقر من دونه فقد كان فى مثل حاله قبل أن يعلم ما علم . وأن لا يكتم علمه فيحصل هو ومن لا علم له فى منزلة واحدة ، إذ كلاهما غير مستعمل للعلم ولا مظهر له . وأن لا يتكلم فى علم قبل أن يحكمه فيخزى وأن لا يطلب بعلمه عرض الدنيا فيبذل الأفضل بالأدنى . وأن يستعمل تقوى الله تعالى فى سره وجهره ، فهو زين العالم ، وبالله التوفيق .

فصل : والعلوم التى ذكرنا يتعلق بعضها ببعض ولا يستغنى منها علم عن غيره ، فأول ذلك أنا قد أبَنَّا أن غرضنا من الكون فى الدنيا والمطلوب بتعلم العلوم إنما هو تعلم علم ما أراد الله تعالى منا ، وما به أخبرعنا (١) ، وما به يكون المخلص من هول مكاننا الكدر المظلم المشوب بالآفات المملوء من أنواع المتالف والمهالك ، والمحفوف بأصناف البلايا والمعاطب ، وهو المعرفة بالشريعة والاعلان بها والعمل بموجبها ، فإذ الأمر كذلك ، فلا سبيل إلى صحة المعرفة بها واستحقاق حقيقتها إلا بمعرفة أحكام الله عزّ وجل وعهوده إلينا فى كتابه المنزل ، وبمعرفة ما وصّانا به محمد عليه السلام وبلّغه إلينا ، وما أجمع علماء الديانة عليه ، وما اختلفوا فيه ، ولا يوصل إلى هذا إلا بمعرفة الناقلين لتلك الوصايا وأزمانهم وأسمائهم وأنسابهم للفرق بين ما اتفقت فيه الأسماء ، وبمعرفة المقبولين من غيرهم ومعرفة من لقوا فحدّثوا عنه ممن لم يلقوه فبلغهم عنه ، وبمعرفة القراءات المشهورة ليوقف بذلك على ما تتفق فيه المعانى مما تختلف فيحدث باختلافها حكم ما ، وكل هذا لا يتم إلا بمعرفة مستعمل اللغة ومواقع الإعراب الذى تختلف المعانى باختلاف أمثلته

---

(١) فى الأصل : إخترعنا

وأشكاله ، ولا بدَّ فى اللغة والاعراب من التعلق بطرف من علم الشعر ، ولابد من المعرفة بالنسب بما يدرى المرء من تجوز الأمامة بمن لا تجوز فيهم ، ومن هم الأنصار الذين [أمرنا] (١) بالإحسان إلى محسنهم والتجاوز عن مسيئهم ، ومن هم أولو القربى الذين حرمت عليهم الصدقة ، ولابد أن يعرف من الحساب ما يعرف به القبلة والزوال إلى أوقات الصلوات ، ولا يوقف على حقيقة ذلك إلا بمعرفة الهيئة ، ولا يعرف حقيقة البرهان فى ذلك إلا من وقف على حدود الكلام ، ولا بد أن يعرف من الحساب أيضاً كيف قسمة المواريث والغنائم ، فإن تحقيق ذلك فرض لا بد منه .

ولا بد فى الشريعة من معرفة العيوب التى تجبُّ (التكليف كعاهة الجنون المتملكة ، وقوام الآفات والأدواء ، فلا بدَّ من) (٢) معرفة العلل ومداواتها وهو علم الطب . والدعاء إلى الله عز وجل واجب ، ولا سبيل إليه إلا بالخطّ والبلاغة ، ومعرفة ما تستجلب به القلوب من حسن اللفظ وبيان المعنى ، ولا يكون هذا إلا بالمعرفة الشرعية وباللغة وبالإعراب وبالفصاحة وحكم المنظوم والمنثور ؛ والرؤيا حق وهى جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، فلابد من معرفة عباراتها ، ولا تكون عباراتها إلا بالتمكن فى العلوم المذكورة . وأما القضاء بالنجوم فلا يعرف بطلانه إلا من أشرف عليه ، ولا يعرف الخطأ والصواب إلا بمعرفتهما معاً ، فهذا وجه تعلق العلوم بعضها ببعض ، وافتقار بعضها إلى بعض .

وإن لم تمكن (٣) المرء الإحاطة بجميعها فليضرب فى جميعها بسهم ما وإن قلَّ ، — كما قدَّمنا — وليكن الناس فيها فى تعاونهم على إقامة الواجب من ذلك عليهم كالمجتمعين لإقامة منزل ، فإنه لابدَّ من بنَّاء وأجراء ينقلون

---

(١) زيادة لازمة

(٢) ما بين معقفين مكتوب فى هامش النسخة وقد طمس معظمه

(٣) فى الأصل : يكن

الحجر وينقلون الطين ، ومن صناع القرمد وقطاعى الخشب وصناعى الأبواب والمسامير حتى يتم البناء ، وكذلك سائر ما بالناس الحاجة إليه من الحرث فإنه لا يتم إلا بالتعاون على [القيام] بآلاته والعمل بها . وكذلك التعاون على ما به تكون النجاة والترقى إلى عالم الخلود ، ورضى الخالق أوجب وأكرم ، وبالله تعالى نتأيد .

فصل : ومن السمج القبيح بقاء الإنسان فارغاً فى مدة إقامته فى هذه الدار ، مفنيا تلك المدة فيما غيره أولى به وأحسن منه ، فى حماقة وبطالة أو معصية وظلم . وقد سمعت شيخنا ابن الحسن (١) يقول لى ولغيرى «إن من العجب من يبقى فى هذا العالم [دون] معاونة لنوعه على مصلحة . أما يرى الحراث يحرث له والطحان يطحن له والنساج ينسج له والخياط يخيط له والجزار يجزر له والبنّاء يبنى له وسائر الناس كل متوكل شغلا ، له فيه مصلحة وبه إليه ضرورة ؟ أفما يستحى أن يكون عيالاً على كل العالم لا يعين هو أيضاً بشىء من المصلحة ؟ » (٢) ولقد صدق ، ولعمرى إن فى كلامه من الحكم لما يستثير الهمم الساكنة إلى ما هيئت له . وأى كلام فى نوع هذا أحسن من كلامه فى تعاون (٣) الناس . وقد نبه الله تعالى عباده بقوله « وتعاونوا على البر والتقوى » (٤) فكل ما لمخلوق فيه مصلحة فى دينه أو ما لاغنى للمرء عنه فى دنياه فهو برٌّ وتقوى ، إذا استعان به على ما أمر الله وحضّ عليه . وأفضل ما استعمله المرء فى دنياه بعد أداء ما يلزمه الله تعالى فى نفسه من تعلم اعتقاده من قول وعمل ، أن يعلم الناس دينهم الذى

---

(١) فى الأصل : أبو الحسن ، وشيخه هذا هو أبو عبد الله محمد بن الحسن المعروف بابن الكتانى ، وقد مرت ترجمته فى رسالة البيان عن حقيقة الإيمان ؛ انظر ص : ٢٠ تعليق : ٢ من هذا الكتاب .

(٢) نص هذه العبارة كما أوردها الحميدى فى الجذوة ، مروياً عن ابن حزم : إن من العجب من يبقى فى العالم دون تعاون على مصلحة ؛ أما يرى الحراث يحرث له والبناء يبنى له والخراز يخرز له ؛ وسائر الناس كل يتولى شغلا له فيه مصلحة به إليه ضرورة أما يستحى أن يبقى عيالاً على كل من فى العالم ، ألا يعين هو أيضاً بشىء من المصلحة؟

(٣) فى الأصل : كلام فى نوع (٤) القرآن الكريم ٥ : ٣

له خلقوا ، فيقودهم إلى رضى الله عزَّ وجل ويخرجهم بلطف خالقه تعالى من الظلمة العميَّة إلى النور الخالص ، ومن المضيق المهلك إلى السعة الرحبة ، ثم الحكم بالحق ، والمنع من الظلم ، والذب عن الحوزة بجهاد أهل الحرب والمحاربة (١) وأهل البغى وإقامة [الناس] (٢) على ما خلقوا له من إقامة الدين الذى افترضه الله تعالى عليهم ، ثم العون فى إحراز ما ذكرنا بكتابة واحتراز وقسمة وإقامة حدّ وقبض مال واجب قبضه وغير ذلك ، ثم هكذا أبداً كل ما فيه عون على ذلك حتى يبلغ الأمر إلى الصناعات التى لا غنى بالناس عنها .

واعلم أن كل أحد من الناس ممن له تمييز صحيح فإنه لا يخلو من أن يكون موقناً بصحة المعاد بعد الموت وبالجزاء ، أو يكون شاكاً فى ذلك ، أو يكون معتقداً أن لا معاد ولا جزاء وإنما هى هذه الحياة الدنيا فقط . فإن كان ممن يوقن بالمعاد والجزاء فاللازم له إجهاد نفسه واستفراغ طوقه فيما يتخلص به من الهلكة فى معاده ، ويكون حينئذ إذا اشتغل بغير ذلك وضيع ما فيه نجاته وخلاصه فى الأبد ، فاسدَ التمييز سخيف العقل مذموماً مهلكاً لنفسه ، بل أسوأ حالة من المجانين والحيوان الدارج (٣) غير الناطق . ولا مخلص فى المعاد إلا بالبحث عن شريعة الحق و [إيثار] (٤) تعلّمها على كل علم ، و [احراز] نجاته فى دنياه [الآجلة] . فالواجب عليه إجهاد نفسه وترك كل حال شاغلة له عن البحث عن صحَّة الأمر ، عن أن المعاد حق أو شىء غيره حق . وإذا اشتغل بذلك عن شىء غيره فهو بلاشك فاسد التمييز ، خاسر

---

(١) أهل المحاربة هم المفسدون فى الأرض الذين حكم القرآن بأن يقتلوا أو يصلبوا أو ينفوا من الأرض .

(٢) زيادة لازمة

(٣) فى الأصل : الدراج

(٤) ما بين معقفين فى هذه العبارة التى كتبت بهامش النسخة ، مطموس .

الصفقة مغرر بنفسه عن الأمر الذى فيه عظيم البلاء عليه أو كثير السعادة له ، ولا يصل إلى علم ذلك إلا بالبحث عن الشرائع وطلب البرهان فيها حتى يقع على حقيقة الأمر فى ذلك .

وإن كان غير معتقد لصحة المعاد ، ولم يكن عنده شيء غير هذه الدار ، فلا يخلو من أحد وجهين لا ثالث لهما : إما أن لا يكون يرى إمراج النفس (١) فى الشهوات ، وإهمالها فى اللذات وإطلاقها على اتباع الهوى — فإن كان هذا هكذا فليس أولى بذلك فيه (٢) من غيره ، وهذا رأى يقتضى له أن لا يتظلم ممن تلف بقتله وأخذ ماله أو هتك ستره وتسخيره (٣) فيما يلذ به غيره وإشقائه فيما ينعم به سواه ، ولا أخسر صفقة ممن يرى أن لا دار له سوى هذه ثم لا يكون حظه منها إلا الشقاء والتعب والهلكة — أو يكون ممن يقول بالسياسة التى جماعها الأمن له من غيره ، ولغيره منه ، على دمه وحرمته وبشرته وماله وشمول العافية (٤) وصلاح الحال والكفاية . وهذا لا يصح البتة ولا يوجد إلا باستعمال الشريعة الداعية بالوعيد بالآخرة والعقاب فى الدنيا لأجل معصيته ، فإذ لا سبيل إلى ذلك إلا بالشريعة فالإشتغال بها هو الغرض ، والإشتغال عنها رأى فاسد .

وأيضاً فإن المشتغل بعلم الشريعة محصل الأمن من السلطان والخاصة والعامة ، متصد ، لعلو الحال فى الدنيا والصلاح فيها ؛ ومن خالفها محصل (٥) للمخالفة للسلطان والخاصة والعامة ، متعرض للبلاء فى دمه وحاله وماله ؛ فلا أضعف حالاً ولا أسوأ تمييزاً ولا أضعف عيشاً ممن (٦) لا يقر بالمعاد ولا يعرف إلا هذه الدار ، ثم هو متعرض للبلاء مدة حياته . وإنما يتحمل

(١) فى الاصل : إمراح . وإمراج النفس إطلاقها على سجيتها ، وتركها ترعى حيث شاءت
(٢) فى الاصل : فى غيره
(٣) فى الاصل : وتسخير
(٤) فى الأصل : العاقبة
(٥) فى الأصل : فحصل
(٦) فى الأصل : لمن

الأذى والمخاوف ويتعرض للهلكة والبلاء (١) من يرى أنه إذا خرج من هذه الدار صار إلى الحياة الأبدية والنعيم السرمدى والسرور الخالد (٢) وإلا فهو أحمق مجنون . وإنما قلنا هذا البرهان العقلى الحسى الضرورى : أن إيثار علم الشريعة على كل علم واجب على كل من لا يقر بالمعاد وعلى من يشك بالمعاد ، كوجوبه على من يقر بالمعاد .

وإن قوماً قوى جهلهم ، وضعفت عقولهم ، وفسدت طبائعهم ، يظنون أنهم من أهل العلم وليسوا من أهله ، ولا شئ أعظم آفة على العلوم وأهلها الذين هم أهلها بالحقيقة من هذه الطبقة المذكورة ، لأنهم تناولوا طرفاً من بعض العلوم يسيراً ، وكان الذى فاتهم من ذلك أكثر مما أدركوا منه ، ولم يكن طلبهم لما طلبوا من العلم لله تعالى ، ولا ليخرجوا من ظلمة الجهل ، لكن ليزدروا بالناس زهواً وعجباً ، وليماروا لجاجا وشغباً ، وليفخروا أنهم من أهله تطاولا ونفخا ، وهذه طريق مجانبة الفلاح ، لأنهم لم يحصلوا على الحقيقة وضيعوا سائر لوازمهم فعظمت خيبتهم ولم يكن وكدهم أيضاً ، مع الازدراء بغيرهم ، إلا الازدراء بسائر العلوم وتنقيصها ، لظنهم الفاسد أنه لا علم إلا الذى طلبوا فقط . وكثيراً ما يعرض هذا للمبتدئ فى علم من العلوم وفى عنفوان الصبا وشدة الحداثة . إلا أن هؤلاء لا يرجى لهم البرء من هذا الداء ، مع طول النظر والزيادة فى السنّ .

فَقَصْدُنا أنْ نُرِىَ كلَّ من هذه صفته أحدَ وجهين : إما نقصُ عِلمِه الذى يتبجحُ به عن غيره من العلوم ، أو فاقة (٣) علمه ذلك إلى غيره من العلوم ، وأنه إن لم يُضِفْ غَيْرَهُ من العلوم إلى علمه كان ناقصاً لا ينتفع به كبير منفعة بل لعله يستضرُّ به (٤) جداً :

---

(١) فى الاصل : وليلا
(٢) فى الاصل : الخالدى
(٣) فى الأصل : بانه
(٤) فى الأصل : يستصريه

فمن ذلك أنا وجدنا قوماً من أهل طلب العلم ، أعنى الديانة ، يزرون بسائر العلوم ، وهذا نقص عظيم شديد لا ينتفع به صاحبه فى قسمة الفرائض والمواريث وأن يعرف من المطالع ما يعرف به أوقات الصلوات ودخول شهر رمضان — شهر الصوم — ووقت الحج ، وإن لم يعرف مضار المأكل والمشرب أوشك أن يتناول ما يؤذيه ويضر به ، وذلك محرم وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتداوى فاتباع أمره فرض . فتعلم الطب فرض على الكفاية ، ومضيّعُهُ مضيعُ فرض . والقرآن عربى فلا سبيل إلى أن يعلمه من لم يعلم العربية ، ولا سيما إن كان المذكور لم يتناول من الشريعة إلا علماً واحداً من علومها ، فهذا إنسان ناقص مسىء إلى نفسه مهلك لها ، لأنه إن تناول علم القرآن ولم يتناول علم السنن كانت يده من الدين صفرا ، وكان علمه عليه لا له . ومن أحسن علم السنن ولم يحسن علم القرآن لم يعلم ما يجوز به القراءة مما لا يجوز ، وما أنزل الله تعالى مما لم ينزل . وإن تعلق بالفتيا دون علم بالقرآن والسنن فهو والحمار سواء ولا يحل له أن يفتى لأنه لا يفتى أحق أم باطل ، وإنما يفتى مقلداً لمن لا يدرى هل أصاب أو أخطأ ولا يعرف ما هو عليه أهو من الدين أم من غير الدين إلا ظنا . وإن تعلق بالكلام دون أن يعرف السنن كان هالكا ، لمغيبه عن حقيقة الشريعة التى كلفه الله تعالى إياها ، وألزمه أداءها (١) .

ووجدنا قوماً طلبوا علوم العرب فازدروا على سائر العلوم كالنحو واللغة والشعر والعروض ، فكان هؤلاء بمنزلة من ليس فى يده من الطعام إلا الملح وليس معه من السلاح إلا المصقلة التى بها يجلى السلاح ، وكان غائباً عن علم الشريعة التى لا معنى لخروجنا إلى هذا العالم غيرها ، ولا خلاص لنا ولا سلامة عند خروجنا من الدنيا إلا بها ، وكان بمعزل عن علم الحقائق .

ووجدنا قوماً طلبوا علوم الأوائل أو علماً منها ، واتخذوا سائر العلوم

---

(١) فى الأصل : والتزمه إياها

سخرياً مثل من تعلق بالطب فلم ير علماً غيره ؛ فيقال له إنك لا تشك أنه قد يكون فيمن لا يتعانى ولا يحسن الطب أحسن أجساماً وأطول أعماراً من المتعـنّين ، كأهل البادية(١) والعامة والبلاد التى لا يحسن أهلها الطب ، هذا أمر لا ينكره منكر ، فإن هذا عيان مشاهد ، فما فائدة الطب إذن ؟ ولا غرض لأهله إلا تصحيح الأجسام ودفع الأمراض المخوف منها الموت(٢) ولم يحصلوا من هذا الغرض إلا على أقلّ مما حصل عليه غيرهم . ومثل قوم من أهل الهندسة وعلم الهيئة لا يرون ما عدا ذلك من العلوم إلا هذراً ولغواً فيقال لهم : ماالفرق بين معرفة قطع كوكب كذا وكوكب كذا وصفة برج كذا وبرج كذا من الأرض وبين صفة مدينة كذا ، وحركات ملك فلانه ، أو حركات فلان وفلان ؟ وهذا لا سبيل لهم إلى المخلص منه لأن كل ذلك خبر عن بعض مافى العالم فقط لا يفيد فائدة إلا المعرفة بما عرف من كل ذلك أنه على هيئته والاستدلال بكل ذلك على الصانع المدبر سواء فإن صار إلى علم القضاء لم يحصل إلا على دعاوى كاذبه وخرافات لا تصح ، بل البرهان قائم على بطلان هذه الدعاوى ، بما قد أحكمناه فى غير هذا الموضع ، ومن ذلك أنهم لا يدعون على ذلك دليلا أصلا إلا تجارب يذكرونها وهذا باطل لأن تلك التجارب لا يمكن إثباتها البتة لأنها لا تكون إلا فى مدد طوال ، ولا سبيل إلى بقاء دولة ولا استمرار حالة على سلامة ، مقدار تلك المدة أبداً ، ونقول لهم : إن أصح ما بأيديكم ، باقراركم ، المواليد والقرانات (٣) ونحن نجد الكبش يولد ويعيش ويذبح وهو يباشر أكله (٤) فى دقيقة واحدة

---

(١) كرر ابن حزم هذه الفكرة عن أهل البادية وصحتهم وطول أعمارهم فى رسالة « التوقيف على شارع النجاة » — وانظر كيف كانت هذه الفكرة مختمرة أيضاً عند ابن خلدون فقد وضحها كما وضح استقلال أهل البوادى بطبهم فى المقدمة : ٣٦٤ وما بعدها .

(٢) فى الأصل : للموت .

(٣) إذا ذكر القران إطلاقاً عنى به إجتماع زحل والمشترى خاصة ، فإذا قصد قران كوكبين آخرين قيد بذكرهما .

(٤) فى الأصل : وهو ناشر كله

ثم يعمل من جلده أديم ، فبعضه رَقٌّ يُنْسَخُ فيه (١) وتطول مدة بقائه ، وبعضه نطائق (٢) تقطع وتعفن ، ولم يتقدم فى الوجود والنشأة بعض ذلك الأديم بعضاً . وأيضاً فإنهم خابوا من علم الشريعة الذى هو الحقيقة . وطائفة حصلت على علم حدود المنطق ، فنقول لهم : إنكم لم تحصلوا إلا على العلوم التى لا منفعة لها ولا فائدة ، إلا تصريفها فى سائر العلوم فأنتم (٣) كمن جمع آلة البناء ولم يصرفها فى البنيان فهى معطلة لديه لا معنى لها ، فإن قالوا إن لهذه العلوم معايش ومكاسب ، قلنا هى أضعف المكاسب وأقل المعايش سعة ، فإذ ليس غرضكم إلا هذا ، فالتجارة والزراعة وصحبة السلطان أجدى بالمكسب وأوسع بالوفر (٤) حظاً مما أنتم عليه .

ولم نورد شيئاً من هذا تنقيصاً لشىء من هذه العلوم — ومعاذ الله من هذا — ولو فعلنا ذلك لدخلنا فى جملة من نذم ، ولركبنا الملة (٥) الخسيسة لكن تنقصاً لمن قصد بعلمه ذمَّ سائر العلوم وتنقصها . وأما من طلب علماً ما ، لم يفتح الله تعالى له فى غيره ، وهو مع ذلك معترف بفضل سائر العلوم ، ونقص ما حصل عليه ونقص حاله إذ أقصَر عنها ، فهو محسن محمود فاضل قد تعوض الإنصاف والعدل والصدق مما فاته منها فنعم العوض ، ولا ملامة عليه فيما لم يفتح الله تعالى له فيه ، وأما من أخذ من كل علم ما هو محتاج إليه واستعمل ما علم كما يجب فلا أحد أفضل منه ، لأنه قد حصل على عز النفس وغناها فى العاجل وعلى الفوز فى الآجل ، ونجا مما حصل فيه أهل الجهل ، ومن لم يستعمل ما علم من أضداد هذه الأحوال .

---

(١) فى الأصل : ورق ينسج فيه
(٢) فى الاصل : بطائق
(٣) فى الاصل . فأنت
(٤) فى الاصل : بالدفر
(٥) فى الاصل : المدة

وجملة الأمر أنه لولا طلب النجاة فى الآخرة لما كان لطلب شىء من العلوم معنى لأنه تعب ، وقاطع عن لذات الدنيا المتعجلة من المشارب والمآكل والملاهى والسفاه والاعتلاء واتباع الهوى ؛ فلو لم يكن آخرة يؤدى إليها طلب العلوم ، لما كان أحد أسوأ حالا من المشتغل بالعلم ؛ فإذ الأمر كذلك فالعلوم كلها (١) متعلق بعضها ببعض كما بينا قبل ، محتاج بعضها إلى بعض ، ولا غرض لها إلا معرفة ما أدى إلى الفوز فى الآخرة فقط ، وهو علم الشريعة ، وبالله تعالى التوفيق ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

تمت الرسالة الموسومة بمراتب العلوم

والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً

---

(١) فى الأصل : فالأمر كله

رسالة في الغناء الملهي أمباح هو أم محظور

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

رسالة في الغناء الملهي أمباح هو أم محظور

قال أبو محمد : الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين :

أما بعد ، أيدك الله وإيانا بتوفيقه ، وأعاننا بلطفه على أداء حقوقه ، فإنك رغبت أن أقدم لك في الغناء الملهي ، أمباح هو أم من المحظور ، فقد وردت أحاديث بالمنع منه وأحاديث بإباحته . وأنا أذكر الأحاديث المانعة وأنبه على عللها ، وأذكر الأحاديث المبيحة له وأنبه على صحتها إن شاء الله والله الموفق للصواب .

فالأحاديث المانعة : ما روى سعيد بن أبي رزين عن أخيه عن ليث بن أبي سليم (١) عن عبد الرحمن بن سابط (٢) عن عائشة أم المؤمنين عن النبي عليه السلام أنه قال : إن الله حرَّم المغنية وبيعها وثمنها وتعليمها (٣) والاستماع عليها .

وروى لاحق بن حسين بن عمر أنَّ ابن أبي الورد المقدسي (٤) قال : ثنا أبو المُرَجِّ ضرار بن علي بن عمير القاضي الجيلاني (٥) ، ثنا أحمد

---

(١) راجع ما جاء عنه في التهذيب ٨ : ٤٦٧

(٢) عبد الرحمن بن سابط أرسل عن النبي وتوفي سنة (١١٨هـ) انظر ترجمته في التهذيب رقم ٣٦١ .

(٣) في الأصل : الاسماع

(٤) ابن أبي الورد اسمه عمران بن عبد الله ، انظر لسان الميزان : ١٧٣٠

(٥) أبو المرجى ضرار بن علي (لسان الميزان : ٩١٣) ، وحكى النباتي عن ابن حزم أنه قال : لا يدرى من هو ، قال النباتي : وهو كما قال .

ابن سعيد عن محمد بن كثير (١) الحمصى ثنا فرج [بن] فضالة عن يحيى بن سعيد (٢) عن محمد بن الحنفية عن على بن أبى طالب قال : قال رسول الله إذا عملت أمتى خمس عشرة خصلة حلَّ بها البلاء : إذا كان المال دولاً ، والأمانة مغنما ، والزكاة مغرما وأطاع الرجل زوجته ، وعقَّ أمه وجفا أباه ، وارتفعت الأصوات فى المساجد ، وكان زعيم القوم أردأهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، ولبست الحرير واتخذت القينات والمعازف ، ولعن آخر هذه الأمه أولها فليتوقعوا عند ذلك ريحاً حمراء ومسخاً وخسفاً .

وروى أبو عبيدة بن فضيل بن عياض (٣) ثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم هو عبد الرحمن بن عبد الله ابنا عبد الرحمن بن العلاء عن محمد بن المهاجر (٤) عن كيسان مولى معاوية ثنابه معاوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن تسع وأنا أنهاكم عنهن : ألا إن منهن الغناء والنوح والتصاوير والشعر والذهب وجلود السباع والخز والحرير .

وروى سلام بن مسكين عن شيخ شهد ابن مسعود يقول : الغناء ينبت النفاق فى القلب (٥).

وروى عبد الملك بن حبيب (٦) ثنا عبد العزيز الأندلسى عن اسماعيل ابن عياش عن على بن زيد عن القاسم عن أبى أمامة قال : سمعت رسول الله يقول : لا يحل تعليم المغنيات ولا شراؤهن ولا بيعهن ولا اتخاذهن ، وثمنهن حرام ، وقد أنزل الله ذلك فى كتابه « ومن الناس من يشترى لهو الحديث

---

(١) انظر ترجمة محمد بن كثير فى اللسان : ٥٧٢

(٢) يحيى بن سعيد فى اللسان : ٩٠٩

(٣) فى الأصل فضل (أنظر اللسان ٧٧٢). وضعفه ابن الجوزى ووثقه الدارقطنى وابن حبان.

(٤) محمد بن المهاجر فى اللسان : ١٢٨٧

(٥) هذا الحديث فى سنن أبى داود : ٤٧٥٦ وما بعدها

(٦) أنظر اللسان : ١٧٤ والتهذيب : ٧٣٦ قال ابن حجر : وقد أفحش ابن حزم القول فيه ونسبه إلى الكذب وتعقبه جماعة بأنه لم يسبقه أحد إلى رميه بالكذب (توفى سنة ٢٣٨ هـ).

ليضل عن سبيل الله بغير علم » (١) والذى نفسى بيده ما رفع رجل عقيرته بالغناء إلا ارتدفه شيطانان يضربان بأرجلهما صدره وظهره حتى يسكت .

وبه إلى عبد الملك بن حبيب عن الأويسى(٢) عن عبد الله بن عمر ابن حفص بن عاصم أن رسول الله قال : إن المغنى أذنه بيد شيطان يرعشه حتى يسكت .

وبه إلى عبد الملك بن حبيب ثنى ابن معين عن موسى بن أعين(٣) عن القاسم عن أبى أمامة أن رسول الله قال : إن الله حرم تعليم المغنيات وشراءهن وبيعهن وأكل أثمانهن .

وذكر البخارى قال : قال هشام بن عمار(٤) ثنا صدقة بن خالد (٥) ثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر(٦) ثنا عطية بن قيس الكلابى(٧) ثنا عبد الرحمن ابن غنم الأشعرى ثنى أبو عامر أو أبو مالك الأشعرى [أنه] سمع النبى عليه السلام يقول : ليكونن من أمتى قوم يستحلون الخز والحرير والخمر والمعازف .

وروى ابن سفيان ثنى ابراهيم بن عثمان بن سعيد ثنى أحمد بن الفمر ابن أبى حماد بحمص ويزيد بن عبد الصمد قالا ثنا عبيد بن هشام الحلبى هو أبو نعيم ، ثنا عبد الله بن المبارك عن مالك عن محمد بن المنكدر عن أنس قال : قال رسول الله من جلس إلى قينة صب فى أذنيه الآنك (٨) يوم القيامة .

وبه إلى ابن شعبان ثنى عمى ثنا أبو عبد الله الدورى ثنا عبيد الله القواريرى

---

(١) سورة لقمان : ٦

(٢) الأويسى هو عبد العزيز بن عبد الله بن يحيى القرشى المدنى الفقيه روى عن عبد الله ابن عمر العمرى (التهذيب : ٦٦٢)

(٣) أنظر ترجمة موسى بن أعين فى التهذيب : ٥٨٥ (توفى ١٧٧ هـ)

(٤) هشام بن عمار فى التهذيب ١١ : ٥١

(٥) فى الأصل مجالد وترجمته فى التهذيب ٤ : ٤١٤

(٦) أنظر ترجمة عبد الرحمن فى التهذيب ٦ : ٢٩٧

(٧) راجع التهذيب ٧ : ٢٢٨ ، وتوفى عطية سنة ١٢١ هـ .

(٨) فى الأصل : الايك ؛ والآنك : الرصاص

ثنا عمران بن عبيد عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قول الله عز وجل « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله » قال : الغناء .

وروى ابن أبي شيبة أبو بكر ثنا زيد بن الحباب(١) ثنا معاوية ابن صالح(٢) عن حاتم بن حريث(٣) عن مالك ابن أبي مريم(٤) قال : دخل علينا عبد الرحمن بن غنم فقال : أنبأنا أبو مالك الأشعرى أنه سمع النبي عليه السلام يقول : يشرب ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها ، تضرب على رءوسهم المعازف والقينات يخسف الله بهم الأرض .

وحدث فيه : أن الله تعالى نهى عن صوتين ملعونين ، صوت نائحة ، وصوت مغنية .

وكل هذا لا يصح منه شيء ، وهى موضوعة :

أما حديث عائشة رضى الله عنها ففيه سعيد بن أبي رزين عن أخيه(٥) وكلاهما لا يدرى أحد من هما . وأما حديث على رضى الله عنه فجميع من فيه إلى يحيى بن سعيد لا يدرى من هم .

ويحيى بن سعيد لم يرو عن محمد بن الحنفية كلمة ولا أدركه .

وأما حديث ابن مسعود رضى الله عنه ففيه شيخ لم يسمَّ ولا يعرفه أحد .

وأما حديث معاوية فإن فيه كيسان ولا يدرى من هو ، ومحمد بن مهاجر وهو ضعيف ؛ وفيه النهى عن الشعر وهم يبيحونه .

وأما أحاديث عبد الملك بن حبيب فكلها هالكة .

---

(١) انظر ترجمة زيد فى التهذيب ٣ : ٤٠٢ والظن أنه سمع معاوية بمكة لأن معاويه أندلسى .

(٢) فى الأصل جريب ، وترجمته فى التهذيب ٢ : ١٢٩

(٣) توفى معاوية بن صالح عام (١٨٥) وترجمته فى التهذيب ١٠ : ٢٠٩ وفى توثيقه اختلاف .

(٤) مالك بن أبي مريم : نقل فى التهذيب (١٠ : ٢١) قول ابن حزم إنه لا يدرى من هو وقال الذهبي لا يعرف .

(٥) فى الأصل : عن أبيه ، انظره فى لسان الميزان : ٩٨ حيث نقل كلام ابن حزم فيه .

وأما حديث أبى أمامة ففيه إسماعيل بن عياش (١) وهو ضعيف ، والقاسم وهو مثله وأما حديث البخارى فلم يورده البخارى مسنداً وإنما قال فيه : قال هشام بن عمّار ثم هو إلى أبى عامر أو إلى أبى مالك ولا يدرى أبو عامر هذا

وأما أحاديث ابن شعبان فهالكة .

وأما حديث أنس فبلية لأنه عن مجهولين ، ولم يروه أحدٌ قط عن مالك من ثقات أصحابه ، والثانى عن مكحول عن عائشة ولم يلقها قط ولا أدركها وفيه أيضاً من لا يعرف وهو هاشم بن ناصح وعمر بن موسى ، وهو أيضاً منقطع والثالث عن أبى عبد الله الدورى ولا يدرى من هو .

وأما حديث ابن أبى شيبة ففيه معاوية بن صالح وهو ضعيف ، ومالك ابن أبى مريم ولا يدرى من هو .

وأما النهى عن صوتين فلا يدرى من رواه ، فسقط كل مافى هذا الباب جملة .

وأما تفسير قول الله تعالى ومن الناس من يشترى لهو الحديث بأنه (٢) الغناء فليس عن رسول الله ، ولا ثبت عن أحد من أصحابه ، وإنما هو قول بعض المفسرين ممن لا يقوم بقوله حجة ، وما كان هكذا فلا يجوز القول به . ثم لو صحّ لما كان فيه متعلق لأن الله تعالى يقول : ليضل عن سبيل الله وكل شىء يفتن ليضل به عن سبيل الله فهو إثم وحرام ، ولو أنه شراء مصحف أو تعليم قرآن ، وبالله التوفيق

فإذ لم يصح فى هذا شىء أصلاً ، فقد قال تعالى : وقد فصل لكم ما حرم

---

(١) اسماعيل بن عياش (التهذيب : ٥٨٤) تكلم فيه قوم ووثقه آخرون ، وسئل عنه يحيى بن معين فقال ليس به فى أهل الشام بأس ، والعراقيون يكرهون حديثه وقال آخر : وأما روايته عن أهل الحجاز فإن كتابه ضاع فخلط فى حفظه عنهم .

(٢) فى الأصل : فإنه

عليكم (١) وقال تعالى « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » (٢) وقال رسول الله من طريق سعد بن وقاص ، وطريقه ثابتة ، «إن من أعظم الناس جرماً فى الاسلام [من سأل عن شىء] لم يحرم فحرم من أجل مسألته »(٣) فصحّ أن كل شىء حرّمه تعالى علينا قد فصله لنا ، وما لم يفصل لنا تحريمه فهو حلال .

وخرج مسلم بن الحجاج (٤) قال ثنى هارون بن سعيد الأيلى (٥) ثنا عبد الله بن وهب ثنى عمرو هو [ابن] الحارث أن ابن شهاب حدثه عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين ، أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان تغنيان فى أيام منى وتضربان ورسول الله مسجى بثوبه فنهرهما أبو بكر فكشف رسول الله عنه فقال : دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد .

وبه (٦) إلى عمرو بن الحارث أن محمد بن عبد الرحمن حدثه عن عروة عن عائشة قالت . دخل رسول الله وعنده جاريتان تغنيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه ، فدخل أبو بكر فانتهرنى وقال : مزمار الشيطان عند رسول الله ! فأقبل عليه فقال : دعهما .

فإن قيل إن أبا أسامة روى هذا الحديث عن هشام بن عروة عن أبيه فقال فيه : وليستا بمغنيتين ، قيل له قد قالت عائشة تغنيان فأثبتت الغناء لهما بقولها وليستا بمغنيتين ، أى ليستا بمحسنتين ، وقد سمع رسول الله قول أبى

---

(١) سورة الأنعام : ١١٩

(٢) سورة البقرة : ٢٩

(٣) كرره أحمد فى مسنده (١٥٢٠ ، ١٥٤٥) ورواه البخارى ٩ : ٩٥ ومسلم ٧ : ٩٢ وتختلف روايته بعض الشىء عما ورد هنا ، وأقربها إلى ماروا ه ابن حزم « إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شىء لم يحرم فحرم من أجل مسألته » .

(٤) أنظر صحيح مسلم ٣ : ٢١ باب صلاة العيدين ، والبخارى باب سنة العيدين لأهل الإسلام ٢ : ١٧

(٥) فى الأصل : الأيدى

(٦) صحيح مسلم ٣ : ٢٢

بكر : مزمار الشيطان ، فأنكر عليه ولم ينكر على الجاريتين غناءهما . وهذا هو الحجة التى لا يسع أحد خلافها ولا يزال التسليم لها .

وروى أبو داود السجستانى (١) ثنا أحمد بن عبيد العدانى ثنا الوليد بن مسلم ثنا سعيد بن عبد العزيز ثنا سليمان بن موسى عن نافع قال : سمع ابن عمر مزماراً فوضع إصبعيه فى (٢) أذنيه ونأى عن الطريق ، وقال : يا نافع هل تسمع شيئاً ؟ قال : لا ، فرفع إصبعيه وقال : كنت مع رسول الله فسمع مثل هذا ، فصنع (٣) مثل هذا . فلو كان حراماً ما أباح رسول الله لابن عمر سماعه ، ولا أباح ابن عمر لنافع سماعه ، ولكنه عليه السلام ، كره لنفسه كل شئ ليس من التقرب إلى الله ، كما كره الأكل متكئاً والتنشف بعد الغسل بثوبه بعد الدلك والستر الموشى على سُدَّة (٤) عائشة وعلى باب فاطمة رضوان الله عليهما ، وكما كره أشد الكراهية عليه السلام أن يبيت عنده دينار أو درهم . وإنما بعث عليه السلام منكراً للمنكر وآمراً بالمعروف فلو كان ذلك حراماً ، لما اقتصر عليه السلام أن يسد أذنيه عنه دون أن يأمر بتركه وينهى عنه . فلم يفعل عليه السلام شيئاً من ذلك ، بل أقره وتنزه عنه ، فصح أنه مباح وأن تركه أفضل ، كسائر فضول الدنيا المباحة ، ولا فرق .

وروى مسلم بن الحجاج (٥) قال ثنا زهير بن حرب ثنا جرير بن هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : جاء حبش يزفنون فى المسجد فى يوم عيد ، فدعانى رسول الله فوضعت رأسى على منكبه (٦) فجعلت أنظر إلى

---

(١) مسند أبى داود ٧ : ٢٣٨

(٢) فى مسند السجستانى : على

(٣) فى الأصل : وصنع ، وفى مسند أبى داود تعليقاً على هذا الحديث ، قال أبو على اللؤلؤى سمعت أبا داود يقول : وهو حديث منكر .

(٤) السدة هنا باب الدار والبيت ، أو شئ كالظلة على الباب

(٥) أنظر صحيح مسلم ٣ : ٢٢

(٦) فى الأصل : منكبيه .

لعبهم حتى كنت أنا التى انصرفت عن النظر به إليهم (١) .

وروى سفيان الثورى وشعبة كلاهما عن أبى إسحاق السبيعى عن عامر ابن سعد البجلى (٢) أن أبا مسعود البدرى وقرظة بن كعب وثابت بن زيد كانوا فى العريش وعندهم غناء فقلت : هذا وأنتم أصحاب رسول الله فقالوا إنه رخص لنا فى الغناء فى العرس ، والبكاء على الميت فى غير نوح إلا أن شعبة قال : ثابت بن وديعة مكان ثابت بن زيد ولم يذكر أبا مسعود .

وروى هشام بن زيد ثنا حسان عن محمد بن سيرين قال: إن رجلا قدم المدينة بجوار فنزل على ابن عمر وفيهم جارية تضرب ، فجاء رجل فساومه فلم يهو منهن شيئاً ، قال انطلق إلى رجل هو أمثل لك بيعاً من هذا . فأتى إلى عبد الله بن جعفر فعرضهن عليه فأمر جارية فقال : خذى فأخذت حتى ظن بن عمر أنه قد نظر إلى ذلك ، فقال ابن عمر حسبك سائر اليوم من مزمور الشيطان ، فبايعه ثم جاء الرجل إلى ابن عمر فقال : يا أباعبد الرحمن إنى غبنت بتسعمائة درهم ، فأتى ابن عمر مع الرجل إلى المشترى فقال له إنه غبن فى تسعمائة درهم ، فإما أن تعطيها إياه وإما أن ترد عليه بيعه . فقال : بل نعطيها إياه . فهذا عبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر رضى الله عنهما قد سمعا الغناء بالعود ، وإن كان ابن عمر كره ماليس من الجد فلم ينه عنه ، وقد سفر فى بيع (٣) مغنية كما ترى . ولو كان حراماً ما استجاز ذلك أصلا وقد قال قائل : قال الله تعالى « فماذا بعد الحق إلا الضلال » (٤) فقرأ فى ذلك يقع الغناء ، قيل له حيث يقع التروّح فى البساتين وصباغ ألوان الثياب وكل ما هو من اللهو (٥) .

---

(١) فى الصحيح : أنصرف عن النظر إليهم .
(٢) انظره فى التهذيب : ١٠٧ .
(٣) فى الأصل : بيه
(٤) سورة يونس : ٣٢
(٥) فى الأصل : اللغز

وقال رسول الله « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » فإذا نوى المرء بذلك ترويح نفسه وإجمامها (١) لتقوى على طاعة الله عز وجل فما أتى ضلالاً . وقد قال أبو حنيفة : من سرق مزماراً أو عوداً قطعت يده ومن كسرهما ضمنهما . فلا يحل تحريم شيء ولا إباحته إلا بنص من الله تعالى أو من رسوله عليه السلام لأنه إخبار عن الله تعالى ، ولا يجوز أن يخبر عنه تعالى إلا بالنص (٢) الذى لا شك فيه وقد ، قال رسول الله «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » (٣)

* * *

قال أبو بكر عبدالباقى بن بريال الحجارى (٤) رضى الله عنه : ولقد أخبرنى بعض كبار أهل زمانه (٥) أنه قال : أخذت النسخة التى فيها الأحاديث الواردة فى ذم الغناء والمنع من بيع المغنيات ، وماذكره فيها أبو محمد رضى الله عنه ونهضت بها إلى الإمام الفقيه أبى عمر بن عبد البر (٦) ووقفته عليها أياما ورغبته فى أن يتأملها ، فأقامت النسخة عنده أياماً ثم نهضت إليه فقلت ما صنعت فى النسخة ؟ فقال : وجدتها فلم أجد ما أزيد فيها وما أنقص .

تمت رسالة الغناء بحمد الله وعونه

---

(١) فى الأصل : وأجماعها

(٢) فى الأصل : بنص

(٣) أنظر هذا الحديث فى باب إثم من كذب على النبى من صحيح البخارى ١ : ٢٩

(٤) فى الأصل: أبو بكر بن محمد بن الباقى نوفل الحجارى والاسم محرف تحريفاً شديداً . وصوابه أبو بكر عبد الباقى بن محمد بن سعيد بن بريال الحجارى نسبة إلى وادى الحجارة توفى سنة ٥٠٢

(٥) فى الأصل : مانه

(٦) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى الفقيه الحافظ المكثر العالم بالقراءات وعلوم الحديث والرجال كان كثير الشيوخ على أنه لم يخرج عن الأندلس لكنه سمع من أكابر أهل الحديث بقرطبة وغيرها ومن الغرباء القادمين إليها ، وله مؤلفات كثيرة قيمة توفى سنة ٤٦٠ هـ . وترجمته فى الجذوة رقم ٨٧٤

رسالة في ألم الموت و إبطاله

فصل

هل للموت ألم أم لا

قال أبو محمد رحمه الله : اختلف المتقدمون من أصحاب الطبائع فى الموت: هل له ألم أم لا ألم له ، فقالت طائفة إنه لا ألم له أصلا وبهذا نقول ، لبرهانين: أحدهما حسى والآخر ضرورى عقلى راجع إلى الحس أيضاً . فأما الأول فهو أنه كل من رأينا يموت ، وهو فى عقله ، إذا سئل عما يجد فإنه يقول : لا شيء إلا الانحلال فقط ، وأن كلّ من يحس عند ذلك ألماً فإنه ألم المرض الذى كان فيه ، كالوجع المختص بمكان واحد ، وما أشبه ذلك ، حتى إنه لابد من شيء يسميه الناس راحة الموت ، ثم لا يكون بين حكايتهم وبين زهوق أنفسهم إلا لمحة يسيرة جداً .

وأما البرهان الضرورى فإنه لا يكون ألم للشيء المألوم البتة فى حين وقوعه ولا يكون إلا فى ثانى وقوعه ، وليس للنفس بعد الموت بقاء بحيث يصل إليها الألم الجسدى أصلا ، لأنها قد فارقت الجسد ، وأكثر ما يكون القلق الشديد ، والشوق المرعب ، لمن فارق عقله . وقد يعرض مثل ذلك القلق لمن يبرأ من مرضه ، فإذا برئوا وسئلوا عن ذلك أخبروا أنهم لم يكونوا يجدون شيئاً .

وقد نجد من تخرج النفس من بعض أعضائه فيموت ذلك العضو خاصة من المفلوجين ، ومن عفن بعض أعضائه لبعض القروح والعلل ، لا بالموت ، لخروج النفس عن ذلك الموضع ، حين خروجها ، لا بعده . وإنما الألم ما دامت النفس فى ذلك الموضع قوية التشبث .

وأما الطائفة التى قالت إن للموت ألماً ، فلم تأت ببرهان يصحح قولها ،

وقد يمكن أن تشغب من شدائد المرض (١) ومقدمات الموت التى عنها يكون ، ومن الشريعة بقول النبى صلى الله عليه وسلم : إن للموت لسكرات . وهذا لا حجة فيه لقولهم ، لأن هذه الآلام التى تظهر من المريض إنما هى مادامت النفس متشبثة بالجسد مقترنة به ، لا بعد الموت. إنما هو حال الفراق ، وحال الفراق [أليم]. وقوله إن للموت سكرات حق وصدق لاشك فيه ، لأنه قد يمكن أنه عليه السلام يصف ما يكون سبباً للموت ، من فساد الجسم واضطراب حاله الموجب للألم للموت ، فهى من سكراته ؛ وقد يكون ذلك لعناء فى النوم ، فلم يعن عليه السلام قط إلا من له سكرات متقدمة، وقد يكون عليه السلام [يصف] حاله ، وما كان مثلها ، أو يكون عنى ما كان مايتخوف بعده ، وما يفكر العاقل حينئذ فيما يقدم عليه، فتكون سكرات معلقة بنفسه ولا سبيل إلا ما يكون إلا مافى قلبه أو فيما بعده حين لقائه لها ، ولم ينصّ عليه السلام على أن حال الموت ذات ألم فيكون معارضاً للمذكور ، وحاشا له عليه السلام أن يأتى بخلاف ما تقتضيه العقول وتدركه المشاهدات، إنما يصفه بهذا من يريد إطفاء نوره ، وإبطال كلمته ، وتوهين أمره ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، وبالله تعالى التوفيق .

تمت الرسالة فى ألم الموت وإبطاله

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد

---

(١) أى تؤيد رأيها بشغب وسفسطة . مستشهدة بشدائد المرض ، وبقول الرسول : إن للموت لسكرات

فصل فى معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلى على سيدنا محمد وآله

فصل فى معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها

قال أبو محمد على بن أحمد بن حزم رضى الله عنه :

أطلت الفكر فى نفسى ، بعد تيقنى أنها المدبرة للجسد ، والحساسة الحية العاقلة المميزة العالمة ، وأن الجسد موات لا حياة له ، وجماد لا حركة فيه إلا أن تحركه النفس ، وبعد إيقانى أنها صاحبة هذه الفكرة ، والمحركة للسانى بما تريد إخراجه مما استقر عندها فقالت مخاطبة لنفسها ، باحثة عن حقيقة أمرها :

يا أيتها النفس المدبرة لهذا الجسد : ألست التى قد عرفت صفات جسدك الذى واليت تدبيره ، وحققتها وضبطتها ؟ قالت بلى . قالت : يا أيتها النفس المدبرة لهذا الجسد : ألست التى تجاوزت جسدك المضاف تدبيره إليك فخلص فهمك وبحثك إلى سائر ما يليك من الأرض والماء والهواء ، وسائر الأجرام ثم إلى ما لم يَلِكِ من الأجرام ، فميزت أجناس كل ذلك وأنواعه وأشخاصه ، وحققت صفات كل ذلك : الذاتية والغيرية ، وفرّقت بين كل ذلك بالفروق الصحيحة ، ثم تخطيت كل ذلك إلى الأفلاك البعيدة وما فيها من الأجرام النيرة فعرفت كيفية أدوارها ، ووقفت على حقيقة مدارها ، وضبطت كل ذلك ، وأشرفت عليه ، وسرحت هنالك ، وأوغلت فى تلك الطرق والمسالك ، وخضت إليه الأنوار والظلم ، واقتحمت نحوه الأبعاد حتى أتيته من أمم ، ولم يخف ما بعد وغمض ؟ قالت : بلى .

قالت : يا أيتها النفس المشرفة على ذلك كله : ألست التى لم تقنعى بهذا المقدار من العلم على عظمه وطوله ، ولا ملأ خزانتك هذا الحظ من

الإشراف، على كبر شأنه وهوله، حتى تعديت إلى ما كان قبل حلولك فى هذا الجسد وارتباطك به ، من أخبار القرون البائدة والممالك الداثرة والأمم الغابرة والوقائع الشنيعة . ألست التى لم يكفك هذا كله حتى تجاوزت العالم بما فيه ، وطفرته من جميع نواحيه ، فشاهدت الواحد الأول، ووقفت إلى الحق الأول المبدع للعالم بكل ما فيه، فأشرفت على أنه هو ، وتوهمت إحداثه لكل ما دونه لتوهمك لكل ما شاهدته بحواسك ، فأحطت بكل هذا علماً ، واحتويت على جميعه فهما ؟ قالت : بلى .

قالت : يا أيتها النفس التى بلغت هذه المبالغ النائية ، وترقت إلى هذه المراقى العالية ، وسربت فى تلك السبل الغامضة ، واستسهلت الولوج إلى تلك الشعاب الخافية ، وسمت إلى التوقل إلى تلك المنازل السامية ، وتكلفت الارتقاء إلى دار تلك الفلك الشاهقة : تفكرى إذ وصلت إلى هذه الرتب ، وخرقت تلك الحجب ، ورفعت دونك تلك الستور المسبلة ، وفتحت لك تلك الأبواب المغلقة المقفلة ، وسهل عليك توج تلك المضايق الهائلة ، وتأتى لك تخلل تلك الثنايا البعيدة ، هل عرفت مائيتك ، وهل دريت كيفيتك ، وهل وقفت على أى شىء أنت ، وما هو جوهرك ؟ وهل أشرفت على حملك لصفاتك ، كيف حملتها ؟ قالت : لا ، ما عرفت شيئاً من ذلك .

قالت : يا أيتها النفس العارفة بغيرها ، الجاهلة بذاتها : هل تعرفين محلك ومن أين أنت ، ومن أين تتكلمين ، وكيف تحركين هذه الأعضاء المصونة إذا حركتها ، الساكنة إذا تركتها ؟ قالت : لا .

قالت : يا أيتها النفس المعجب شأنها فيما علمت وفيما جهلت : هل تذكرين أين كنت ومن أين أقبلت ، وكيف تعلقت بهذا الجسد المظلم الميت الجاهل، وكيف تصريفك له ، وكيف بقاؤك فيه بالأسباب الممسكة لك معه ، وكيف انفصالك عنه عند الآفات العارضة له ؟ قالت : لا .

قالت : يا أيتها النفس المعترفة بجهل ذاتها ، الواقفة على علم ما عداها :

ألست أنت المخاطبة والمسئولة السائلة ؟ قالت : بلى .

قالت : فما قطع بك عن معرفة ذاتك وصفاتك ومكانك وبدء شأنك ومحلك وتنقلك ، وكيف تعلقت بهذا الجسد وكيف تصريفك له وكيف تنقلك عنه ؟

فتدبرت هذا فأيقنت أنه لو كان علمها ما علمت بقوتها وطبيعتها ، دون مادة من غيرها ، لكان المعجز لها مما جهلته أسهل عليها من الممكن لها مما علمت . فاعترفت بأن لها مدبراً علمها ما علمت من البعيدات فعلمته ، وجهلت ما لم يطلعها طلعه من القريبات فجهلته . فيالك برهاناً على عجز المخلوق ومهانته وضعفه وقلته ، نعم وعلى أن النفس لا تفعل ولا تقعد إلا بقوة وإرادة من قبل غيرها لا تتجاوزها ولا تتعداها ، ولله الأمر كله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

انتهى القول فى النفس والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا
محمد وآله ، وسلم تسليماً كثيراً

رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق
والزهد في الرذائل

بسم الله الرحمن الرحيم

رب أسألك العون

اللهم صل على محمد وآله وسلم

رسالة فى مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد فى الرذائل

قال أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الفقيه الأندلسى :

الحمد لله على عظيم منه ، وصلى الله على سيدنا محمد عبده وخاتم أنبيائه ورسله . وسلم تسليما كثيراً ، وأبرأ إليه تعالى من الحول والقوة ، وأستعينه على كل ما يعصم فى الدنيا من جميع المخاوف والمكاره ، ويخلص فى الأخرى من كل هول ومضيق .

أما بعد : فإنى جمعت فى كتابى هذا معانى كثيرة أفادنيها واهب التمييز تعالى ، بمرور الأيام وتعاقب الأحوال ، بما منحنى عز وجل من الفهم(١) بتصاريف الزمان والإشراف على أحواله . حتى أنفقت فى ذلك أكثر عمرى . وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له ، والفكرة فيه ، على جميع اللذات التى تميل إليها أكثر النفوس ، وعلى الازدياد من فضول المال ، ورقمتُ(٢) كل ما سبرت من ذلك بهذا الكتاب لينفع الله تعالى به من شاء من عباده ممن يصل إليه ، ما أتعبت فيه نفسى وأجهدتها فيه وأطلت فيه فكرى ، فيأخذه عفواً ، وأهديته إليه هديا ، فيكون ذلك أفضل له من كنوز المال وعقر الأملاك إذا تدبره ويسره الله تعالى لاستعماله . وأنا راجٍ فى ذلك من الله تعالى أعظم الأجر لنيتى فى نفع عباده وإصلاح ما فسد من أخلاقهم ، ومداواة علل نفوسهم وبالله تعالى أستعين ، وحسبنا الله تعالى ونعم الوكيل .

---

(١) فى الاصل : التهم

(٢) فى الاصل : وزمت

١ — فصل فى مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق

١ — لذة العاقل بتمييزه ، ولذة العالم بعلمه ، ولذة الحكيم بحكمته ، ولذة المجتهد لله عز وجل باجتهاده ، أعظم (١) من لذة الآكل بأكله ، والشارب بشربه والواطئ بوطئه ، والكاسب بكسبه ، واللاعب بلعبه ، والآمر بأمره . وبرهان ذلك أن الحكيم والعالم والعاقل والعامل ومن ذكرنا (٢) واجدون لسائر اللذات التى سمينا كما يجدها المنهمك فيها ، ويحسّونها كما يحسها المقبل عليها ، وقد تركوها وأعرضوا عنها وآثروا طلب الفضائل عليها .

وإنما يحكم فى الشيئين من عرفهما ، لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر .

٢ — إذا انعقبت الأمورُ كلها فَسَدت عليك ، وانتهت فى آخر فكرتك باضمحلال جميع أحوال الدنيا إلى أن الحقيقة إنما هى العمل للآخرة فقط ، لأن كل أمل ظفرت به ، فعقباه حزن إما بذهابه عنك وإما بذهابك عنه ، ولا بدَّ من أحد هذين السبيلين ، الا العمل لله عز وجل فعقباه — على كل حال — سرور فى عاجل وآجل : أما فى العاجل فقلة الهم بما يهتم به الناس وأنك به مُعَظَّمٌ من الصديق والعدو ، وأما فى الآجل ، فالجنة .

٣ — تطلبت غرضاً يستوى الناس كلهم فى استحسانه وفى طلبه فلم أجده الا واحداً وهو : طرد الهم : فلما تدبرته علمت أن الناس كلهم لم يستووا فى استحسانه فقط ولا فى طلبه فقط ، ولكن رأيتهم على اختلاف أهوائهم ومطالبهم وتباين هممهم وإرادتهم لا يتحركون حركة أصلا إلا فيما يرجون به طردَ همٍّ ، ولا ينطقون بكلمة أصلا الا فيما يعانون به إزاحته عن أنفسهم ؛ فمن مخطئ وجه سبيله ومن مقارب للخطأ ، ومن مصيب ، وهو الأقل من الناس فى الأقل من أموره ، والله أعلم .

---

(١) فى الأصل : أعظم لذة ماذكرنا .

(٢) مكررة فى الأصل .

[فطرد الهم(١)] مذهب قد اتفقت الأمور كلها مذ خلق الله تعالى العالم إلى أن يتناهى عالم الابتداء ، ويعاقبه عالم الحساب ، على أن لا يعتمدوا جميعهم(٢) شيئاً سواه وكل غرض غيره : ففى الناس من لا يستحسن أذى الناس ومن لادين له فلايعمل للآخرة ، وفى الناس من أهل الشر من لايريد الخير ولا الأمن ولا الحق ، وفى الناس من يريد(٣) الخول بهواه وإرادته على بعد الصيت ، ومن الناس من لا يريد المال ويؤثر عدمه على وجوده ككثير من الأنبياء عليهم السلام ، ومن تلاهم من الزهاد والفلاسفة ، وفى الناس من يبغض اللذات بطبعه ويستنقص طالبها ، كمن ذكرنا من المؤثرين فقد المال على اقتنائه ، وفى الناس من يؤثر الجهل على العلم كأكثر من نرى من العامة ، وهذه هى أغراض الناس التى لاغرض لهم سواها ، وليس فى العالم مذ كان إلى أن يتناهى ، أحد (٤) يستحسن الهم ولايريد إلا طرحه عن نفسه. فلما استقر فى نفسى هذا العلم الرفيع ، وانكشف لى هذا السر العجيب ، وأنار الله تعالى لفكرى هذا الكنز العظيم ، بحثت عن سبيل موصلة على الحقيقة إلى طرد الهمّ ، الذى هو المطلوب النفيس الذى اتفق جميع أنواع الإنسان الجاهل منهم والعالم والصالح والطالح على السعى له ، فلم أجدها إلا التوجه إلى الله عز وجل بالعمل للآخرة ؛ والا فإنما طلب المال طلابه ليطردوا به عن أنفسهم هم الفقر ، وإنما طلب الصوت من طلبه ليطرد به عن نفسه هم الاستعلاء عليها ، وإنما طلب اللذات من طلبها ليطرد بها عن نفسه هم فوتها ، وإنما طلب العلم من طلبه ليطرد به عن نفسه همّ الجهل ، وإنما هشّ إلى سماع الأخبار ومحادثة الناس من يطلب ذلك ليطرد بها عن نفسه هم التوحد

---

(١) زيادة من « م » . وفى الأصل بياض

(٢) فى م : بسعيهم .

(٣) فى م : يؤثر

(٤) فى الأصل : لأحد والتصحيح عن «م»

ومغيب أحوال العالم عنه ، وإنما أكل من أكل ، وشرب من شرب ، ونكح من نكح ، ولبس من لبس ، ولعب من لعب ، واكتنز من اكتنز ، وركب من ركب ، ومشى من مشى ، وتورع من تورع ، ليطردوا عن أنفسهم همّ أضداد هذه الأفعال . وسائر الهموم فى كل ما ذكرنا ـ لمن تدبره ـ هموم حادثة لا بد منها من عوارض تعرض فى خلالها ، وتعذر ما يتعذر منها ، وذهاب ما وجد منها ، والعجز عنه لبعض الآفات الكائنة ، وأيضاً سوء شحّ بالحصول على ما حصل عليه من كل ذلك : من خوف منافس ، أو طعن حاسد أو اختلاس راغب ، أو اقتناء عدو ، مع الذم والإثم وغير ذلك . ووجدت العمل للآخرة سالماً من كل عيب ، خالصاً من كل كدر ، موصلا إلى طرد الهمّ على الحقيقة ؛ ووجدت العامل للآخرة ، إن امتحن بمكروه فى تلك السبيل ، لم يهتم ، بل يسر ؛ إذ رجاؤه فى عاقبة ما ينال منه ، عون (١) له على ما يطلب وزائد فى الغرض الذى إياه يقصد ، ووجدته إن عاقه عما هو بسبيله عائق لم يهتم ، إذ ليس مؤاخذاً بذلك فهو غير مؤثر فيما يطلب . ووجدته إن قصد بالأذى سر ، وإن نكبته نكبة سر ، وإن تعب فيما سلك فيه سر ، فهو فى سرور متصل أبداً ، وغيره بخلاف ذلك أبداً .

فاعلم أنه مطلوب واحد : وهو طرد الهم ؛ وليس إليه ، إلا طريق واحد وهو العمل لله تعالى . فما عدا هذا فضلال وسخف .

٤ — لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها ، وليس ذلك إلا فى ذات الله عز وجل فى دعاء إلى حق ، وفى حماية الحريم ، وفى دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى ، وفى نصر مظلوم ، وباذل نفسه فى عرض دنيا كبائع الياقوت بالحصى .

٥ — لا مروءة لمن لا دين له .

---

(١) فى الأصل : دعوى

٦ — العاقل لا يرى لنفسه ثمناً إلا الجنة .

٧ — لا بليس فى ذم الرياء حِبَالة : وذلك أنه رُبَّ ممتنع من فعل خير خوف أن يُظَنّ به الرياء ، فإذا طَرَقَكَ منه هذا فامضِ على فعلك ، فهو شديد الألم عليه .

٨ — باب عظيم من أبواب العقل والراحة وهو : طرح المبالاة بكلام الناس ، واستعمال المبالاة بكلام الخالق عز وجل بل هو باب العقل كله والراحة كلها — من قدَّر أنه يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون . من حقق النظر وراض نفسه على السكوت على الحقائق ، وإن آلمته (١) فى أول صدمة كان اغتباطه بذم الناس إياه أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه . بل مدحهم إياه إن كان بحق ، وبلغه مدحهم له أسرى ذلك فيه العجب ، فأفسد بذلك فضائله . وإن كان بباطل ، فبلغه ، فَسُرَّ ، فقد صار مسروراً بالكذب . وهذا نقص شديد . وأما ذم الناس إياه ، فإن كان بحق ، فبلغه ، فربما كان ذلك سبباً إلى تجنبه ما يعاب عليه ، وهذا حظ عظيم لا يزهد فيه إلا ناقص . وإن كان بباطل ، فبلغه ، فصبر ، اكتسب فضلا زائداً بالحلم والصبر ، وكان مع ذلك غانماً ، لأنه يأخذ حسنات من ذمَّهُ بالباطل ، فيحظى بها فى دار الجزاء ، أحوجَ ما يكون إلى النجاة بأعمال لم يتعب فيها ولا تكلفها ، وهذا حظٌّ رفيع لا يزهد فيه إلا مجنون . وأما إن لم يبلغه مدح الناس فكلامهم وسكوتهم سواء ، وليس كذلك ذمهم إياه لأنه غانم للأجر ، على كل حال ، بلغه ذمهم أو لم يبلغه . ولولا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الثناء الحسن « ذلك عاجل بشرى المؤمن » لوجب أن يرغب العاقل فى الذم بالباطل أكثر من رغبته فى المدح بالحق ، ولكن إذا جاء هذا القول فإنما تكون البشرى بالحق لا بالباطل ، فإنما تجب البشرى بما فى المدح لا بنفس المدح .

---

(١) فى الأصل : ألمتها

٩ — ليس بين الفضائل والرذائل ، ولا بين الطاعات والمعاصى ، إلا نفار النفس وأنسها فقط . فالسعيد من أنست نفسه بالفضائل والطاعات ، ونفرت من الرذائل والمعاصى ، والشقى من أنست نفسه بالرذائل والمعاصى ونفرت عن الفضائل والطاعات . وليس ها هنا إلا صنع الله وحفظه .

١٠ — طالب الأجر فى الآخرة (١) متشبه بالملائكة ، وطالب الشر متشبه بالشياطين ، وطالب الصوت والغلبة متشبه بالسباع ، وطالب اللذات متشبه بالبهائم ، وطالب المال لِعَيْنِ المال — لا لنفقه فى الواجبات والنوافل المحمودة — أسقط وأرذل من أن يكون له فى شىء من الحيوان شبه ، ولكنه يشبه الغدران التى فى الكهوف فى المواضع الوعرة ، لا يَنْتَفِعُ بها شىء من الحيوان إلا ما قل من الطائر ، ثم تجفف الشمس والريح ما بقى منه ، كذلك يُجْتَاحُ المال الذى لا ينفق فى معروف .

١١ — العاقل لا يغتبط بصفة يفوقه فيها سبع أو بهيمة أو جماد ، وإنما يغتبط بتقدمه فى الفضيلة التى أبانه الله بها عن السباع والبهائم والجمادات ، وهى التميز الذى يشارك فيه الملائكة . فمن سر بشجاعته التى يضعها فى غير حقها (٢) لله تعالى فليعلم أن النمر أجرؤ منه ، وأن الأسد والذئب والفيل أشجع منه ، ومن سر بقوة جسمه فليعلم أن البغل والثور والفيل أقوى منه جسماً ، ومن سرَّ بحمله الأثقال فليعلم أن الحمار أحمل منه ، ومن سُر بسرعة عدوه فليعلم أن الكلب والأرنب أسرع عدواً منه ، ومن سُر بحسن صوته فليعلم أن كثيراً من الطير أحسن منه صوتاً ، وأن أصوات المزامير ألذ وأطرب من صوته ؛ فأى فخر أو أى سرور فيما تكون فيه هذه البهائم متقدمة له ؟ لكن من قَوِىَ تمييزه ، واتسع علمه وحسن عمله ، فليغتبط بذلك فإنه لا يتقدمه فى هذه الوجوه إلا الملائكة وخيار الناس .

---

(١) فى م : طالب الآخرة

(٢) فى م : موضعها

١٢ — قول الله تعالى « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » (١) ، جامعٌ لكل فضيلة . لأن نهى النفس عن الهوى هو ردعها عن الطبع الغضبى ، وعن الطبع الشهوانى ، لأن كليهما واقعٌ تحت موجب الهوى . فلم يبق إلا استعمال النفس للنطق الموضوع فيها ، الذى به بانَتْ عن البهائم والحشرات والسباع .

١٣ — قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للذى استوصاه « لا تغضب » وأمره عليه السلام : أن يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه ، جامعان لكل فضيلة لأن فى نهيه عن الغضب رَدْعَ النفس ذات القوة الغضبية عن هواها ، وفى أمره عليه السلام بأن يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه ردع النفوس عن القوة الشهوانية وجمعٌ لأزمّةِ العدلِ ، الذى هو فائدة النطق الموضوع فى النفس الناطقة .

٢ — فصل فى العلم

١٤ — لو لم يكن من فضل العلم إلا أن الجهال يهابونك ويحبونك وأن العلماء يحبونك ويكرمونك ، لكان ذلك سبباً إلى وجوب طلبه ، فكيف بسائر فضائله فى الدنيا والآخرة ؟ ولو لم يكن من نقص الجهل إلا أن صاحبه يحسد العلماء ويغبطه نظراؤه من الجهال ، لكان ذلك سبباً إلى وجوب الفرار منه فكيف بسائر رذائله فى الدنيا والآخرة .

١٥ — ولو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به إلا أنه يقطع المشتغل به عن الوساويس المضنية ، ومطارح الآمال التى لا تفيد غير الهم ، وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس ، لكان ذلك أعظم داع إليه . فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره ؟ ومن أقلها ما ذكرنا ، مما يحصل عليه طالب العلم . وفى مثله

---

(١) سورة النازعات : ٤٠ — ٤١

أتعب ضعفاء الملوك أنفسهم فتشاغلوا عما ذكرنا بالشطرنج والنرد والخمر والأغانى وركض الدواب فى طلب الصيد وسائر الفضول التى تعود بالمضرة فى الدنيا والآخرة ، وأما بفائدة فلا (١) .

١٦ — لو تدبر العالم فى مرور ساعاته ماذا كفاه العلم من الذل بتسلط الجهال ، ومن الهم بمغيب الحقائق عنه ، ومن الغبطة بما قد بان له وجهه من الأمور الخفية عن غيره ، لزاد حمداً لله عز وجل ، وغبطة بما لديه من العلم ، ورغبة فى المزيد منه .

١٧ — ومن شغل نفسه بأدنى العلوم وترك أعلاها ، وهو قادر عليه ، كان كزارع الذرة فى الأرض التى يجود فيها البر ، وكزارع الشعراء حيث يزكو النخل والزيتون .

١٨ — نشر العلم عند من ليس من أهـــله مفسد لهم كإطعام العسل والحلوى من به احتراق وحمّى ، وكتشميم المسك والعنبر لمن به صداع من احتدام الصفراء .

١٩ — الباخل بالعلم أ ْلوَمُ من الباخل بالمال ، لأن الباخل بالمال أشفَقَ من فناء ما بيده ، والباخل بالعلم بخل بما لا يفنى على النفقة ولا يفارقه مع البذل .

٢٠ — من مال بطبعه إلى علم ما — وإن كان أدنى من غيره — فلا يشغلها بسواه ، فيكون كغارس النارجيل بالأندلس وكغارس الزيتون بالهند ، وكل ذلك لا ينجب .

٢١ — أجلُّ العلوم ماقربك من خالقك تعالى ، وما أعانك على الوصول إلى رضاه .

---

(١) فى الأصل : فائدة

٢٢ — أنظر فى المال والحال والصحة إلى من دونك ، وانظر فى الدين والعلم والفضائل إلى من فوقك .

٢٣ — العلوم الغامضة كالدواء القوى ، يصلح الأجساد القوية ، ويهلك الأجساد الضعيفة ، وكذلك العلوم الغامضة تزيد العقل القوى جودة ، وتصفيه من كل آفة ، وتهلك ذا العقل الضعيف .

٢٤ — من الغوصِ على الجنون ما لو غاصه صاحبهُ على العقل لكان أحكم من الحسن البصرى ، وأفلاطون الأثينى ، وبزرجمهر الفارسى .

٢٥ — وقف العقل عند أنه لا ينفع ، أنه لم يؤيد بتوفيق فى الدين أو بِسَعْدٍ فى الدنيا .

٢٦ — وقف العلم عند الجهل بصفات البارى عز وجل .

٢٧ — لا آفة على العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيها ، وهم من غير أهلها ، فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون ، ويفسدون ويقدرون أنهم يصلحون .

٢٨ — من أراد خير الآخرة وحكمة الدنيا وعدل السيرة والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها ، واستحقاق الفضائل بأسرها فليقتد بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه ، أعاننا الله على الاقتداء به بمنّه ، آمين آمين .

٢٩ — غاظنى أهل الجهل مرتين من عمرى : إحداهما كلامهم فيما لا يحسنونه أيام جهلى ، والثانية بسكوتهم عن الكلام بحضرتى أيام علمى . فهم أبداً ساكتون عما ينفعهم ناطقون فيما يضرهم . وسرّنى أهل العلم مرتين من عمرى : إحداهما بتعليمى أيام جهلى ، والثانية بمذاكرتى أيام علمى .

٣٠ — من فضل العلم والزهد فى الدنيا أنهما لا يؤتيهما الله عز وجل إلا أهلهما ومستحقهما ، ومن نقص علوّ أحوال الدنيا من المال والصوت

أن أكثر ما يقعان فى غير أهلهما وفيمن لا يستحقهما ، ومن طَلَبَ الفضائلَ لم يُسَايَر إلا أهلها ولم يرافق فى تلك الطريق إلا أكرم صديق — أهل المواساة والبر والصدق وكرم العشرة والصبر والوفاء والأمانة والحلم وصفاء الضمائر وصحة المودة — ومن طلب الجاه والمال واللذات لم يساير إلا أمثال الكلاب الكلبة والثعالب الخلبة ، ولم يرافق فى تلك الطريق إلا كل عدو فى المعتقد ، خبيث الطبيعة .

٣١ — منفعة العلم فى استعمال الفضائل عظيمة وهو أنه يعلم حُسْنَ الفضائل ، فيأتيها — ولو فى الندرة — ويعلم قبح الرذائل ، فيتجنبها — ولو فى الندرة — ويسمع الثناء الحسن فيرغب فى مثله ، والثناء الردىء فينفر منه ، فعلى هذه المقدمات وجب أن يكون للعلم حصة فى كل فضيلة ، وللجهل حصة فى كل رذيلة ، ولا يأتى الفضائل من لم يتعلم العلم إلا صافى الطبع جداً . فاضل التركيب ، وهذه منزلة خص بها النبيون عليهم الصلاة والسلام ، لأن الله تعالى علمهم الخير كله دون أن يتعلموه من الناس .

٣ — فصل فى الأخلاق[١] والسير

٣٢ — احرص على أن توصف بسلامة الجانب ، وتَحَفَّظ من أن توصف بالدهاء فيكثر المتحفظون منك ، حتى ربما أضر ذلك بك ، وربما قتلك .

٣٣ — وطِّنْ نفسك على ما تكره ، يقلَّ هَمُّكَ إذا أتاك ، ولم تستضر بتوطينك أولا ، ويعظم سرورك ، ويتضاعف إذا أتاك ما تحب مما لم تكن قدَّرته .

٣٤ — إذا تكاثرت الهموم سقطت كلها .

٣٥ — الغادر يفى بالمحدود [والوافى يغدر بالمحدود] (٢) ، والسعيد كل السعيد فى دنياه من لم يضطره الزمان إلى اختبار الإخوان .

---

(١) فى الأصل : الاختلاف

(٢) زيادة من « م »

٣٦ — لا تفكر فيمن يؤذيك ، فإنك إن كنت مقبلا ، فهو هالك ، وسعدك يكفيك ، وإن كنت مدبرا فكل أحد يؤذيك .

٣٧ — طوبى لمن علم من عيوب نفسه أكثر مما يعلم الناس منها .

٣٨ — الصبر على الجفاء ينقسم ثلاثة أقسام : فصبر عن من يقدر عليك ولا تقدر عليه ؛ وصبر عن من تقدر عليه ولا يقدر عليك ، وصبر عن من لا تقدر عليه ، ولا يقدر عليك . فالأول ذل ومهانة وليس من الفضائل ، والرأى لمن خشى ما هو أشد مما يصبر عليه المتاركة والمباعدة . والثانى فضل وبر وهو الحلم على الحقيقة ، وهو الذى يوصف به الفضلاء ، والثالث ينقسم قسمين : إما أن يكون الجفاء ممن لم يقع منه إلا على سبيل الغلطة والوهلة ، ويعلم قبح ما أتى به ويندم عليه ، فالصبر عليه فضل وفرض وهو حلم على الحقيقة ، وأما ما من كان لا يدرى مقدار نفسه ويظن أن لها حقا يستطيل به ، فلا يندم على ما سلف منه ، فالصبر عنه ذل للصابر وإفساد للمصبور عليه لأنه يزيد استشراء ، والمعارضة له سخف ، والصواب إعلامه بأنه كان ممكناً أن ينتصر منه ، وأنه إنما ترك ذلك استرذالاً له فقط ، وصيانة عن مراجعته ، ولا يزاد على ذلك ، وأما جواب السفلة فليس جوابه إلا النكال وحده .

٣٩ — من جالس الناس لم يعدم هماً يؤلم نفسه ، وإثما (١) يندم عليه فى معاده ، وغيظاً ينضج كبده . وذلاً ينكس همته . فما الظن بعد بمن خالطهم وداخلهم ؟ والعز والراحة والسرور والسلامة فى الانفراد عنهم ، ولكن اجعلهم كالنار ، تدن بها ولا تخالطها ليلة .

٤٠ — لا تؤخر (٢) شيئاً من عمل عدل (٣) لأن تحققه ، بأن تُعجله اليوم (٤) — وإن قل — فإنَّ من قليل الأعمال يجتمع كثيرها ، وربما أعجز

---

(١) فى الأصل : وإنما

(٢) فى الأصل : لا تؤخر لاتحقرن

(٣) فى الأصل : عدلا

(٤) فى الأصل : بأن العجلة اليوم

أمرها عن ذلك فبطل الكل ، ولا تحقر شيئاً مما ترجو به تثقيل ميزانك يوم البعث أن تعجله الآن — وإن قلّ — فإنه يحط عنك كثيراً ، لو اجتمع لقذف بك فى النار .

٤١ — الوجع والفقر والنكبة والخوف لا يحس أذاها إلا من كان فيها ولا يعلمه من كان خارجاً عنها ، وفساد الرأى والعار والإثم لا يعلم قبحها إلا من كان خارجاً عنها ، وليس يراه من كان داخلاً فيها . الأمن والصحة والغنى لا يعرف حقها إلا من كان خارجاً عنها ، وليس يعرفه (١) من كان فيها ؛ وجودة الرأى والفضائل وعمل الآخرة لا يعرف فضلها إلا من كان من أهلها ، ولا يعرفه من لم يكن منها .

٤٢ — أول من يزهد فى الغادر من غدر له الغادر ، وأول من يمقت شاهد الزور من شهد له به ، وأول من تهون الزانية فى عينه فالذى يزنى بها .

٤٣ — ما رأينا شيئاً فسد وعاد إلى صحته إلا بعد لأى — أى بعد شدة — فكيف بدماغ يتوالى عليه فساد السكر كل ليلة ؟ وإن عقلاً زيّنَ لصاحبه تعجيل إفساده كل ليلة ، لعقل (٢) ينبغى أن يتهم .

٤٤ — قد ينحس العقل بتدبيره ، ولا يجوز أن يسعد الأحمق بتدبيره .

٤٥ — لا شىء أضرّ على السلطان من كثرة المتفرغين حواليه ، فالحازم يشغلهم بما لا يظلمهم فيه ، فإن لم يفعل شغلوه بما يظلمونه فيه .

٤٦ — مقرب أعدائه قاتل نفسه .

٤٧ — كثرة وقوع العين على الشخص تسهل أمره وتهوّنه .

٤٨ — التهويل بلزوم زىٍّ ما ، والاكفهرار وقلة الانبساط ، ستائر جعلها الجهال الذين مكنتهم (٣) الدنيا ، أمامَ جهلهم .

---

(١) فى م : وليس يعرف حقها

(٢) فى الاصل : العقل

(٣) فى الاصل : مكنهم

٤٩ — لا يغتر العاقل بصداقة حادثة أيام دولته فكل أحد صديقه يومئذ .

٥٠ — اجهد فى أن تستعين فى أمورك بمن يريد منها لنفسه مثل ماتريد لنفسك ولا تستعن فيها بمن حظه من غيرك كحظه منك .

٥١ — لا تجب عن كلام نقل إليك عن قائل حتى توقن أنه قاله ، فإن من نقل إليك كذباً ، رجع من عندك بحق .

٥٢ — ثق بالمتدين وإن كان على غير دينك ، ولا تثق بالمستخف وإن أظهر أنه على دينك ؛ من استخف بحرمات الله تعالى فلا تأمنه على شئ مما تشفق عليه .

٥٣ — وجدت المشاركين بأرواحهم أكثر من المشاركين بأموالهم وعلة ذلك طبيعة فى البشر ، إنما تأنس النفس بالنفس ، فأما الجسد فمستثقل مبروم به ودليل ذلك استعجال المرء بدفن جسد حبيبه إذا فارقته نفسه وأسفه لذهاب النفس وإن كانت الجثة حاضرة بين يديه .

٥٤ — لم أر لأبليس (١) أصيد ولا أقبح ولا أحمق من كلمتين ألقاهما على ألسنة دعاته : إحداهما إعتذار من أساء بأن فلاناً أساء قبله ، والثانية : استسهال الإنسان أن يسىء اليوم لأنه قد أساء أمس .

٥٥ — بذل الواجبات فرض ، وبذل ما فضل عن القوت جود ، والإيثار على النفس من القوت ، بما لا تهلك على عدمه ، فضل ، ومنع الواجبات حرام ، ومنع ما فضل عن القوت بخل وشح . والمنع من الايثار ببعض القوت منع ، ومنع النفس أو الأهل القوت أو بعضه نتن ورذالة ومعصية ، والسخاء بما ظَلَمْتَ فيه أو أخذته بغير حقه ، ظلم مكرر (٢) ، والذم جزاء ذلك لا الحمد ، لأنه إنما تبذل مال غيرك على الحقيقة لا مالك ، وإعطاء

---

(١) فى الاصل : إلا إبليس

(٢) فى «م» : مكروه

الناس حقوقهم مما عندك ليس جوداً ولكنه حق .

٥٦ — حدُّ الشجاعة بذل النفس للموت عن الدين أو الحريم ، وعن الجار المضطهد ، وعن المستجير المظلوم ، وعن الهضيمة ظلماً فى المال والعرض وسائر سبيل الحق ، — سواء قل من يعارض أو كثر — والصبر عن ما ذكرنا جبن وخور . وبذلها فى عَرَض الدنيا تهور وحمق ، وأحمق من ذلك من بذلها فى المنع عن الحقوق والواجبات — قبلك أو قبل غيرك — وأحمق من هؤلاء كلهم قوم شاهدتهم لا يدرون فيما يبذلون أنفسهم ، فتارة يقاتلون زيداً عن عمرو ، وتارة يقاتلون عمراً عن زيد ، ولعلَّ ذلك يكون فى يوم واحد فيتعرضون المهالك بلا معنى فيقتلون(١) إلى النار ، أو يفرون إلى العار ، وقد أنذر بهؤلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله « يأتى على الناس زمان لا يدرى القاتل فيم قتل ولا المقتول فيم قتل » .

٥٧ — حدُّ العفة أن تغض بصرك وجميع جوارحك عن الأجسام التى لا تحل لك ، فما عدا هذا فهو عهر ، وما نقص حتى تمسك عما أحلَّ الله تعالى فهو ضعف وعجز .

٥٨ — حدُّ العدل أن تعطى من نفسك الواجب وتأخذه ، وحدُّ الجور أن تأخذه ولا تعطيه .

٥٩ — وحد الكرم أن تعطى من نفسك الحق طائعاً ، وتتجافى عن حقك لغيرك قادراً وهو فضل أيضاً ، وكل جود كرم وفضل ، وليس كل كرم وفضل جوداً . فالفضل أعم والجود أخص ، إذ الحلم فضل وليس جوداً والفضل فرض زدت عليه نافلة .

٦٠ — إهمال ساعة يفسد رياضة سنة .

٦١ — خطأ الواحد خير فى تدبير الأمور من صواب الجماعة التى لا يجمعها

---

(١) فى «م» : فينقلبون

واحد ، لأن خطأ الواحد فى ذلك يستدرك ، وصواب الجماعة يضرّى على استدامة الإهمال ، وفى ذلك الهلاك .

٦٢ — سوء الظن يعده (١) قوم عيباً على الإطلاق ، وليس كذلك ، إلا إذا أدى صاحبه إلى مالا يحل فى الديانة أو إلى ما يقبح فى المعاملة ، وإلا فهو حزم ، والحزم فضيلة .

٦٣ — عيب بعضهم بإتلاف ماله فقال : إنى لا أضيع منه إلا ما كان فى حفظه نقص دينى ، أو إخلاق عرضى ، أو إتعاب نفسى ، فإنى أرى الذى أحفظ من هذه الثلاثة وإن قل ، أجل فى العوض مما يضيع من مالى ، ولو أنه كل ما دارت عليه الشمس .

٦٤ — أفضل نعم الله على العبد أن يطيعه على العدل وحبه ، وعلى الحق وإيثاره .

٦٥ — من عيب حب الذكر أنه يحبط الأعمال إذا أحب عاملها أن يذكر بها ، وكاد يكون شركا لأنه يعمل لغير الله عز وجل ، وهو يطمس الفضائل لأن صاحبه لا يكاد يفعل الخير حباً للخير لكن ليذكر به .

٦٦ — أبلغ فى ذمك من مدحك بما ليس فيك ، لأنه نبّه على نقصك ، وأبلغ فى مدحك من ذمك بما ليس فيك لأنه نبه على فضلك ، ولقد انتصر لك من نفسه بذلك ، وباستهدافه إلى الإنكار واللائمة .

٦٧ — لو علم الناقص نقصه لكان كاملا .

٦٨ — لا يخلو مخلوق من عيب ، فالسعيد من قلت عيوبه ودفنت .

٦٩ — أكثر ما يكون مالم نظن ، فالحزم هو التأهب لما نظن ، فسبحان مرتب (٢) ذلك ليرى الإنسان عجزه وافتقاره إلى خالقه .

---

(١) فى الاصل : بعد

(٢) فى «م» : من رتب

٤ — فصل فى الإخوان والصداقة والنصيحة

٧٠ — — استبقاك من عاتبك ، وزهد فيك من استهان بشأنك .

٧١ — العتاب للصديق كالسبك للسبيكة ، فإما تصفو وإما تطير .

٧٢ — من طوى من إخوانك سره الذى يعنيك دونك أخون لك ممن أفشى سرك ، لأن من أفشى سرك فإنما خانك فقط ، ومن طوى سره دونك منهم فقد خانك واستخونك .

٧٣ — لا ترغب فيمن يزهد فيك فتحصل على الخيبة والخزى .

٧٤ — لا تزهد فيمن يرغب فيك فإنه باب من أبواب الظلم وترك مقارضة الإحسان ، وهذا قبيح .

٧٥ — من امتحن بأن يخالط الناس فلا يكون (١) توهمه كله إلى من صحب ، ولا يبيت (٢) منه إلا على أنه عدو مناصب ، ولا يصبح كل غداة إلا وهو مترقب من غدر إخوانه وسوء معاملتهم مثل ما يترقب من العدو المكاشف ؛ فإن سلم من ذلك فللّٰه الحمد ؛ وإن كانت الأخرى ؛ ألفى متأهبا ولم يمت هماً . فلا تستعمل مع هذا سوء المعاملة فتلحق بذوى الشرارة من الناس وأهل الخب منهم ؛ ولكن ها هنا طريق وعرة المسلك ، شاقة المتكلف ، يحتاج سالكها الى أن يكون أهدى من القطا وأحذر من العقعق حتى يفارق الناس راحلا إلى ربه . وهذه الطريق هى طريق الفوز فى الدين والدنيا ، وهى : أن تكتم سر كل من وثق بك وأن لا تفشى الى أحد من إخوانك ولا من غيرهم من سرك ما يمكنك طيه بوجه ما من الوجوه ، وإن كان أخصّ الناس بك ؛ وأن تنى لجميع من ائتمنك . ولا تأتمن أحداً على شىء من أمرك تشفق عليه إلا عن ضرورة لابد منها . فاردد حينئذ واجتهد وعلى الله تعالى الكفاية ،

---

(١) فى «م» : فلا يلق

(٢) فى الاصل : يبين

وابذل فضل مالك وجاهك لمن سألك أو لم يسألك ولكل من احتاج إليك وأمكنك نفعه ، وان لم يعمدك بالرغبة . ولا تشعر نفسك انتظار مقارضة على ذلك من غير ربك عز وجل . ولا تبت إلا على أن أول من أحسنت إليه أول مضرّ بك وساع (١) عليك فإن ذوى التراكيب الخبيثة يبغضون — لشدة الحسد — كلّ من أحسن إليهم إذا رأوه فى أعلى من أحوالهم . وعامل كل أحد فى الأنس أجمل معاملة ، وأضمر السلو عنه إن حلت بعض الآفات التى تأتى مع مرور الأيام والليالى ، تعش سالماً مستريحاً .

٧٦ — لا تنصح على شرط القبول ، ولا تشفع على شرط الإجابة . ولا تهب على شرط الإثابة . لكن على سبيل استعمال الفضل وتأدية ما عليك من النصيحة والشفاعة وبذل المعروف .

٧٧ — حد الصداقة الذى يدور على طرفى محدوده هو أن يكون المرء يسوءه ما ساء الآخر ، ويسره ماسره ؛ فما سفل عن هذا فليس صديقاً ومن حمل هذه الصفة فهو صديق .

وقد يكون المرء صديقا لمن ليس صديقه ، وإنما الذى يدخل فى باب الإضافة فهو المصادق ، فهذا يقتضى فعلا من فاعلين ، إذ قد يحب الإنسان من يبغضه ، وأكثر ذلك فى الآباء مع الأبناء ، وفى الإخوة مع إخوتهم ، وبين الأزواج وفيمن صارت محبته عشقاً ، وليس كل صديق ناصحاً ، لكن كل ناصح صديق فيما نَصَحَ فيه .

٧٨ — [حدّ (٢)] النصيحة هو أن يسر المرء ما ضرّ الآخر — ساء ذلك أم سره — وأن يسره ما نفعه من الآخر أو ساءه ، فهذا شرط فى النصيحة

---

(١) فى الأصل : وتسارع

(٢) زيادة من «م»

زائد على شرط الصداقة . وأقصى غايات الصداقة التى لا مزيد عليها من شاركك بنفسه وماله بغير علة توجب ذلك ، وآثرك على من سواك .

ولو لا أنى شاهدت مظفراً ومباركا صاحبى بلنسية ، لقدرت أن هذا الخلق معدوم فى زماننا ولكنى ما رأيت قط رجلين استوفيا جميع أسباب الصداقة ، مع تأتى الأحوال الموجبة للفرقة ، غيرهما .

٧٩ — ليس شىء من الفضائل أشبه بالرذائل من الاستكثار من الإخوان والأصدقاء ، فإن ذلك فضيلة تامة مركبة ، لأنهم لا يكسبون إلا بالحلم والجود ، والصبر والوفاء ، والاستطلاع والمشاركة والعفة وحسن الدفاع وتعليم العلم وبكل حالة محموده . ولسنا نعنى الشاكرية (١) والأتباع أيام الدنيا لانحرافهم عند انحراف الدنيا ، ولا نعنى المصادقين لبعض الأطماع ، ولا المتنادمين على الخمر والمجتمعين على المعاصى والقبائح ونيل أعراض الناس والفضول وما لا فائدة فيه ، فليس هؤلاء أصدقاء — لنيل بعضهم من بعض وانحرافهم عند فقد تلك الرذائل التى جمعتهم — وإنما نعنى إخوان الصفاء لغير معنى إلا الله عز وجل ، وإذا حصلت عيوب الاستكثار منهم وما يلزمك من الحق لهم عند نكبة تعرض : إما بموت أو فراق أو غدر من يغدر منهم ، كان السرور بهم لا يفى بالحزن الممض من أجلهم ، وليس فى الرذائل شىء أشبه بالفضائل من محبة المدح ، لأنه فى الوجه سخف ممن يرضى به ، إلا أنه قد ينتفع به فى الإقصار عن الشر والتزيد من الخير ، وفى أن يرغب فى ذلك الخلق الممدوح ممن سمعه .

ولقد صحّ عندى أن بعض السائسين للدنيا لقى رجلا من أهل الأذى للناس وقد قلده بعض الأعمال الخبيثة ، فقابله بالثناء وبأنه قد يسمع شكره مستفيضا ، ووصفه بالجميل والرفق منتشراً ، فكان ذلك سبباً إلى إقصار ذلك الفاسق عن كثير من شره .

٨٠ — بعض أنواع النصيحة بشكل تميزه من النميمة ، لأن من سمع

(١) الشاكرى : الأجير قيل إنه معرب جاكر ؛ وقال ادى شير إنه معرب شاكر ومعناه السخرى .

إنساناً يذم آخر ، ظالماً له ، أو يكيده ؛ ظالماً له ، فكتم ذلك عن المقول فيه والمكيد، كان الكاتم لذلك ظالماً مذموماً ، ثم إن أعلمه بذلك على وجهه كان ربما وقد ولد [العداوة] (١) على الدوام — والكائد لم (٢) يبلغ استحقاقه بعد من الأذى — فيكون ظالماً له ، وليس من الحق أن يقتص من الظالم بأكثر من قدر ظلمه ، والتخلص فى هذا الباب صعب ، إلا على ذوى العقول ، والرأى للعاقل فى مثل هذا أن يحفظ المقول فيه من القائل فقط دون أن يبلغه ماقال لئلا يقع فى الإسترسال إليه فيهلك . وأما فى الكيد فواجب أن يحفظ من الوجه الذى يكاد منه بألطف مايقدر فى الكتمان على الكائد ، وأبلغ مايقدر من تحفيظ المكيد ؛ ولا يزد على هذا ، وأما النميمة فهى التبليغ لما سمع بما لا ضرر فيه على المبلغ إليه ، وبالله تعالى التوفيق .

٨١ — النصيحة مرتان فالأولى فرض وديانة ، والثانية تنبيه وتذكير ، وأما الثالثة فتوبيخ وتقريع وليس وراء ذلك إلى الركل واللطام (٣) وربما أشد من ذلك من البغى (٤) والأذى اللهم إلا فى معانى الديانة فواجب على المرء ترداد النصح فيها — رضى المنصوح أو سخط تأذّى الناصح بذلك أو لم يتأذ .

٨٢ — إذا نصحت فانصح سراً لا جهراً ، أو بتعريض لا بتصريح إلا لمن لا يفهم فلا بدّ من التصريح له (٥) .

٨٣ — لا تنصح على شرط القبول منك ، فإن تعديت هذه الوجوه فأنت ظالم لا ناصح ، وطالب طاعة (٦) لا مؤدى حق ديانة وأخوة . وليس هذا حكم العقل ولا حكم الصداقة ولكن حكم الأمير مع رعيته والسيد مع عبيده .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .
(٢) فى الأصل : ما لم
(٣) فى «م» : اللكام
(٤) فى الأصل : التعنى ؛ والتصحيح عن «م»
(٥) فى «م» : إلا أن لا يفهم المنصوح تعريضاً
(٦) زاد فى «م» لفظه «وملك» بعد كلمه طاعة

٨٤ — لا تكلف صديقك إلا مثل ما تبذل له من نفسك فإن طلبت أكثر فأنت ظالم .

٨٥ — لا تكسب إلا على شرط الفقد ؛ ولا تتولَّ إلا على الشرط العزلة (١) وإلا فأنت مضر بنفسك ، خبيث السيرة .

٨٦ — مسامحة أهل الاستئثار والاستغناء ، والتغافل لهم ، ليس مروءة ولا فضيلة ، بل هو مهانة وضعف وتضرية لهم على التمادى على ذلك الخلق المذموم وتغبيط لهم به وعون على ذلك الفعل السوء وإنما تكون المسامحة مروءة لأهل الإنصاف والمبادرين إلى (٢) المسامحة والإيثار فهؤلاء فرض على أهل الفضل أن يعاملوهم بمثل ذلك ، لا سيما إن كانت حاجتهم أمسَّ ، وضرورتهم أشدَّ ، فإن قال قائل : فإذا كان كلامك هذا موجباً لإسقاط المسامحة والتغافل للإخوان ، فقد استوى الصديق ، والعدو ، والأجنبى ، فى المعاملة ، وهذا إفساد ظاهر فنقول وبالله تعالى التوفيق : كلا مانحض إلا على المسامحة والإيثار والتغافل ـ ليس لأهل التغنُّم ـ لكن للصديق حقاً . فإن أردت معرفة وجه العمل فى هذا ، والوقوف على نهج الحق فإن القضية (٣) التى توجب الأثرة من المرء (٤) على صديقه ، ينبغى لكل واحدٍ من الصديقين أن يتأمل ذلك النازل : فأيهما كان أمسَّ حاجةً فيه وأظهر ضرورة لديه فحكم الصداقة والمروءة يقتضى للآخر ويوجب عليه أن يؤثر على نفسه من ذلك . فإن لم يفعل فهو متغنِّم (٥) مستكثر لا ينبغى أن يسامح البتة ؛ إذ ليس صديقاً ولا خلا . فأما إذا استوت حاجتهما واتفقت

---

(١) فى م : العزل

(٢) فى الأصل : المبادرين لأهل المسامحة والتصويب عن «م»

(٣) فى الأصل : القصة

(٤) فى الأصل : الأمر

(٥) فى الأصل : معتم والتصحيح عن «م»

ضرورتهما ، فحق الصداقة هاهنا أن يسارع كل واحد منهما إلى الأثرة على نفسه فإن فعلا ذلك فهما صديقان ، وإن بدر أحدهما إلى ذلك ، ولم يبادر الآخر إليه ، فإن كانت عادته هذه ، فليس صديقاً ولا ينبغى أن يعامل معاملة الصداقة ، وإن كان قد تبادر هو أيضاً إلى مثل ذلك فى قضية أخرى فهما صديقان .

٨٧ — من أردت قضاء حاجته بعد أن سألك إياها ، وأردت ابتداءه بقضائها فلا تعمل له إلا ما يريد هو ، لا ما تريد أنت : وإلا فأمسك ، فإن تعديت هذا كنت مسيئا لا محسناً ومستحقاً للوم منه ومن غيره لا للشكر ؛ ومقتضياً للعداوة لا للصداقة .

٨٨ — لا تنقل إلى صديقك ما يؤلم نفسه ولا ينتفع بمعرفته ، فهذا فعل الأراذل (١) ولا تكتمه ما يستضر بجهله فهذا فعل أهل الشر .

٨٩ — لا يسرك أن تمدح بما ليس فيك بل ليعظم (٢) غمك بذلك ، لأنه نقصك ينبه الناس عليه ويسمع إياه ، وسخرية منك وهزء بك ، ولا يرضى بهذا إلا أحمق ضعيف العقل ، ولا تأس إن ذممت بما ليس فيك بل افرح به فإنه فضلك ينبه الناس عليه . لكن إفرح إذا كان فيك ماتستحق به المدح — وسواء مدحت به أو لم تمدح — واحزن إذا كان فيك ماتستحق به الذم ، وسواء ذممت به أو لم تذم .

٩٠ — من سمع قائلا يقول فى امرأة صديقه قول سوء فلا يخبره بذلك أصلا ، لا سيما إن كان القائل عيابة وقاعة فى الناس سليط اللسان أو دافع معرّة (٣) عن نفسه يريد أن يكثر أمثاله فى الناس ، وهذا كثير موجود ،

---

(١) فى الأصل : الإدراك

(٢) فى الأصل : لتعظيم .

(٣) فى م : مغرم

وبالجملة فلا تحدث الناس إلا بالحق ، وقول هذا القائل لا يدرى أحق هو أم باطل ، إلا أنه فى الديانة عظيم. فإن سمع القول مستفيضاً من جماعة وعلم أن أصل ذلك القول شائع ، وليس راجعا إلى قول إنسان واحد ، أو اطلع إلى حقيقة إلا أنه لا يقدر يوقف صديقه على ما وقف هو عليه ، فليخبره بذلك بينه وبينه فى رفق . وليقل له : النساء كثير ، أو حصِّن منزلك ، وثقف أهلك واجتنب أمر كذا ، وتحفظ من وجه كذا ، فإن قبل المنصوح وتحرز ، فحظّ نفسه أصاب ، وإن رآه لا يتحفظ ولا يبالى أمسك ولم يعاوده بكلمة ، وتمادى على صداقته إياه ، فليس فى أن لا يصدقه فى قوله ما يوجب قطيعته فإن اطلع على [حقيقة] وقدر أن يوقف صديقه على مثل (١) ما وقف هو عليه من الحقيقة ففرض عليه أن يخبره بذلك وأن يوقفه على الجلية ، فإن غير فذلك ، وإن رآه لا يغير (٢) ، فليجتنب صحبته ، فإن رذل لا خير فيه ولا بقية . ودخول رجل مستتر فى منزل المرء دليل سوء لا يحتاج إلى غيره ودخول المرأة فى منزل رجل على سبيل التستر مثل ذلك أيضاً . وطلب دليل أكثر من هذين سخف . وواجب أن يجتنب مثل هذه المرأة . وفراقها على كل حال وممسكها لا يبعد عن الديانة .

٩١ — الناس فى بعض أخلاقهم على سبع مراتب : فطائفة تمدح فى الوجه وتذم فى المغيب ، وهذه صفة أهل النفاق والعيابين ، وهذا خلق فاش فى الناس غالب عليهم . وطائفة تذم فى المشهد والمغيب ، وهذه صفة أهل السلاطة والوقاحة من العيابين . وطائفة تمدح فى الوجه والمغيب ، وهذه صفة أهل الملق والطمع . وطائفة تذم فى المشهد وتمدح فى المغيب ، وهذه صفة السخف والنواكه . وأما أهل الفضل فيمسكون عن المدح والذم فى المشاهد ويثنون بالخير فى المغيب أو يمسكون عن الذم . وأما العيابون البراء من النفاق والقحة

---

(١) فى م : جل

(٢) فى الأصل : يتغير

فيمسكون فى المشهد ويذمون فى المغيب . وأما أهل السلامة فيمسكون عن المدح وعن الذم فى المشهد والمغيب . ومن كل هـذه الصفات قد شاهدنا وبلونا .

٩٢ — إذا نصحت فى الخلاء وبكلام لين ولا تسند سب من تحدثه إلى غيرك فتكون نمّاماً . فإن خشنت كلامك فى النصيحة فذلك إغراء وتنفير وقد قال الله تعالى « فقولا له قولا ليناً » (١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تنفر » وإن نصحت بشرط القبول منك فأنت ظالم ولعلك تخطىء فى وجه نصحك فتكون مطالبا بقبول أخطائك وبترك الصواب .

٩٢ — لكل شىء فائدة ، ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل (٢) منفعة عظيمة وهى أنه تَوَقَّدَ طبعى ، واحتدم خاطرى ، وَحَمِى فكرى ، وتهيج نشاطى ، فكان ذلك سببا إلى تواليف لى عظيمة المنفعة . ولولا استثارتهم ساكنى واقتداحهم كامنى ، ما انبعثت لتلك التواليف .

٩٤ — لا تصاهر إلى صديق ولا تبايعه ، فما رأينا هذين العلمين إلا سببا للقطيعة ، وإن ظن أهل الجهل أن فيهما تأكيداً للصلة فليس كذلك لأن هذين العقدين داعيان كلّ واحد إلى طلب حظّ نفسه . والمؤثرون على أنفسهم قليل جداً ، فإذا اجتمع طلب كل امرىء حظ نفسه ، وقعت المنازعة . ومع وقوعها فساد المودة . وأسلم المصاهرة مغبة مصاهرة الأهلين بعضهم بعضا لأن القرابة تقتضى الصبر وإن كرهوه ، لأنهم مضطرون إلى مالا انفكاك لهم منه من الاجتماع فى النسب الذى توجب الطبيعة لكل أحد ، الذب عنه والحماية له .

---

(١) القرآن الكريم ٢٠ : ٤٤

(٢) المحك : المنازعة فى الكلام والتمادى فى اللجاجة ، والإغضاب .

٥ — فصل فى أنواع المحبة

وقد سئلت عن تحقيق القول فيها وفى أنواعها

٩٥ — المحبة كلها جنس واحد . ورسمها أنها الرغبة فى المحبوب وكراهة منافرته والرغبة فى المعارضة منه بالمحبة . وإنما قدَّر الناس أنها تختلف من أجل اختلاف الأغراض فيها، وإنما اختلفت الأغراض من أجل اختلاف الأطماع وتزايدها وضعفها وانحسامها . فتكون المحبة لله عز وجل وفيه ، وللاتفاق على بعض المطالب ، وللأب وللابن والقرابة والصديق والسلطان ولذات الفراش والمحسن والمأمول والمعشوق ، فهذا كله جنس واحد اختلفت أنواعه — كما وصفت لك — على قدر الطمع فيما ينال . فلذلك اختلفت وجوه المحبة ، وقد رأينا من مات على ولده ، كما يموت العاشق أسفاً على معشوقه ، وبلغنا عن من شهق خوف الله تعالى ومحبته فمات ، ونرى المرء يغار على سلطانه وعلى صديقه كما يغار على ذات فراشه ، وكما يغار العاشق على معشوقه ، فأدنى أطماع المحبة ممن تحب ، الحظوة منه والرفعة لديه ، والزلفة عنده إذا لم تطمع فى أكثر ، وهذه غاية أطماع المحبين لله تعالى . ثم يزيد الطمع فى المجالسة ثم فى المحادثة والمؤازرة . وهذه أطماع المرء فى سلطانه وصديقه وذوى رحمه . وأقصى أطماع المحب ممن يحب ، المخالطة بالأعضاء إذا رجا ذلك ، ولذلك نجد المحب المفرط المحبة فى ذات فراشه يرغب مجامعتها على هيئات شتى ، فى أماكن مختلفة ليستكثر من الاتصال . ويدخل فى هذا الباب الملامسة بالجسد والتقبيل ؛ وقد يقع بعض هذا الطمع فى الأب ، فى ولده ، فيتعدى إلى التقبيل والتعنيق . وكل ماذكرنا إنما هو على قدر الطمع فإذا انحسم الطمع عن شىء ما لبعض الأسباب الموجبة له ، مالت النفس إلى ما تطمع فيه . ونجد المقرّ بالرؤية لله عز وجل ، شديد الحنين إليها ، عظيم التروُّح (١) نحوها ، لا يقنع بدرجة دونها ، لأنه يطمع فيها . ونجد المنكر

(١) التروح : السير والذهاب ، ولعلها تقرأ : النزوع

لها لا تحن نفسه إلى ذلك ولا تتمناه أصـــلا . لأنه لا يطمع فيه ، ونجده يقتصر على الرضى والحلول فى دار الكرامة فقط ، لأنه لا تطمع نفسه فى أكثر . ونجد المستحل لنكاح القرائب لا يقنع منهن بما يقنع المحرّم لذلك ولا تقف محبته حيث تقف محبة من لا يطمع فى ذلك ؛ فنجـــد من يستحل نكاح ابنته وابنة أخيه كالمجوس واليهود لا يقف عن محبتها حيث يقف المسلم بل نجدهما يتعشقان الابنة وابنة الأخ كتعشق المسلم من يطمع فى مخالطته بالجماع ، ولا نجد مسلماً يبلغ ذلك فيهما ولو أنهما أجمل من الشمس وكان هو أعهر الناس وأغزلهم . فإن وجد ذلك فى الندرة ، فلا تجده إلا من فاسد الدين قد زال عنه ذلك الرادع فانفسح له الأمل ، وانفتح له باب الطمع . ولا يؤمن من المسلم أن تفرط محبته لابنة عمه لحـّاً(١) ، حتى تصير عشقا ، وحتى تتجاوز محبته لها محبته لابنته وابنة أخيه ، وإن كانتا أجمل منها لأنه يطمع من الوصول إلى ابنة عمه حيث لا يطمع من الوصول إلى ابنته وابنة أخيه ، ونجد النصرانى قد أمن ذلك من نفسه فى ابنة عمه أيضاً ، لأنه لا يطمع منها فى ذلك ولا يأمن ذلك من نفسه فى أخته من الرضاعة ، لأنه طـامع بها فى شرعته(٢) .

فلاح بهذا عيانا ما ذكرنا أن المحبة كلها جنس واحد لكنها تختلف أنواعها على قدر اختلاف الأغراض فيها . وإلا فطبائع البشر كلهم واحدة إلا أن للعادة والاعتقاد الديانى تأثيراً ظاهراً . ولسنا نقول إن الطمع له تأثير فى هذا الفن وحده ، لكنا نقول إن الطمع سبب إلى كل هم ، حتى فى الأموال والأحوال فإنا نجد الإنسان يموت جاره وخاله وصديقه وابن عمته وعمه لأم وابن أخيه لأم ، وجده أبو أمه وابن ابنته ، فإذا لا مطمع له فى ماله ارتفع عنه أهم بفَوْتِه عن يده ، وأن جل خطره ، وعظم مقداره ، فلا سبيل إلى أن يمر الاهتمام بشىء منه بباله ، حتى إذا مات له عصبة على بعد ، أو مولى على بعد ، حدث له الطمع فى ماله ، وحدث له من الهم والأسف والغيظ والفكرة

---

(١) لحـّاً : لاصق النسب (٢) فى « م » : شريعته .

بفوت اليسير منه عن يده أمر عظيم . وهكذا فى الأحوال : فنجد الإنسان من أهل الطبقة المتأخرة ، لا يهتم لانفاذ غيره أمور بلده دون أمره ، ولا لتقريب غيره وإبعاده ، حتى إذ حدث به طمع فى هذه المرتبة ، حدث له من الهم والفكر والغيظ أمر ربما قاده إلى تلف نفسه وتلف دنياه وأخراه . فالطمع أصل كل ذلّ وكل همّ (١) ، وهو خلق سوء ذميم . وضده نزاهة النفس ، وهذه صفة فاضلة متركبة من النجدة والجود والعدل والفهم لأنه فَهِم (٢) قلة الفائدة فى استعمال ضدها فاستعملها ، وكانت فيه نجدة أنتجت له عزة نفسه فتنزّه ، وكانت فيه طبيعة سخاوة نفس فلم يهتم لما فاته . وكانت فيه طبيعة عدل حببت إليه القنوع وقلة الطمع . فإذا نزاهة النفس متركبة من هذه الصفات . فالطمع الذى هو ضدها متركب من الصفات المضادة لهذه الأربع الصفات وهى : الجُبْنُ والشح والجور والجهل . والرغبة طمع مستوفى متزايد مُتَعَمَّد . ولولا الطمع ما ذلّ أحد لأحد . وأخبرنى أبو بكر بن [أبى] (٣) الفياض قال : كتب عثمان بن محامس (٤) على باب داره بإستجة : يا عثمان لا تطمع .

فصول من هذا الباب

٩٦ — من امتحن بقرب من يكره كمن امتحن ببعد من يحب ، ولا فرق .

٩٧ — إذا دعا المحب فى السلو فإجابته مضمونة ، وهى دعوة مجابة .

---

(١) فى الأصل : أصل كل ذل وهم ولكل هم .

(٢) فى «م» : رأى .

(٣) زيارة من الجذوة ص : ٢٨٨

(٤) فى الأصل : محاسن ، والتصحيح عن الجذوة رقم : ٧٠٥ وكان زاهدا عالماً مشهوراً بالعزوف عن الدنيا كما ذكره الحميدى ثم روى العبارة المروية هنا نقلا عن ابن حزم . وإستجة اسم لكورة بالأندلس متصلة بأعمال رية ، متسعة الأراضى على نهر سنجل ، وكانت أعمالها متصلة بأعمال قرطبة . وانظر الروض المعطار ص : ١٤

٩٨ — اقنع بمن عندك يقنع بك من عندك .

٩٩ — السعيد فى المحبة هو من ابتلى بمن يقدر أن يلقى عليه تَعِلَّةً ولا تلحقه من مواصلته تبعة من الله تعالى ، ولا ملامة من الناس . صلاح ذلك أن يتوافقا فى المحبة وتحديده (١) أن يكونا خاليين من الملل فإنه خلق سوء منغص (٢) ، وتمامه نوم الأيام عنهما مدة انتفاع بعضهما ببعض ، وأنّى بذلك إلا فى الجنة . وأما ضمانه بيقين فليس إلا فيها ، فهى دار القرار . وإلا فلو حصل ذلك كله فى الدنيا لم يؤمن الفجائع والقطع والهرم دون استيفاء اللذة .

١٠٠ — إذا ارتفعت الغيرة فأيقن بارتفاع المحبة .

١٠١ — الغيرة خلق فاضل متركب من النجدة والعدل ، لأن من عدل كره أن يتعدى إلى حرمة غيره وأن يتعدى غيره إلى حرمته . ومن كانت النجدة له طبعاً حدثت فيه عزة ، ومن العزة تحدث الأنفة من الاهتضام .

١٠٢ — أخبرنى بعض من صحبناه فى الدهر عن نفسه أنه ما عرف الغيرة قط حتى ابتلى بالمحبة . فغار ، وكان هذا المخبر فاسد الطبع خبيث التركيب إلا أنه [كان] (٣) من أهل الفهم والجود .

١٠٣ — درج المحبة خمسة : أولها الإستحسان ، وهو أن يتمثل الناظر صورة المنظور إليه حسنة أو يستحسن أخلاقه ، وهذا يدخل فى باب التصادق . ثم الاعجاب وهو رغبة الناظر فى المنظور إليه فى قربه ، ثم الألفة وهى الوحشة إليه متى غاب ، ثم الكلف وهو غلبة شغل البال به ، وهذا النوع

---

(١) فى «م» : وتحريره

(٢) فى «م» : مبغض

(٣) زيادة من «م»

يسمى فى باب الغزل بالعشق ، ثم الشغف وهو امتناع النوم والأكل والشرب إلا اليسير من ذلك ، وربما أدى ذلك إلى المرض أو إلى التوسوس أو إلى الموت ، وليس وراء هذا منزلة فى تناهى المحبة أصلا .

١٠٤ — كنا (١) نظن أن العشق فى ذوات الحركة والحدة من النساء أكثر فوجدنا الأمر بخلاف ذلك . وهو فى الساكنة الحركات أكثر ما لم يكن ذلك السكون بلهاً .

٦ — فصل فى أنواع صباحة (٢) الصور

وقد سئلت عن تحقيق الكلام فيها

١٠٥ — الحلاوة دقة المحاسن ولطف الحركات وخفة الاشارات وقبول النفس لأعراض الصورة وإن لم يكن هناك صفات ظاهرة .

١٠٦ — القوام جمال كل صفة على حدتها ، ورب جميل الصفات على انفراد كل صفة منها ، بارد الطلعة غير مليح ولا حسن ولا رائع ولا حلو .

١٠٧ — الروعة بهاء الأعضاء الظاهرة [مع جمال فيها] (٣) وهى أيضاً الفراهة والعتق .

١٠٨ — الحسن هو شىء ليس له فى اللغة اسم يعبر به غيره (٤) ولكنه محسوس فى النفوس باتفاق من رآه ، وهو برد مكسو على الوجه ، وإشراق يستميل القلوب نحوه ، فتجتمع الآراء على استحسانه ، وإن لم يكن هنالك صفات جميلة ، فكل من رآه راقه واستحسنه وقبله ، حتى إذا تأملت الصفات أفراداً ، لم ترَ طائلا ، وكأنه شىء فى نفس المرء تجده نفس الرائى . وهذه أجل مراتب الصباحة ، ثم تختلف الأهواء بعدها ، فمن مفضل للروعة ، ومن

---

(١) ورد قبل هذه الكلمة كلمة «فصل» ولا لزوم لها

(٢) فى الأصل : صاحبة

(٣) زيادة من «م»

(٤) فى «م» : عنه

مفضل للحلاوة ، وما وجدنا أحداً قط يفضل القوام المفرد .

١٠٩ — الملاحة اجتماع شيء بشيء مما ذكرنا .

٧ — فصل فيما يتعامل به الناس فى الأخلاق

١١٠ — التلون المذموم هو التنقل من زى متكلف لا معنى له إلى زى آخر مثله فى التكلف ، وفى أنه لا معنى له ، ومن حال لا معنى لها [إلى حال لا معنى لها] (١) بلا سبب يوجب ذلك . فأما من استعمل من الزى ما أمكنه مما به إليه حاجة وترك التزيد مما لا يحتاج إليه ، فهذا عين من عيون العقل والحكمة كبير ؛ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القدوة فى كل خير ، والذى أثنى الله تعالى على خلقه والذى جمع الله تعالى فيه أشتات الفضائل بتمامها ، وأبعده عن كل نقص ، يعود المريض مع أصحابه راجلا فى أقصى المدينة بلا خف ولا نعل ولا قلنسوة ولا عمامة ، ويلبس الشعر إذا حضره ، ويلبس الوشى من الحبرات إذا حضره ، لا يتكلف إلا ما لا يحتاج إليه ، ولا يترك مايحتاج إليه ويستغنى بما وجد عما لا يجد ، ومرة يمشى حافياً راجلا ، ومرة يمشى بالخف ، ويركب البغلة الرائعة الشهباء ؛ ومرة يركب الفرس عرياً ؛ ومرة يركب الناقة ، ومرة [يركب] (٢) حماراً ؛ ويردف عليه بعض أصحابه ، ومرة يأكل التمر دون خبز ، والخبز يابساً ، ومرة يأكل العناق المشوية ، والبطيخ بالرطب والحلوى — يأخذ القوت ، ويبذل الفضل ويترك مالا يحتاج إليه ، ولا يتكلف فوق مقدار الحاجة إليه ولا يغضب لنفسه ، ولا يدع الغضب لربه عز وجل .

١١١ — الثبات الذى هو صحة العقد ، والثبات الذى هو اللجاج مشتبهان

---

(١) زيادة من «م»

(٢) زيادة من «م»

اشتباها لا يفرق بينهما إلا عارف بكيفية الأخلاق . والفرق بينهما أن اللجاج هو ما كان على الباطل ، أو ما فعله الفاعل نظراً لما نشب فيه وقد لاح له فساده ، أو لم يَلُحْ له صوابه ولا فساده ، وهذا مذموم ، وضده الانصاف . وأما الثبات الذى هو صحة العقد فإنما يكون على الحق ، أو على ما اعتقده المرء حقا ما لم يلح له باطله . وهذا محمود وضده الاضطراب . وإنما يلام [على] بعض هذين لأنه ضيع تدبير ما ثبت عليه وترك البحث عما التزم ، أحق هو أم باطل .

١١٢ — حدُّ العقل : استعمال الطاعات والفضائل ، وهذا الحد ينطوى فيه اجتناب المعاصى والرذائل . وقد نص الله تعالى فى غير موضع من كتابه على أن من عصاه لا يعقل . قال تعالى حاكياً عن قوم « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » (١) ثم قال تعالى مصدقاً لهم « فاعترفوا بذنوبهم فسحقاً لأصحاب السعير » (٢) .

١١٣ — وحدُّ الحق : استعمال المعاصى والرذائل ، وأما التعدى وقذف الحجارة والتخليط فى القول فإنما هو جنون ومرار هائج . وأما الحمق فهو ضد العقل ، وهو ما بينا آنفاً ولا واسطة بين العقل والحمق إلا السخف .

١١٤ — وحدُّ السخف : هو العمل والقول بما لايحتاج إليه فى دين ولا دنيا ولا حميد خلق ، مما ليس معصية ولاطاعة ولا عوناً عليها ولافضيلة ولا رذيلة مؤذية ، ولكنه من هذر القول ، وفضول العمل . فعلى قدر الاستكثار من هذين الأمرين والتقلل منهما يستحق المرء اسم السخف . وقد يسخف المرء فى قصة ، ويعقل فى أخرى ويحمق فى ثالثة .

١١٥ — وضدُّ الجنون تمييز الأشياء ووجود القوة على التصرف فى المعارف والصناعات ، وهذا الذى تسميه الأوائل النطق ، ولا واسطة بينهما .

---

(١) القرآن الكريم ٦٧ : ١٠

(٢) القرآن الكريم ٦٧ : ١١

وأما إحكام أمر الدنيا والتودد إلى الناس بما وافقهم وصلحت عليه حال المتودد من باطل أو غيره أو عيب أو ما عداه ، والتحيل فى إنماء المال ، وبعد الصوت ، وتمشية الجاه بكل ما أمكن من معصية ورذيلة ، فليس عقلا ولقد كان الذين صدَّقهم الله تعالى فى أنهم لا يعقلون ، فأخبرنا تعالى بأنهم لا يعقلون ، سائسين لدنياهم مشمرِّين لأمواهم ، مدارين لملوكهم ، حافظين لرياستهم . لكن هذا الخلق يسمى الدهاء ، وضدُّه الغفلة (١) والسلامة . وأما إذا كان السعى فيما ذكرنا ، فيه تصاون وأنفة ؛ فهو يسمى الحزم وضده المنافى له التضييع . وأما الوقار ووضع الكلام موضعه والتوسط فى تدبير المعيشة وسائر الناس بالمسألة ، فهذه الأخلاق تسمى الرزانة وهى ضد السخف .

١١٦ — الوفاء مركب من العدل والجود والنجدة ؛ لأن الوفىَّ (٢) رأى من الجود ألا يُعارض من وثق به أو من أحسن إليه فعدل (٣) فى ذلك ورأى أن يسمح بعاجل يقتضيه له عدم الوفاء من الحظ فجاد فى ذلك ، ورأى أن ينجد لما يتوقع من عاقبة الوفاء فشجع فى ذلك .

١١٧ — أصول الفضائل [كلها] (٤) أربعة عنها تتركب كل فضيلة وهى العدل والفهم والنجدة والجود . وأصول الرذائل كلها أربعة ، عنها تتركب كل رذيلة وهى أضداد التى ذكرنا وهى : الجهل والجبن والشح .

١١٨ — الأمانة والعفة نوعان من أنواع العدل والجود .

١١٩ — قال أبو محمد : ومما قلته فى الأخلاق :

إنما العقل أساس فوقه الأخلاق سور
فتحلَّ العقل بالعلم وإلا فهو بور

---

(١) فى الأصل : العقل .
(٢) فى الأصل : الوفا .
(٣) فى الأصل : بعدل .
(٤) زيادة من « م » .

جاهل الأشياء أعمى لا يرى حيث (١) يدور
وتمام العلم بالعد ل وإلا فهو زور
وتمام العدل بالجو د وإلا فيَجور
وملاك الجود بالنجدة والجبن غرور
عف إن كنت غيوراً ما زنى قط غيور
وكمال الكل بالتقوى وقول الحق نور
ذى أصول الفضل عنها حدثت بعدُ النزور

ومما قلته أيضاً :

زمام جميع الفضائل عد لٌ وفهم وجود وباس
فمن هذه ركبت غيرها فمن حازها فهو فى الناس راس
كذا الرأس فيه الأمور التى بإحساسها يكشف الإلتباس

١٢٠ — النزاهة فى النفس فضيلة تركبت من النجدة والجود، وكذلك الصبر.

١٢١ — الحلم نوع مفرد من أنواع النجدة .

١٢٢ — القناعة فضيلة مركبة من الجود والعدل .

١٢٣ — الحرص متولد عن الطمع ، والطمع متولد عن الحسد ، والحسد متولد عن الرغبة ، والرغبة متولدة عن الجور والشح والجهل . ويتولد من الحرص رذائل عظيمة منها الذل والسرقة والغضب والزنا والقتل والعشق والهم والفقر والمسألة بما بأيدى الناس . وإنما فرقنا بين الحرص والطمع لأن الحرص هو إظهار ما استكن فى النفس من الطمع .

١٢٤ — المداراة فضيلة متركبة من الحلم والصبر .

١٢٥ — الصدق مركب من العدل والنجدة .

١٢٦ — لاشىء أقبح من الكذب . وماظنك بعيب يكون الكفر نوعا من أنواعه . فكل كفر كذب . فالكذب جنس الكفر ، والكفر نوع تحته .

---

(١) فى « م » : كيف .

الكذب متولد من الجور والجبن والجهل ، لأن الجبن يولد مهانة النفس ، والكذاب مهين للنفس بعيد عن عزتها المحمودة.

١٢٧ — رأيت الناس فى كلامهم الذى هو فصل بينهم وبين الحمير والكلاب والحشرات ينقسمون أقساماً ثلاثة: أحدها من لا يبالى فيما أنفق كلامه فيتكلم بكل ما سبق إلى لسانه غير محقق نصر حق، ولا إنكار باطل، وهذا هو الأغلب فى الناس . والثانى أن يتكلم ناصراً لما يقع بنفسه أنه حق ودافعاً لما توهم أنه باطل ، غير محقق لطلب الحقيقه لكن لجاجاً فيما التزم ، وهذا كثير ، وهو دون الأول . والثالث : واضع الكلام فى موضعه ، وهذا أعزّ من الكبريت الأحمر .

١٢٨ — لقد طال همٌّ من غاظه الحق .

١٢٩ — اثنان عظمت راحتهما : أحدهما فى غاية الحمد ، والآخر فى غاية الذم ، وهما : مطرح الدنيا ، ومطرح الحياء .

١٣٠ — لو لم يكن من التزهد فى الدنيا إلا أن كلَّ إنسان فى العالم ، فإنه كل ليلة إذا نام نسى كل ما يعسر (١) عليه فى يقظته ، وكل ما يشفق منه ، وكل ما يشره (٢) إليه ، فنجده فى تلك الحال (٣) لا يذكر ولداً ولا أهلا ولا جاهاً ولا خمولا ولا ولاية ولا عزلة ولا فقراً ولا غنى ولا مصيبة ، وكفى بهذا واعظاً لمن عقل .

١٣١ — من عجيب تدبير الله عز وجل للعالم أن كل شىء اشتدت الحاجة إليه كان (٤) ذلك أهون له ، وتأمل ذلك فى الماء فما فوقه ، وكل شىء اشتد الغنى عنه كان ذلك أعزّ له ، وتأمل ذلك فى الياقوت الأحمر ، فما دونه .

---

(١) فى الأصل : يسعر
(٢) فى الأصل : يسره
(٣) فى الأصل : الخبر
(٤) فى الأصل : كانت

١٣٢ — الناس فيما يعانونه(١) كالماشى فى الفلاة ، كلما قطع أرضاً بدت له أرضون ، وكلما قصد المرء سبباً حدثت له أسباب .

١٣٣ - صدق من قال : إن العاقل فى الدنيا متعوب ، وصدق من قال إنه فيها مستريح : فأما تعبه فيما يرى من انتشار الباطل وغلبة دولته . وبما يحال بينه وبين الحق من إظهار الحق ، وأما راحته فمن كل مايهتم به سائر الناس من فضول الدنيا .

١٣٤ — إياك وموافقة الجليس (٢) ومساعدة أهل زمانك فيما يضرك فى أخراك وفى دنياك ، وإن قلّ ، فإنك لاتستفيد بذلك إلا الندامة حيث لا ينفعك الندم ، ولن(٣) يحمدك من ساعدته ، بل يشمت بك ، وأقل ذلك ، وهو المضمون ، أنه لا يبالى بسوء(٤) عاقبتك وفساد مغبّتك . وإياك ومخالفة الجليس ومعارضة أهل زمانك فيما لا يضرك فى دنياك ولا فى أخراك ، وإن قلّ ، فإنك تستفيد بذلك الأذى والمنافرة والعداوة . وربما أدى ذلك إلى المطالبة والضرر العظيم دون منفعة أصلا .

١٣٥ — إن لم يكن بد من إغضاب الناس وإغضاب الله عز وجل ، ولم يكن لك مندوحة عن منافرة الحق أو منافرة الخلق ، فأغضب الناس ونافرهم ، ولاتغضب ربك ولا تنافر الحق .

١٣٦ — الائتساء بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فى وعظه أهل الجهل والمعاصى والرذائل واجب ، فمن وعظ بالجفاء والاكفهرار فقد أخطأ وتعدى طريقته ، صلى الله عليه وسلم ، وسار فى أكثر الأمور مغرياً للموعوظ بالتمادى على أمره لجاحاً وحرداً ومعايظة للمواعظ الجافى ، فيكون فى وعظه

---

(١) فى «م» : يعاينون
(٢) فى «م» : الجليس السيىء
(٣) فى الأصل : ولم
(٤) فى «م» : سوء

مسيئاً لا محسناً ، ومن وعظ ببشر وتبسم ولين فكأنه مشير برأي ومخبر عن غير الموعوظ بما يستقبح من الموعوظ، فذلك أبلغ وأنجع فى الموعظة ؛ فإن لم يتقبل فلينتقل إلى الوعظ بالتحشيم وفى الخلاء ؛ فإن لم يقبل ففى حضرة من يستحى منه الموعوظ ، فهذا أدب الله تعالى فى أمره بالقول اللين . فكان صلى الله عليه وسلم لا يواجه بالموعظة لكن كان يقول : مابال أقوام يفعلون كذا ؟ وقد أثنى عليه السلام على الرفق وأمر بالتيسير ونهى عن التنفير ، وكان يتحول بالموعظة خوف الملل . وقال تعالى « ولوكنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » (١) وأما الغلظة والشدة فإنما تجب فى حد من حدود الله تعالى ، فلا لين فى ذلك للقادر على إقامة الحد خاصة . ومما ينجع فى الوعظ أيضاً الثناء بحضرة المسىء على من فعل خلاف فعله . فهذا داعية إلى عمل الخير ، وما أعلم لحب المدح فضلا إلا هذا وحده وهو أن يقتدى به من يسمع الثناء . ولهذا يجب أن تؤرخ الفضائل والرذائل لينفر سامعها عن القبيح المأثور عن غيره ، ويرغب فى الحسن المنقول عن من تقدمه ويتعظ بما سلف .

١٣٧ — وتأملت كل مادون السماء وطالت فيه فكرتى فوجدت كل شىء فيه من حى وغير حى من طبعه إن قوى أن يخلع [على] (٢) غيره من الأنواع هيأته ، ويلبسه صفاته ، فترى الفاضل يود لوكان كل الناس فضلاء ، وترى الناقص يود لوكان كل الناس نقصاء ، وترى كل من ذكر شيئاً يحض عليه ، يقول : أنا أفعل أمر كذا وكذا . وكل [ذى] مذهب يود لوكان الناس موافقين له ، وترى ذلك فى العناصر ، إذا قوى بعضها على بعض

---

(١) القرآن الكريم ٣ : ١٥٩

(٢) مابين معقفين زيادة من « م »

أحاله إلى نوعيته، وترى ذلك فى تركيب الشجر ، وفى تغذى النبات والشجر بالماء ورطوبة الأرض وإحالتها ذلك إلى نوعها، فسبحان مخترع ذلك ومدبره لا إله إلا هو .

١٣٨ — ومن عجيب قدرة الله تعالى كثرة الخلق ثم لا ترى أحداً يشبه آخر شبهاً لا يكون بينهما فيه فرق . وقد سألت من طال عمره وبلغ ثمانين عاماً هل رأى الصور فيما خلا وشبهة لهذه شبهاً واحداً ، فقال لى لا ، بل لكل صورة فرقها . وهكذا كل مافى العالم — يعرف ذلك من تدبر الآلات وجميع الأجسام المركبات ، وطال تكرار بصره عليها. فإنه حينئذ يميز ما بينها ويعرف بعضها من بعض ، بفروق فيها تعرفها النفس ، ولا يقدر أحد يعبر عنها بلسانه ، فسبحان العزيز الحكيم الذى لا تتناهى مقدرته .

٨ — فصل فى مداواة ذوى الأخلاق الفاسدة

١٣٩ — من امتحن بالعجب فليفكر فى عيوبه . فإن أعجب بفضله ، فليفتش مافيه من الأخلاق الدنية . فإن خفيت عليه عيوبه جملة حتى يظن أنه لا عيب فيه فليعلم أنه مصيبة(١) للأبد ، وأنه أتم الناس نقصاً وأعظمهم عيوبا وأضعفهم تمييزاً . وأول ذلك أنه ضعيف العقل جاهل . ولا عيب أشد من هذين، لأن العاقل هو من ميز عيوب نفسه فغالبها وسعى فى قمعها، والأحمق هو الذى يجهل عيوب نفسه ، إما لقلة علمه وتمييزه وضعف فكرته، وإما لأنه يقدر أن عيوبه خصال ،وهذا أشد عيب فى الأرض. وفى الناس كثير يفخرون بالزنا واللياطة والسرقة والظلم ، فيعجب بتأتى هذه النحوس له ، وبقوته على هذه المخازى . واعلم يقينا أنه لا يسلم إنسى من نقص حاشا الأنبياء ، صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين .

---

(١) فى «م» : أن مصيبته

فمن خفيت عليه عيوب نفسه فقد سقط ، وصار من السخفة والضعة والرذالة والخبثة وضعف التمييز والعقل وقلة الفهم بحيث لا يختلف عنه مختلف من الأرذال ، وبحيث ليس تحته منزلة من الدناءة . فليتدارك نفسه بالبحث عن عيوبه ، والاشتغال بذلك عن الإعجاب بها ، وعن عيوب غيره التى لا تضره لا فى الدنيا ولا فى الآخرة. وما أدرى لسماع عيوب الناس خصلة إلا الاتعاظ بما يسمع المرء منها فيجتنبها ، ويسعى فى إزالة ما فيه منها ، بحول الله تعالى وقوته ، وأما النطق بعيوب الناس فعيب كبير لا يسوغ أصلا ، والواجب اجتنابه إلا فى نصيحة من يتوقع عليه الأذى بمداخلة المعيب، أو على سبيل تبكيت المعجب فقط من وجهه لا خلف ظهره ، ثم تقول للمعجب ارجع إلى نفسك، فإذا ميزت عيوبها فقد داويت عجبك ولا تميِّل (١) بين نفسك وبين من هو أكبر منها عيوباً، فتستسهل الرذائل وتكون مقلداً لأهل الشر، وقد ذم تقليد أهل الخير ، فكيف تقليد أهل الشر . لكن ميِّل بين نفسك وبين من هو أفضل منك فحينئذ يتلف عجبك ، وتفيق من هذا الرأى القبيح الذى يولد عليك الاستخفاف بالناس ، وفيهم بلا شك من هو خير منك ؛ فإذا استخففت بهم لغير حق ، استخفوا بك بحق لأن الله تعالى يقول « وجزاء سيئة سيئة مثلها » (٢) فتولِّدُ على نفسك أن تكون أهلا للاستخفاف بك على الحقيقة ، مع مقت الله عز وجل وَطَمْسِ ما فيك من فضيلة .

فإن أعجبت بعقلك ففكر فى كل فكرة سوء تمر بخاطرك وفى أضاليل الأمانى الطائفة(٣) بك ، فإنك تعلم نقص عقلك حينئذ، وإن أعجبت بآرائك فتفكر فى سقطاتك (٤) واحفظها ولا تنسها ، وفى كل رأى قدرته صواباً

---

(١) ميل بين الأمرين : وازن بينهما ليرى أيهما أفضل . وفى الأصل : تمثل .
(٢) القرآن الكريم ٤٢ : ٤٠
(٣) فى الأصل : الطالعة والتصحيح عن «م»
(٤) فى الأصل : سقاطتك

نخرج بخلاف تقديرك وأصاب غيرك وأخطأت أنت، فإنك إن فعلت ذلك فأقل أحوالك أن يوازن سقوط رأيك صوابه، فتخرج لا لك ولا عليك، والأغلب أن خطأك أكثر من صوابك، وهكذا كل أحد من الناس بعد النبيين، صلوات الله عليهم. وإن أعجبت بخيرك (١) فتفكر فى معاصيك وتقصيرك، وفى معايبك ووجوهها (٢) فوالله لتجدنَّ من ذلك ما يغلب على خيرك ويعفّى على إحسانك فيبطل همك حينئذ من ذلك. وأبدل من العجب تنقصاً لنفسك. وإن أعجبت بعلمك، فاعلم أنه لاخصلة لك فيه، وأنه موهبة من الله مجردة وهبك إياها ربك تعالى، فلا تقابلها بما يسخطه فلعله ينسيك ذلك بعلة يمتحنك بها، تولد عليك نسيان ماعلمت وحفظت. ولقد أخبرت عن (٣) عبد الملك ابن طريف، وهو من أهل العلم والذكاء واعتدال الأحوال وصحة البحث، أنه كان ذا حظ من الحفظ عظيم لايكاد يمر على سمعه شيء يحتاج إلى استعادته، وأنه ركب البحر فمرَّ به فيه هول شديد أنساه أكثر ما كان يحفظ، وأخلَّ بقوة حفظه إخلالا شديداً لم يعـــاوده ذلك الذكاء بعد. وأنا أصابتنى علة فأفقت منها وقد ذهب ما كنت أحفظ إلا ما لا قدرَ له، فما عاودته إلا بعد أعوام. واعلم أن كثيراً من أهل الحرص على العلم يجدون فى القراءة والإكباب على الدرس والطلب ثم لا يرزقون منه حظاً. فليعلم ذو العلم أنه لو كان بالإكباب وحده، لكان غيره فوقه، فصحَّ أنه موهبة من الله تعالى فأى مكان للعجب هاهنا؟ ماهذا إلا موضع تواضع وشكر لله تعالى، واستزادة من نعمه، واستعاذة من سلبها. ثم تفكر أيضاً فى أن ماخفى عليك وجهلته من أنواع العلم (٤) الذى تختص به والذى أعجبت بنفاذك فيه أكثر مما تعلم من ذلك. فاجعل مكان العجب استنقاصاً لنفسك واستقصاراً لها فهو أولى

---

(١) فى الأصل: أعجبت بعلمك بخيرك.

(٢) فى الأصل: معاشك ووجوهه

(٣) فى «م»: أخبرنى

(٤) فى «م»: من أنواع العلم ثم من أصناف علمك الذى تختص ... الخ

وتفكر فيمن كان أعلم منك تجدهم كثيراً ؛ فلتهن نفسك عندك حينئذ . وتفكر فى إخلالك بعلمك فإنك لا تعمل بما علمت منه ، فعلمك عليك حجة حينئذ . ولقد كان أسلم لك لو لم تكن عالما . واعلم أن الجاهل حينئذ أعقل منك وأحسن حالا وأعذر . فليسقط عجبك بالكلية . ثم لعلّ علمك الذى تعجب بنفاذك فيه من العلوم المتأخرة التى لا كبير خصلة فيها ، كالشعر وما جرى مجراه ، فانظر حينئذ إلى من علمه أجلُّ من علمك فى مراتب الدنيا والآخرة ، فتهون نفسك عليك .

وإن أعجبت بشجاعتك فتفكر فيمن هو أشجع منك ، ثم أنظر فى تلك النجدة التى منحك الله تعالى ، فيما صرفتها . فإن كنت صرفتها فى معصية فأنت أحمق ، لأنك بذلت نفسك فيما ليس بثمن لها . وإن كنت صرفتها إلى طاعة فقد أفسدتها بعجبك ، ثم تفكر فى زوالها عنك بالشَّيَخ ، وأنك إن عشت فستصير فى عدد العيال ، وكالصبى ضعفاً .

على أنى ما رأيت العجب فى طائفة أقل منه فى أهل الشجاعة ، فاستدللت بذلك على نزاهة أنفسهم ورفعتها وعلوها .

وإن أعجبت بجاهك فى دنياك ، فتفكر فى مخالفيك وأندادك ونظائرك ولعلهم أخسّاء وضعاء (١) سقاط ، فاعلم أنهم أمثالك فيما أنت فيه ، ولعلهم ممن يستحيى من التشبه بهم ، لفرط رذالتهم وخساستهم فى أنفسهم وفى أخلاقهم ومناقبهم ؛ فاستهن بكل منزلة شاركك فيها من ذكرت لك .

وإن كنت مالك الأرض كلها ولا مخالف عليك ، وهذا بعيد جداً فى الإمكان — فما نعلم أحداً ملك معمور الأرض كلها على قلته وضيق مساحته (٢) بالإضافة إلى غامرها (٣) . فكيف إذا أضيف إلى الفلك المحيط — فتفكر فيما

---

(١) فى الأصل : وضعفاء والتصويب عن «م»

(٢) الأصل : محاسته .

(٣) فى الأصل : عامرها ، والغامر من الأرض والدور خلاف العامر .

قال ابن السماك للرشيد ، وقد دعا بحضرته بقدح فيه ماء ليشربه ، فقال له : ياأمير المؤمنين : فلو منعت هذه الشربة فبكم كنت ترضى أن تبتاعها ؟ فقال له الرشيد بملكى كله . قال ياأمير المؤمنين فلو منعت خروجها منك ، بكم كنت ترضى تفتدى من ذلك ؟ قال : بملكى كله . فقال : ياأمير المؤمنين أتغتبط بملك لا يساوى بولة ولا شربة ماء ؟ وصدق ابن السماك رحمه الله .

وإن كنت ملك المسلمين كلهم فاعلم أن ملك السودان وهو رجل أسود (١) مكشوف العورة جاهل يملك أوسع من ملكك ، فإن قلت أخذته بحق ، فلعمرى ما أخذته بحق إذا استعملت فيه رذيلة العجب ، وإذا لم تعدل فيه فاستحى من حالك فهى حالة رذالة ، لا حالة يجب العجب بها .

وإن أعجبت بمالك ، فهذه أسوأ مراتب العجب ، فانظر فى كل ساقط خسيس هو أغنى منك ، فلا تغتبط بحالة يفوقك فيها من ذكرت ، واعلم أن عجبك بالمال حمق لأنه أحجار لا ينتفع بها إلا بأن تخرجها عن ملكك بنفقتها فى وجهها فقط . والمال أيضاً غاد ورائح ، وربما زال عنك ، ورأيته بعينه فى يد غيرك ، ولعل ذلك يكون فى يد عدوك . فالعجب بمثل هذا سخف ، والثقة به غرور وضعف .

فإن أعجبت بحسنك ، ففكر فيما تولد عليك مما نستحى نحن من إثباته وتستحي أنت منه ، إذا ذهب عنك بدخولك فى السن ، وفيما ذكرنا كفاية .

وإن فكرت بمدح إخوانك ففكر فى ذم أعدائك إياك ، فحينئذ يتخلى عنك العجب . فإن لم يكن لك عدوّ فلا خير فيك ، ولا منزلة أسقط من منزلة من لا عدو له ؛ فليست إلا منزلة من ليس لله تعالى عنده نعمة يحسد عليها — عافانا الله —

فإن استحقرت عيوبك ففكر فيها ، لو ظهرت إلى الناس وتمثل إطلاعهم عليها ؛ حينئذ تخجل وتعرف قدر نقصك إن كانت لك مسكة من تمييز .

---

(١) زاد كلمة «رذل» بعد هذه فى «م»

واعلم بأنك لو تعلمت كيفية تركيب الطبائع ، وتولد الأخلاق من امتزاج عناصرها المحمولة فى النفس، فستقف من ذلك وقوف يقين على أن فضائلك لاخصلة لك فيها . وأنها منح من الله تعالى ، لو منحها غيرك ، لكان مثلك ؛ وأنك لو وكلت إلى نفسك لعجزت وهلكت . فاجعل بدل عجبك بها حمداً لواهبك إياها ، إشفاقاً على زوالها ، فقد تتغير الأخلاق الحميدة بالمرض وبالفقر وبالخوف وبالغضب وبالهرم . وارحم من مُنع مامنحت . ولا تتعرض لزوال مابك من النعم ، بالتعاطى (١) على واهبها تعالى . وبأن تجعل لنفسك فيما وهبك خصلة أو حقاً ، فتقدر أنك استغنيت عن عصمته ، فتهلك عاجلا وآجلا. ولقد أصابتنى علة شديدة، ولدت على ّ ربواً فى الطحال شديداً ، فولد ذلك على من الضجر وضيق الخلق وقلة الصبر والنزق أمراً حاسبت نفسى فيه ، إذ أنكرت تبدل خلقى ، فاشتد عجبى من مفارقتى لطبعى وصحّ عندى أن الطحال موضع الفرح ، فإذا فسد تولد ضده .

وإن أعجبت بنسبك فهذه أسوأ من كلّ ماذكرنا ، لأن هذا الذى أعجبت به ، لافائدة له أصلا فى دنيا ولا آخرة ، وانظر هل يرفع عنك جوعة أو يستر لك عورة أو ينفعك فى آخرتك . ثم انظر إلى من يساهمك فى نسبك وربما فيما هو أعلى منه ممن نالته ولادة الأنبياء عليهم السلام ثم ولادة الخلفاء ثم ولادة ملوك العجم من الأكاسرة والقياصرة ، ثم ولادة التبابعة وسائر ملوك الإسلام ، فتأمل غبراتهم وبقاياهم ، ومن يدلّ بمثل ماتدل به من ذلك تجد أكثرهم أمثال الكلاب الخسيسة ، وتلقهم فى غاية السقوط والرذالة والتبذل ، والتحلى بالصفات المذمومة ، فلا تغتبط بمنزلة هم فيها نظراؤك أو فوقك . ثم لعلّ الآباء الذين تفخر بهم كانوا فساقا وشربة خمور ولاطة

---

(١) التعاطى : الجرأة ، وتناول مالا يحق ولا يجوز تناوله .

ومتعبثين (١) ونوكى، أطلقت الأيام أيديهم بالظلم والجور ، فأنتجوا آثاراً (٢) يبقى عارهم بذلك على الأيام، وتعطبهم آثامهم والندم عليها يوم الحساب ،فإن كان ذلك ، فاعلم أن الذى أعجبت به من ذلك داخلٌ فى العيب والخزى والعار والشنار لا فى الإعجاب .

فإن أعجبت بولادة الفضلاء إياك . فما أخلى يدك من فضلهم إن لم تكن أنت فاضلا . وما أقل غناءهم عنك فى الدنيا والآخرة ، إن لم تكن محسناً . والناس كلهم ولد آدم ، الذى خلقه الله تعالى بيده ، وأسكنه جنته ، وأسجد له ملائكته ، ولكن ما أقلَّ نفعه لهم ، وفيهم كل عيب (٣) وكل فاسق ، وكل كافر . وإذا فكر العاقل فى أن فضائل آبائه لا تُقَرِّبه من ربه تعالى ولا تكسبه وجاهة لم يَحُزْها هو بسعده أو بفضـــله ، فى نفسه ولا ماله ، فأى معنى للإعجاب بما لا منفعة فيه . وهل المعجب بذلك إلا كالمعجب بمال جاره وبجاه غيره . وبفرس لغيره سَبَقَ ، كان على رأسه لجامه ، وكما تقول العامة فى أمثالها : كالخصى يزهى بذكر أبيه (٤) .

فإن تمدى بك العجب إلى الامتداح فقد تضاعف سقوطك ، لأنه قد عجز عقلك عن مقاومة ما فيك من العجب ؛ هذا إن امتدحت بحق فكيف إن امتدحت بكذب ، وقد كان ابن نوح وأبو ابراهيم، وأبو لهب عم النبى ، صلى الله عليه وعلى نوح وابراهيم ، وسلم ، أقرب الناس من أفضل خلق الله تعالى من ولد آدم . ومن الشرف كله فى اتباعهم ، فما انتفعوا بذلك وقد كان فيمن ولد لغير رشدة من كان الغاية فى رئاسة الدنيا، كزياد وأبى مسلم، ومن كان نهاية فى الفضل على الحقيقة كبعض من نُجِلُّهُ عن ذكره فى مثل هذا الفصل ، ممن يتقرب إلى الله تعالى بمحبته والاقتداء بحميد آثاره .

---

(١) فى «م» : ومغنين

(٢) فى «م» : ظلماً وآثاراً قبيحة

(٣) فى «م» : معيب

(٤) فى «م» : كالغبى يزهى بذكاء ابنه

وإن أعجبت بقوة جسمك فتفكر أن البغل والحمار والثور أقوى منك وأحمل للأثقال ، وإن أعجبت بخفتك فاعلم أن الكلب والأرنب يفوقانك فى هذا الباب ؛ فمن أعجب العجيب إعجاب ناطق بخصلة يفوقه فيها غير الناطق .

واعلم أن من قدر فى نفسه عجباً أو ظنّ بها على سائر الناس فضلاً ، فلينظر إلى صبره عندما يدهمه من هم أو نكبة أو وجع أو دمل أو مصيبة ، فإن رأى فى نفسه قلة (١) الصبر ، فليعلم أن جميع أهل البلاء من المجذّمين وغيرهم الصابرين أفضل منه ، على تأخر طبقتهم فى التمييز . وإن رأى نفسه صابرة فليعلم أنه لم يأت بشىء سبق فيه ، على ما ذكرنا ، بل هو فى ذلك إما متأخر عنهم وإما مساوٍ لهم ولا مزيد .

ثم لينظر إلى سيرته وعدله أو جوره فيما خوّله الله تعالى من نعمة أو مال أو خول أو أتباع أو صحة أو جاه ؛ فإن وجد نفسه مقصرة فيما يلزمه من الشكر لواهبه الله تعالى ، ووجدها حائفة فى العدل ، فليعلم أن هذا العدل والشكر والسيرة الحسنة من المخوّلين أكثر مما هو فيه ، أفضل منه . فإن رأى نفسه ملتزمة للعدل ، فالعادل بعيد عن العجب البتة . لعلمه بموازين الأشياء ومقادير الأخلاق ، والتزامه التوسط الذى هو الاعتدال بين الطرفين المذمومين ، فإن أعجب لم يعدل ، بل قد مال إلى جنبة الإفراط المذمومة .

١٤٠ — ولتعلم أن التعسف وسوء التملكة لمن خولك الله أمره من رقيق أورعية ، يدلان على خساسة النفس ، ودناءة الهمة ، وضعف العقل لأن العاقل الرفيع النفس العالى الهمة ، إنما يغالب أكفاءه فى القوة . ونظراءه فى المنعة ، وأما الاستطالة على من لا يمكنه المعارضة ، فسقوط فى الطبع ورذالة فى النفس والخلق ، وعجز ومهانة . ومن فعل هذا فهو بمنزلة من يتبجح بقتل جرذ أو بعقر برغوث أو بفرك قملة . وحسبك بهذا ضعة وخساسة .

---

(١) فى «م» : رأى نفسه قليلة الصبر

١٤١ — واعلم أن رياضة النفس (١) أصعب من رياضة الأُسد ، لأن الأسد إذا سجنت فى البيوت التى تتخذها(٢)لها الملوك ،أُمن شرها، والنفس إن سجنت لم يؤمن شرها .

١٤٢ — والعجب أصل يتفرع عنه التيه والزهو والكبر والنخوة والتعاطى (٣) وهذه أسماء واقعة على معان متقاربة . ولذلك صعب الفرق بينها على أكثر الناس . فقد يكون العجب لفضيلة من المعجب ظاهرة : فمن معجب بعمله فيكفهر و يَتَغَلَّق (٤) على الناس، ومن معجب بعلمه فيترفع وَيَتَعَاطَى، ومن معجب برأيه فيزهو على غيره. ومن معجب بنسبه فيتيه، ومن معجب بجاهه وعلو حاله فيتكبر وينتخى(٥) ؛ وأقل مراتب العجب أن تراه يتوقر عن الضحك وعن خفة الحركات وعن الكلام إلا فيما لابد منه من أمور دنياه، وعيب هذا أقل من عيب غيره. ولو فعل هذه الأفاعيل على سبيل الاقتصار على الواجبات وترك الفضول ، لكان ذلك فضلا وموجباً لحمدهم ولكنهم إنما يفعلون ذلك احتقاراً للناس وإعجاباً بأنفسهم . فحصل بذلك استحقاق الذم . وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى. حتى إذا زاد الأمر، ولم يكن هناك تمييز يحجب عن توفيته العجب حقه، ولاعقل جيد، حدث من ذلك ظهور الاستخفاف بالناس واحتقارهم بالكلام وفى المعاملة ، حتى إذا زاد على ذلك وضعف التمييز والعقل ، ترقى ذلك إلى استطالة على الناس بالأذى باللسان واليد والتحكم والظلم والطغيان (٦)واقتضاء الطاعة لنفسه ، والخضوع لها إن أمكنه ذلك ، فإن لم يقدر على ذلك امتدح بلسانه واقتصر على ذم الناس والاستهزاء بهم .

---

(١) فى «م» : الأنفس

(٢) فى الأصل : تتخذ

(٣) فى «م» : التعالى

(٤) يتغلق : يغضب ويحتد ويبدى ضيق خلقه

(٥) ينتخى : يفتخر ويتعظم .

(٦) فى «م» : بالأيدى واللسان والتحكم والطغيان

وقد يكون العجب لغير معنى ولغير فضيلة فى المعجب ، وهذا من عجيب ما يقع فى هذا الباب ، وهو شىء يسميه عامتنا : التميز المتمندل (١) (؟) ، وكثيراً ما تراه فى النساء ، وفيمن عقله قريب من عقولهن من الرجال، وهو عجيب ممن ليس له فيه خصلة أصلا ، لا علم ولا شجاعة ولا علوّ حال ولا سبب رفيع ولا مال يطغيه ، وهو يعلم مع ذلك أنه صفو من كل ذلك لأن هذه أمور لا يغلط فيها من يقذف (٢) بالحجارة وإنما يغلط فيها من له أدنى حظ منها ، فربما يتوسم إن كان ضعيف العقل أنه قد بلغ الغاية القصوى منها ، كمن له حظ من علم فهو يظن أنه عالم كامل أو كمن له نسب معرق فى ظَلَمةٍ ، ويجدهم لم يكونوا أيضاً رفعاء فى ظلمهم ، فنجده لو كان ابن فرعون ذى الأوتاد ما زاد على إعجابه ، والذى فيه أو له شىء من فروسية ، فهو يقدر أنه يهزم علياً أو يأسر الزبير ويقتل خالدا ، أو له شىء من جاه رذل ، فهو لا يرى الاسكندر على حال ، أو يكون قوياً على أن يكسب ما يتوفر بيده وما يفضل عن قوته ، فلو أخذ بقرنى الشمس لم يزد على ما هو فيه ، وليس يكثر العجب من هؤلاء وإن كانوا عجبا ، لكن ممن لا حظ له من علم أصلا ولا نسب البتة ولا مال ولا جاه ولا نجدة ، بل نراه فى كفالة غيره ، مهتضما لكل من له أدنى طاقة ، وهو يعلم أنه خال من كل ذلك ،وأنه لاحظّ له فى شىء منه ، ثم هو مع ذلك فى حالة المزهو التياه .

ولقد تسببت إلى سؤال بعضهم . فى رفق ولين ، عن سبب علو نفسه واحتقاره الناس فما وجدت عنده مزيدا على أن قال لى : أنا حر ، لست عبدَ أحد . فقلت له أكثر من نراه يشاركك فى هذه الفضيلة ، فهم أحرار مثلك إلا قوماً من العبيد هم أطول يدا منك ، وأمرهم نافذ عليك ، وعلى كثير من الأحرار . فلم أجد عنـــده زيادة . فرجعت إلى تفتيش أحوالهم

---

(١) فى «م» : التمترك ؛ ولم أهتد لتصويبه

(٢) فى الأصل : يغلط فيها من لا يقذف

ومراعاتها ، فأفكرت فى ذلك سنين لأعلم السبب الباعث لهم على هذا العجب الذى لا سبب له ، فلم أزل أختبر ما تنطوى عليه نفوسهم بما يبدو من أحوالهم ومن مراميهم فى كلامهم ، فاستقر أمرهم على أنهم يقدرون أن عندهم فضلَ عقل وتمييز ، ورأى أصـــيل ، لو أمكنتهم الأيام من تصريفه أو وجدوا فيه متسعا . لأداروا (١) الممالك الرفيعة ، ولبان فضلهم على سائر الناس ، ولو ملكوا مالا لأحسنوا تصريفه ؛ فمن ها هنا تسبب التيه إليهم ، وسرى العجب فيهم ، وهذا مكان فيه للكلام شغب عجيب وعارضة معترضة وهو أنه ليس شىء من الفضائل كلما كان المرء منه أعرى ، قوى ظنه أنه قد استولى عليه واستمر يقينه فى أنه قد كمل فيـه ، إلا العقل والتمييز . حتى إنك تجد المجنون المطبق والسكران الطافح يسخران بالصحيح . والجاهل الناقص يهزأ بالحكماء والأفاضل العلماء ، والصبيان الصغار يتفكهون (٢) بالكهول ، والسفهاء العيارون يستخفون بالعقلاء المتصاونين ، وضعفة النساء يستنقصن عقول أكابر الرجال وآراءهم ، وبالجملة فكلما نقص العقل توهم صاحبه أنه أوفر الناس عقلا وأكمل ما كان تمييزا ؛ ولا يعرض هذا فى سائر الفضائل ، فإن العارى منها جملة يدرى أنه عار منها وإنما يدخل الغلط على من له أدنى حظ منها ، وإن قلَّ ، فإنه يتوهم حينئذ ، إن كان ضعيف التمييز ، أنه على [أعلى] الدرجة فيه . ودواء من ذكرنا الفقر والخمول فلا دواء أنجع لهم منه ، وإلا فداؤهم وضررهم على الناس عظيم جدا ، فلا تجدهم إلا عيابين للناس ، وقاعين فى الأعراض ، مستهزئين بالجميع ، مجانبين الحقائق ، مكبين على الفضول ، وربما كانوا متعرضين للشاتمة والمهارشة ، وربما قصدوا إلى الملاطمة والمضاربة عند أدنى سبب يعرض لهم .

وقد يكون العجب كمينا فى المرء حتى إذا حصل على أدنى جاه أو مال ، ظهر ذلك عليه ، وعجز عقله عن قمعه وستره .

---

(١) فى الأصل : ولأداروا

(٢) «م» : يتهكمون

١٤٣ — ومن طريف ما رأيت فى بعض أهل الضعف أن منهم من يغلبه مايضمر من محبة ولده الصغير ، وامرأته ، حتى يصفهما بالعقل فى المحافل وحتى إنه يقول : هى أعقل منى وأنا أتبرك بتوصيتها . وأما مدحه إياها بالجمال والحسن والعافية ، فكثير فى أهل الضعف جداً ، حتى إنه لو كان خاطباً لها مازاد على مايقول فى ترغيب السامع لوصفه فيها. ولا يكون هذا إلا فى ضعيف العقل ، عار من العجب بنفسه .

١٤٤ — إياك والامتداح فإن كل من سمعك لايصدقك ، وإن كنت صادقا ، بل يجعل ما سمع منك فى ذلك من أقلّ معايبك ، وإياك ومدح الآخر فى وجهه فإن [هذا] فعل أهل الملق وضعة النفوس ، وإياك وذم أحد فى حضرته ولا فى مغيبه، فلك فى إصلاح نفسك شغل . وإياك والتفاقر (١) فإنك ماتحصل من ذلك إلا على تكذيبك واحتقار من يسمعك ولا منفعة لك فى ذلك أصلا ، إلا كف نعمة ربك ، وشكواه إلى من لا يرحمك ، وإياك ووصف نفسك باليسار فإنك لا تزيد على إطماع السامعين فيما عندك بنظر ، ولا تزد على شكر الله تعالى ، وذكر فقرك إليه وغناك عمن دونه ، فإن هذا يكسبك الجلالة والراحة من الطمع فيما عندك .

١٤٥ — العاقل هو من لايفارق ما أوجبه تميزه ، ومن سبب للناس الطمع فيما عنده ، لم يحصل إلا على أن يبذله لهم ، فلا غاية لهذا ، أو يمنعهم ، فيلؤم ويعادونه . فإذا أردت أن تعطى أحداً شيئاً فليكن ذلك منك قبل أن يسألك ، فهو أكرم وأنزه ، وأوجب للمجد .

١٤٦ — من بديع مايقع فى الحسد قول الحاسد إذا سمع إنساناً يُغربُ (٢) فى علم ما : هذا شىء بارد إذ لم يتقدم إليه ولا قاله قبله أحد . فإن

---

(١) فى الأصل : التفاخر ؛ والتفاقر : التظاهر بالفقر

(٢) الأصل : يعرف

سمع من يبين ما قد قاله غيره قال : هذا بارد وقد قيل قبله. وهذه طائفة سوء قد نصبت أنفسها للقعود على طريق العلم، يصدون الناس عنها ليكثر نظراؤهم من الجهال .

١٤٧ — إن الحكيم لا تنفعه حكمته عند الخبيث الطبع بل يظنه خبيثاً مثله .وقد شاهدت أقواماً ذوى طبائع ردية ، وقد تصور فى أنفسهم الخبيثة أن الناس كلهم على مثل طبائعهم . لا يصدقون أصلاً بأن أحداً هو سالمٌ من رذائلهم بوجه من الوجوه ، وهذا أفسد (١) ما يكون من فساد الطبع والبعد عن الفضل والخير ، ومن هذه صفته لا ترجى له معافاة (٢) أبداً ، وبالله تعالى التوفيق .

١٤٨ — العدل حصن يلجأ إليه كل خائف ، وذلك أنك ترى الظالم وغير الظالم إذا رأى من يريد ظلمه ، دعا إلى العدل وأنكر الظلم حينئذ وَذَمَّهُ ؛ ولا ترى أحداً يذم العدل فمن كان العدل فى طبعه فهو ساكن فى ذلك الحصن الحصين .

١٤٩ — الإستهانة نوع من (٣) أنواع الخيانة ، إذ قد يخونك من لا يستهين بك ؛ ومن استهان بك فقد خانك الإنصاف ، فكل مستهين خائن وليس كل خائن مستهينا .

١٥٠ — الاستهانة بالمتاع دليل على الاستهانة برب المتاع .

١٥١ — حالتان يحسن فيهما ما يقبح فى غيرهما وهما المعاتبة والاعتذار فإنه يحسن فيهما تعديد الأيادى وذكر الإحسان ، وذلك غاية القبح فيما عدا هاتين الحالتين .

١٥٢ — لا عيب على من مال بطبعه إلى بعض القبائح ، ولو أنه أشد العيوب وأعظم الرذائل ، مالم يظهره بقول أو فعل بل يكاد يكون أحمد

---

(١) فى «م» : أسوأ

(٢) فى الأصل : معانا

(٣) فى الأصل : من نوع

ممن يعاونه طبعه على الفضائل . ولا تكون مغالبة الطبع الفاسد إلا عن قوة عقل فاضل .

١٥٣ ـ الخيانة فى الحرم أشد من الخيانة فى الدماء .

١٥٤ ـ العرض أعز على الكريم من المال .

١٥٥ ـ ينبغى للكريم أن يصون جسمه بماله ، ويصون نفسه بجسمه ، ويصون عرضه بنفسه، ويصون دينه بعرضه، ولا يصون بدينه شيئاً أصلا .

١٥٦ ـ الخيانة فى الأعراض أخف من الخيانة فى الأموال . وبرهان ذلك أنه لا يكاد يوجد من لايخون فى العرض، وإن قل ذلك منه وكان من أهل الفضل؛ وأما الخيانة فى الأموال ، وإن قلت وكثرت، فلا تكون إلا من رذل بعيد عن الفضل .

١٥٧ ـ القياس فى أحوال الناس قد يكذب فى أكثر الأمور ، ويبطل فى الأغلب . واستعمال ما هذه صفته فى الدين لا يجوز .

١٥٨ ـ المقلد راض أن يغبن عقله . ولعله مع ذلك يستعظم أن يغبن ماله فيخطىء فى الوجهين معاً .

١٥٩ ـ لا يكره الغبن فى ماله ويستعظمه إلا دقيق الطبع لئيم الهمة مهين النفس .

١٦٠ ـ من جهل معرفة الفضائل فليعتمد على ما أمر به الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فإنه يحتوى على جميع الفضائل .

١٦١ ـ رب مخوف كان التحفظ (١) منه سبب وقوعه . ورب شر كانت المبالغة فى طيه علة انتشاره (٢) ورب إعراض أبلغ فى الاسترابة من إدامة النظر ؛ وأصل ذلك الإفراط الخارج عن حد الاعتدال .

---

(١) فى «م» : التحرز

(٢) فى «م» : سبب انتشاره .

١٦٢ - الفضيلة وسيطة بين الإفراط والتقصير ، فكلا الطرفين مذوم ، والفضيلة بينهما محمودة حاشا العقل فإنه لا إفراط فيه .

١٦٣ - الخطأ فى الحزم خير من الخطأ فى التضييع .

١٦٤ - من العجائب أن الفضائل مستحسنة ومستثقلة ، والرذائل مستقبحة ومُستَخَفَّة .

١٦٥ - من أراد الإنصاف فليوهم نفسه مكان خصمه ، فإنه يلوح له وجه تعسُّفه .

١٦٦ - حدُّ الحزم معرفة الصديق من العدو ، وغاية الحُرْق والضعف جهل العدو من الصديق .

١٦٧ - لا تسلم عدوك لظلم ولا تظلمه ، وساو فى ذلك بينه وبين الصديق وإياك وتقريبه وإعلاء قدره ، فإن هذا من فعل النوكى ، ومن ساوى بين عدوّه وصديقه فى التقريب والرفعة فلم يزد على أن زهَّد الناس فى مودته ، وسهل عليهم عداوته ، ولم يزد على استخفاف عدوه وتمكينه من مقاتله ، وإفساد صديقه على نفسه ، وإلحاقه بجملة أعدائه . غاية الخير أن يسلم عدوك من ظلمك ومن تركك إياه يظلم . وأما تقريبه فمن شيم النوكى الذين قد قرب منهم التلف . وغاية الشر أن لا يسلم صديقك من ظلمك ، وأما إبعاده فمن فِعْل من لا عقل له ومن قد كتب عليه الشقاء . ليس الحلم تقريب العدو ، ولكنه مسالمتهم مع التحفظ منهم .

١٦٨ - قلما رأيت أمراً أمكن فضيع إلا وفات (١) فلم يمكن بعد .

١٦٩ - مِحَنُ الإنسان فى دهره كثيرة ، وأعظمها محنته بأهل نوعه من الإنس . [وداء] (٢) الإنسان بالناس أعظم من دائه بالسباع الكلبية

---

(١) فى الأصل : الأوقات

(٢) زيادة من «م» .

والأفاعى الضارية ، لأن التحفظ من كل ما ذكرنا ممكن، ولا يمكن التحفظ من الإنس أصلا .

١٧٠ — الغالب على الناس النفاق ، ومن العجب أنه لا يجوز مع ذلك عندهم إلا من نافقهم .

١٧١ — لو قال قائل : إن فى الطبائع مزية كُرِّيَّة (١) لأن أطراف الأضداد تلتقى ، لم يبعد من الصدق . وقد نجد نتائج الأضداد تتساوى ، فنجد المرء يبكى من الفرح ومن الحزن ونجد فرط المودة يلتقى مع فرط البغضة فى تتبع العثرات ، وقد يكون ذلك سبباً للقطيعة عند من عدم الصبر والإنصاف .

١٧٢ — كل من غلبت عليه طبيعة ما ، فإنه وإن بلغ الغاية من الحزم والحذر ، فانه مصروع إذا كويد من قبلها .

١٧٣ — كثرة الريب تعلم صاحبها الكذب لكثرة ضرورته إلى الاعتذار بالكذب فيضرى عليه ويستسهله .

١٧٤ — أعدل الشهود على المطبوع على الصدق وَجهُهُ ، لظهور الاسترابة عليه إن وقع فى كذبة أو هَمَّ بها . وأعدل الشهود على الكذاب لسانُهُ ، لاضطرابه ونقض بعض كلامه بعضاً .

١٧٥ — المصيبة فى الصديق الناكث أعظم من المصيبة به .

١٧٦ — أشد الناس استعظاماً (٢) للعيوب بلسانه هو أشدهم استسهالا لها بفعله ، ويتبين ذلك فى مسافهات أهل البذاء ومشاتمات الأراذل البالغين غاية الرذالة من الصناعات الخسيسة من الرجال والنساء ، كأهل التعيش بالزمير ، وكنس الحشوش ، والخادمين فى المجازر ، وساكنى دور الحمل المباحة

---

(١) فى الأصل : كرية مزية

(٢) فى «م» : استسهالا . وفى الأصل : إستطعاماً .

لكراء الجماعات الرذلة ، والساسة للدوابّ ، فإن كل من ذكرنا أشد الخلق رمياً من بعضهم لبعض بالقبائح ، وأكثرهم عيباً بالفضائح ، وهم أوغل الناس فيها وأشهرهم بها .

١٧٧ — اللقاء يذهب بالسخائم ، فكأنّ نظر العين إلى العين يصلح القلوب ، فلا يسوءك التقاء صديقك بعدوك ، فإن ذلك يفتر (١) أمره عنك .

١٧٨ — أشد الأشياء على الناس الخوف والهم والمرض والفقر ، وأشدها كلها إيلاماً للنفس الهم ، للفقد من المحبوب وتوقع المكروه ، ثم المرض ثم الخوف ثم الفقر ، ودليل ذلك أن الفقر يستعجل ليطرد به الخوف فيبذل المرء ماله كله ليأمن ، والخوف والفقر يستعجلان ليطرد بهما ألم المرض فيغرر الإنسان فى طلب الصحة ويبذل ماله فيها إذا أشفق من الموت . ويود عند تيقنه (٢) به لو بذل ماله كله ويسلم ويفيق (٣) . والخوف يستسهل ليطرد به الهم ، فيغرّر المرء بنفسه ليطرد عنها الهم . وأشد الأمراض كلها ألماً وجع ملازم فى عضو ما بعينه ، وأما النفوس الكريمة فالذل عندها أشد مما ذكرنا ، وهو أسهل المخوفات عند ذوى النفوس اللئيمة .

٩ — فصل فى غرائب أخلاق النفس

١٧٩ — ينبغى للعاقل أن لا يحكم بما يبدو إليه من استرحام الباكى المتظلم وتشكّيه وكثرة تلومه (٤) وتقلبه وبكائه ، فقد وقفت على بعض

---

(١) يفتر : يسكن

(٢) فى الأصل : نفسه والتصحيح عن «م»

(٣) فى الأصل : وسلم

(٤) فى «م» : وشدة تلويه

من يفعل هذا ، على يقين أنه الظالم المعتدى المفرط فى الظلم ، ورأيت بعض المظلومين ساكن الكلام معدوم التشكى مظهراً لقلة المبالاة ، فيسبق إلى نفس بعض من لا يحقق النظر أنه ظالم، وهذا مكان ينبغى التثبيت فيه، ومغالبة(١) ميل النفس جملة ، ولا يميل المرء مع الصفة التى ذكرنا ولا عليها ، لكن يقصد الإنصاف لما يوجبه الحق على السواء .

١٨٠ — من عجائب الأخلاق أن الغفلة مذمومة ، وأن استعمالها محمود ، وإنما ذلك لأن من هو مطبوع [على] الغفلة يستعملها فى غير موضعها وفى حيث يجب التحفظ. وهى تَغيبٌ عن فهم الحقيقه فدخلت تحت الجهل فذُمت لذلك. وأما المتيقظ الطبع فإنه لا يضع الغفلة إلا فى موضعها الذى يذم [فيه] البحث والتقصى . والتغافل فهم للحقيقة وإضراب عن الطيش واستعمال للحلم وتسكين المكروه فلذلك حمدت حالة التغافل وذمت الغفلة .

١٨١ — وكذلك القول فى [إظهار الجزع وإبطانه](٢) وإظهار الصبر وإبطانه . فإن إظهار الجزع الصرف عند حلول المصائب مذموم لأنه عجز يظهره عن مَلْك نفسه، فاظهاره أمر لا فائدة فيه بل هو مذموم فى الشريعة ، وقاطعٌ عن ما يلزم من الأعمال وعن التأهب لما يتوقع حلوله مما لعله أشنع من الأمر الواقع الذى عنه حدث الجزع . فلما كان إظهار الجزع مذموماً كان ضده محموداً. وهو إظهار الصبر ، لأنه ملك النفس وإطّراح لما لا فائدة فيه ، وإقبال على ما يعود وينتفع فيه فى الحال وفى المستأنف . وأما استبطان [الصبر] (٣) فمذموم لأنه ضعف فى الحس وقسوة فى النفس وقلة رحمة ؛ وهذه أخلاق سوء لا تكون إلا فى أهل الشر وخبث الطبيعة وفى النفوس

---

(١) فى الأصل : ومعايلة

(٢) زيادة من «م» .

(٣) زيادة لازمة .

السبعية (١) الرديئة . فلما كان ذلك نتيجة ما ذكرنا(٢) ، كان ضده محموداً وهو استبطان الجزع لما فى ذلك من الرحمة والرقة والشفقة والفهم لقدر الرزيّة . فصحّ بهذا أن الاعتدال هو أن يكون المرء جزوع النفس صبور الجسد، بمعنى أن لا يظهر فى وجهه ولا فى جوارحه شىء من دلائل الجزع ، وبالله تعالى التوفيق .

١٨٢ — لو علم ذو الرأى الفاسد ما استضر به من فساد تدبيره فى السالف ، لأنجح بترك استعماله فيما يستأنف .

١٠ — فصل فى تطلع (٣) النفس إلى معرفة ما تستر به عنها من كلام مسموع أو شىء مرئى (٤) وإلى المدح وبقاء الذكر

١٨٣ — هذان أمران لا يكاد يسلم منهما أحد إلا ساقط الهمة جداً ، ومن راض نفسه الرياضة التامة وقمع قوة نفسه الغضبية قمعاً كاملاً . ومداواة شره النفس إلى سماع كلام تستر به عنها ، أو رؤية شىء اكتتم به دونها ، أن تفكر فيما غاب عنها من هذا النوع فى غير موضعه الذى هو فيه بل فى أقطار الأرض المتنائية ، فإن اهتم بكل ذلك فهو مجنون بأم الجنون عديم العقل البتة ، فإن لم يهتم لذلك ، فهل هذا الذى اختفى عنه الا كسائر ما غاب عنه منه سواء سواء ، ولا فرق ، ثم ليزداد احتجاجاً (٥) على هواه فليقل بلسان عقله لنفسه : يا نفس ، أرأيت لو لم تعلمى أن هاهنا شيئاً اخفى عنك ، أكنت تطلعين إلى معرفة ذلك ؟ فلا بدّ من « لا » . فليقل لنفسه : فكونى الآن كما كنت تكونين ، لو لم تعلمى بأن هاهنا شيئاً سُتِرَ عنك ، فتربحى الراحة

---

(١) فى الأصل : الستعبة

(٢) فى «م» : فلما كان ماذكرنا يقبح

(٣) فى الأصل : مطلع وفى «م» : مطامع

(٤) فى «م» : أو شىء يدنى إلى المدح .

(٥) فى «م» : ليزيد إحتجاجه .

وَطَرْدَ الهم وألم القلق وقبح صفة الشره، وتلك غنائم كثيرة وأرباح جليلة وأعواض فاضلة سنية يرغب العاقل فيها، ولا يزهد فيها إلا تام النقص.

وأما من علق وهمه وفكره بأن يبعد اسمه فى البلاد، ويبقى ذكره على الدهور فليتفكر فى نفسه وليقل لها يانفس: أرأيت لو ذكرت بأفضل الذكر فى جميع أقطار المعمورة أبد الأبد إلى انقضاء الدهور، ثم لم تبلغى ذلك ولا عرفت به، أكان لى فى ذلك سرور وغبطة أصلاً؟ فلا بد من «لا»، ولا سبيل إلى غيرها البتة، فإذا صحّ ذلك وتيقن، فليعلم يقيناً أنه إذ مات فلا سبيل له إلى علم أنه يذكر أو أنه لا يذكر، وكذلك وإن كان حياً إذا لم يبلغه، ثم ليتفكر أيضاً فى معنيين عظيمين أحدهما كثرة من خلا من الفضلاء من الأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم أولاً، والذين لم يبق لهم على أديم الأرض عند أحد من الناس اسمٌ ولا رسم ولا ذكر ولا خبر ولا أثر بوجه من الوجوه، ثم من الفضلاء الصالحين من أصحاب الأنبياء السالفين والزهاد ومن الفلاسفة والعلماء والأخيار وملوك الأمم الداثرة وبناة المدن الخالية وأتباع الملوك أيضاً، الذين انقطعت أخبارهم فلم يبق لهم عند أحد علم ولا لأحد بهم معرفة أصلاً البتة؛ فهل ضرّ من كان فاضلاً منهم ذلك أو نقص من فضائلهم أو طمس من محاسنهم أو حط درجتهم عند باريهم عز وجل؟

ومن جهل هذا الأمر فليعلم أنه ليس فى شىء من الدنيا خبرٌ عن ملك من ملوك الدنيا والأجيال السالفة أبعد مما بأيدى الناس من تاريخ ملك بنى إسرائيل فقط، ثم ما بأيدينا من تاريخ ملك يونان والفرس، وكل ذلك لا يتجاوز ألفى عام، فأين ذكر من عمر الدنيا قبل هؤلاء؟ أليس قد دثر وفنى وانقطع ونسى البتة؟ ولذلك قال الله تعالى «ورسلاً لم نقصصهم عليك (١) وقال تعالى «وقروناً بين ذلك كثيراً» (٢). وقال الله تعالى: «والذين من

(١) القرآن الكريم ٤ : ١٦٣. (٢) القرآن الكريم ٢٥ : ٣٨

بعدهم لا يعلمهم إلا الله »(١)، فهل الإنسان وإن ذكر برهة من الدهر إلا كمن خلا قبل من الأمم الغابرة الذين ذكروا ثم نسوا جملة .

ثم ليتفكر الإنسان فى من ذكر بخير أو بشر : هل يزيده ذلك عند الله تعالى درجة أو يكسبه فضيلة لم يكن حازها بفعله أيام حياته ؟ فإذ (٢) هذا كما قلنا ، فالرغبة فى الذكر رغبة فى غرور (٣) ، ولا معنى له ولا فائدة فيه أصلا ، لكن إنما ينبغى أن يرغب العاقل فى الاستكثار من الفضائل وأعمال البر التى يستحق من هى فيه الذكر الجميل والثناء الحسن والمدح وحميد الصفة، فهى التى تقربه من باريه تعالى وتجعله مذكوراً عنده عز وجل ، الذكر الذى ينفعه ويحصل على بقاء فائدته ، ولا يبيد أبد الأبد ، وبالله تعالى التوفيق .

١٨٤ — شكر المحسن (٤) فرض واجب وإنما ذلك بالمقارضة له بمثل ما أحسن فأكثر ، ثم بالتهمم (٥) بأموره ، والتأتى بحسن الدفاع عنه ثم بالوفاء له حياً وميتاً ولمن يتصل به من شأفةٍ (٦) وأهلٍ كذلك، ثم بالتمادى على وده ونصيحته ونشر محاسنه بالصدق وطى مساويه مادمت حياً ،وتوريث ذلك عقبك وأهل ودك . وليس من الشكر عونه على الآثام وترك نصيحته فيما يوتغ (٧) به دينه ودنياه ، بل من عاون من أحسن إليه على باطل فقد غشه وكفر إحسانه وظلمه وجحد إنعامه ، وأيضاً فإن إحسان الله تعالى وإنعامه، عز وجل، على كل أحد أعظم وأقدم وأهنأ من نعمة كل منعم دونه ، فهو تعالى الذى شق لنا الأبصار الناظرة ، وفتق فينا الآذان السامعه ، ومنحنا

---

(١) القرآن الكريم ١٤ : ٩

(٢) فى «م» : فإذا كان

(٣) فى «م» : رغبة غرور .

(٤) فى «م» : شكر المنعم .

(٥) تهمم الشىء : طلبه .

(٦) شأفة الرجل : أهله وماله . وفى الأصل : مساه .

(٧) يوتغ : يهلك ، وأوتغ دينه بالإثم أفسده .

الحواس الفاضلة ، ورزقنا النطق والتمييز اللذين بهما استأهلنا أن يخاطبنا ، وسخر لنا ما فى السموات والأرض من الكواكب والعناصر ، ولم يفضل علينا من خلقه شيئا غير ملائكته المقدسين الذين هم عمار السموات فقط ، فأين تقع نِعمُ المنعمين من هـــذه النعم ؟ فمن قدر أنه يشكر محسناً إليه بمساعدته (١) على باطل ، أو بمحاباته فيما لا يجوز ، فقد كفر نعمة أعظم المنعمين عليه ، وجحد إحسان أجلِّ المحسنين إليه ، ولم يشكر ولىَّ الشكر حقاً ، ولا حمد أهل الحمد أصلا ، وهو الله تعالى . ومن حال بين المحسن إليه وبين الباطل وأقامه على مر الحق ، فقد شكره حقاً وأدى واجب حقه عليه مستوفى ، ولله الحمد أولا وآخراً وعلى كل حال .

١١ — [فصل] (٢) فى حضور مجالس الذكر

١٨٥ — إذا حضرت مجلس علم فلا يكن حضورك إلا حضور مستزيد علماً وأجراً ، لا حضور مستغن بما عندك ، طالب عثرة تُشَنِّعُها ، أو غريبة تشيعها ، فهذه أفعال الأرذال الذين لا يفلحون فى العلم أبداً . فإذا حضرتها على هذه النيَّة فقد حصلت خيراً على كل حال ، فإن لم تحضرها على هذه النية فجلوسك فى منزلك أروح لبدنك ، وأكرم لخلقك وأسلم لدينك ، فإذا حضرتها كما ذكرنا فالتزم أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها وهى : إما أن تسكت سكوت الجهال فتحصل على أجر النية فى المشاهدة ، وعلى الثناء عليك بقلَّة الفضول وعلى كرم المجالسة ومودة من تجالس ، فإن لم تفعل فاسأل سؤال المتعلم فتحصل على هذه الأربع المحاسن وعلى خامسة وهى استزادة العلم . وصفة سؤال المتعلم هو أن تسأل عن مالا تدرى لاعن ما تدرى ، فإن السؤال عما تدريه سخفٌ وقلة عقل وثقل لكلامك وقطع لزمانك بما لا فائدة فيه ،

---

(١) فى الأصل : بمشاهدته

(٢) زيادة من «م»

لا لك ولا لغيرك ، وربما أدّى [إلى] اكتساب العداوات وهو يعد عين الفضول فيجب عليك أن لا تكون فضولياً ، فإنها صفة سوء . فإن أجابك الذى سألت بما فيـــه كفاية لك فاقطع الكلام ، فإن لم يجبك بما فيه كفاية أو أجابك بما لم تفهم فقل له لم أفهم واستزده ، فإن لم يزدك بياناً وسكت أو أعاد عليك الكلام الأول ولا مزيد فأمسك عنه ، وإلا حصلت على الشر والعداوة ، ولم تحصل على ما تريده من الزيادة . والوجه الثالث أن تراجع مراجعة العلم ، وصفة ذلك أن تعارض جوابه بما ينقضه نقضاً بيناً . فإن لم يكن ذلك عندك ، ولم يكن عندك إلا تكرار قولك والمعارضة بما لا يراه خصمك معارضة ، فأمسك . لأنك لا تحصل بتكرار ذلك على أجر زائد ولا على تعليم بل على الغيظ لك ولخصمك والعداوة التى ربما أدت إلى المضرات . وإياك وسؤال المعنت (١) ومراجعة المكابر الذى يطلب الغلبة بغير علم فهما خلقا سوء ، دليلان على قلة الدين وكثرة الفضول وضعف العقل وقوة السخف ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وإذا ورد عليك خطاب بلسان ، أو هجمت على كلام فى كتاب ، فإياك أن تقابله مقابلة المغاضبة الباعثة على المغالبة (٢) ، قبل أن تتيقن بطلانه ببرهان قاطع . وأيضـــاً فلا تقبل عليه إقبال المصدق (٣) به المستحسن إياه ، قبل علمك بصحته ، ببرهان قاطع . فتظلم كلا الوجهين بنفسك ، وتبعد عن إدراك الحقيقة . ولكن أقبل عليه إقبـــال سالم القلب عن النزاع عنه والنزوع إليـه ، ولكن إقبال من يريد حظ نفسه فى فهم ما سمع ورأى ليزيد (٤) به علماً ، وقبوله إن كان حسناً أو رده إن كان خطأ فمضمون ذلك ، إذا فعلت ، الخير والعمل به ، فمن جمع الأمرين نال

---

(١) فى الأصل : المعيب

(٢) فى «م» : المبالغة .

(٣) فى الأصل : الصدق

(٤) فى الأصل : بالتزيد .

الأجر الجزيل(١) والحمد الكثير والفضل العميم .

١٨٦ — فرض على الناس تعليم الخير والعمل به ، فمن جمع الأمرين جميعاً فقد استوفى الفضلين معاً ، ومن علمه ولم يعمل به فقد أحسن فى التعليم وأساء فى ترك العمل به ، فخلط عملا صالحاً وآخر سيئا وهو خير من آخر لم يعلمه ولم يعمل به ، وهذا الذى لا خير فيه أمثل حالة فيه ، وأقل ذماً من آخر ينهى عن تعليم الخير ويصد عنه، ولولم ينه عن الشر إلا من ليس فيه منه شيء ، ولا أمر بالخير إلا من استوعبه لما نهى أحد عن شر ولا أمر بخير بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، وحسبك ممن أدى رأيه إلى هذا إفسادا وسوء طبع وذم [حال](٢)، وبالله تعالى التوفيق.

تم الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ،
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما
كثيرا ورضى الله عن أصحاب رسول الله

---

(١) فى «م» فمضمون لك ، إن فعلت ذلك ، الأجر الجزيل . . الخ

(٢) زيادة من « م » .

الفهارس

١ — فهرست الرسائل

٢ — فهرست الموضوعات

٣ — الآيات القرآنية والأحاديث النبوية

٤ — الأعلام التى وردت ترجمتها فى حواشى الكتاب

٥ — فهرست المراجع

فهرست الرسائل

ص		
١	— ى	المقدمة
٥	— ١٧	رسالة فى الرد على الهاتف من بعد
١٩	— ٤٠	رسالة البيان عن حقيقة الإيمان
٤١	— ٥٥	رسالة التوقيف على شارع النجاة باختصار الطريق
٥٦	— ٩٠	رسالة مراتب العلوم
٩١	— ١٠١	رسالة فى الغناء الملهى أمباح هو أم محظور
١٠٣	— ١٠٦	رسالة فى ألم الموت وإبطاله
١٠٧	— ١١١	فصل فى معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها
١١٣	— ١٧٣	رسالة فى مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد فى الرذائل
١٧٥	— ١٨٧	الفهارس

فهرست الموضوعات

المحبة : أنواعها وقيامها جميعاً على أساس الطمع : ١٣٨ ، درجاتها الخمس: ١٤١
ابن حزم : ذمه لأنه متأخر فى الزمن : ١٢، اتهامه بالتعويل على كتب الأوائل : ١٠
وبالطعن على الصحابة : ٧ — ٨ ، تحريض علماء الأقطار الاسلامية عليه :
١٥ ، ذب جماعة ممن يخالفونه عنه فى محنته : ٢٣ ، اعتقاد بعض أصدقائه أنه
لايحفظ سرا : ٢٢ ، شعر له فى الأخلاق : ١٤٥ ، تقييده لتجاربه : ١١٥
موقف أهل الجهل وأهل العلم منه : ١٢٣ ، إصابته بعلة أنسته ما كان
يحفظ : ١٥٢ ، سؤاله أحد المعجبين عن سر عجبه : ١٥٩ ، كشفه عن
السر فى العجب : ١٦٠ ، إصابته بعلة غيرت من خلقه : ١٥٥ ، انتفاعه
بمحك الجهال : ١٣٧
الحسن : (انظر صباحة الصور)
الحلاوة: (انظر: صباحة الصور)
الخلق : مراتب أخلاق الناس سبع : ١٣٦ ، غرائب أخلاق النفس : ١٦٦
أنواع الأخلاق الكريمة وأضدادها — الشجاعة وحدها : ١٢٨ ، العفة
وحدها : ١٢٨ ، العدل وحده : ١٢٨ ، ١٦٢ ؛ الكرم وحده : ١٢٨ ،
العجب عامة — بالعقل : ١٥١ ، بالعلم : ١٥٢ ، بالشجاعة : ١٥٣ ، بالجاه :
١٥٣ ، بالمال : ١٥٤ ، بالحسن : ١٥٤ ، بمدح الإخوان : ١٥٤ ، بالنسب :
١٥٥ ، ما يتفرع عن العجب : ١٥٨ ، كون العجب لغير علة داعية : ١٥٩ ،
كمون العجب : ١٦٠ ، الحسد : ١٦١ — ١٦٢ ، المسامحة : ١٣٤ ، الغيره :
١٤١ ، التلون المذموم : ١٤٣ ، الثبات واللجاج : ١٤٣ ، الرزانة : ١٤٤ ،
شكر المحسن : ١٧٠ ، الغفلة والتغافل : ١٦٧ ، الصبر والجزع : ١٦٧
الاستدلال : هل هو فرض : ٢٥ ، هل هو ضرورى : ٣١ ، ٣٩ ، معرفة الله غير
واجبة قبل الرسل : ٢٨ ، لاتتم بضرورة العقل : ٢٩ ، إسلام كثير من

الصحابة دون استدلال : ٣٥ ، أقسام الناس فى الاستدلال : ٣٦ ، كثرة الخطأ فى الاستدلال : ٣٨ ، ٣٩ .

الروعة : (انظر : صباحة الصور)

الزهد : فضله : ١٢٣ ، البرهان على أهميته : ١٤٧ طريقة ابن حزم فى الزهد هى قتل العجب : ١٥٠ — ١٥٧ ، أهمية الانفراد والعزلة : ١٢٥ .

الشريعة : بطلان الشرائع ماعدا الاسلام — البرهمية : ٧٣ ، الصابئة : ٥٤ ، المجوسية ٥٢ ، ٧٤ ، المانية : ٥٢ ، النصرانية : ٥١ ، ٧٤ ، اليهودية : ٥٢ ، ٧٤

صباحة الصورة : الحلاوة : ١٤٢ ، القوام : ١٤٢ ، الروعة : ١٤٢ ، الحسن : ١٤٢ الملاحة : ١٤٣ .

الصداقة : حدها : ١٣١ ، الحذر فى الصداقة : ١٣٠ ، العتاب فى الصداقة : ١٣٠ ، قيمة الاستكثار من الأصدقاء : ١٣٢ ، هل تستحسن مصاهرة الصديق ومبايعته : ١٣٧ ، هل ينقل الكلام للصديق إذا ذكرت امرأته بسوء : ١٣٥ ، كيف تكون المسامحة بين الصديقين : ١٣٤ ، حد الحزم معرفة الصديق من العدو : ١٦٤ ، كيف تفرق فى المعاملة بين الصديق والعدو : ١٦٤ .

الطبائع : هل فيها مزية كرية : ١٦٥ ، غلبة النفاق على الناس : ١٦٥ ، الطمع سبب إلى كل هم : ١٣٩ .

الطمع : (انظر المحبة ، والطبائع) .

المظاهر : كذبها : ١٦٦

العالم : اختلاف الفلاسفة فى حدوثه وقدمه : ٥٥ — ٥٦ ، البراهين على حدوثه : ٤٨ ، ٧٢ ، إثبات أن له محدثاً : ٤٩ ، إثبات أن المحدث واحد : ٥١ ، ٧٢ .

العجب : (انظر : الخلق)

المعرفة : (انظر : الاستدلال)

العـــلم :

ـــ العالم من أية يكتسب : ٧٥ ، ضرورة ابتعاده عن السلطان ٧٥، عدم خدمة السلطان بعلم النجوم : ٧٦ .

ـــ العلم : فضله : ١٢١ ، ١٢٢ ، تعليمه الفضائل : ١٢٤ ، قطعه صاحبه عن الوساوس، نشره عند غير أهله : ١٢٢ ، الباخل بالعلم : ١٢٢، آفة الدخلاء فيه : ١٢٣ ، آداب مجالس العلم : ١٧١ ، أنواعه سبعة : ٧٨ ، دعائمه : ٧٦ ، منهج التعلم : ٦٣ ، منفعة العلوم الدنيوية : ٦١ ، آفة الاقتصار على علم : ٨٦، الخط والقراءة : ٦٣، أنواعه ـــ علم الطب ٤٥ ، ٧٩ ؛ اقسام علم الطب : ٧٩ علم المساحة: ٤٤، علم الهيئة والنجوم : ٤٥، ٧٩، فساد علم النجوم : ٦٨ ، ٨٨، علم العدد : ٤٤ ، ٦٧ ، ٧٩ ، الفلسفة والمنطق : ٤٣ ، الفلسفة لا تنجى بعد الموت : ٥٥ ، المنطق : ٧١ ، ٧٩ البلاغة : ٨٠ ، العبارة: ٨٠، علم الشعر : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٠، علم التاريخ والأخبار : ٧١ ، ٧٨ ، تاريخ بنى اسرائيل : ٧٨ ، تاريخ الفرس: ٧٩ ، تاريخ الروم : ٧٩، علم النسب : ٧٩ ، علم الشريعة وأهميته : ٧٤ ، أقسام الشريعة الاسلامية : ٧٨، ٨٥ ، علم اللغة : ٦٤ ، علم السحر والموسيقى : ٥٩ ، ٦٠ ، العلوم الصناعية : ٨٠

الغناء : الأحاديث المانعة له : ٩٣ ، الأحاديث التى يستنتج منها الترخيص فيه: ٩٨

الفضيلة : علاقة العقل بالفضيلة : ١٤٤ ، الوفاء : ١٤٥ أصول الفضائل : ١٤٥ شعر لابن حزم فى أصولها : ١٤٥ ـــ ١٤٦ ، كيفية تركب الفضائل : ١٤٦ اغتباط العاقل بالفضيلة : ١٢٠ (وانظر أيضا الخلق) .

التقليد : نهى ابن حزم عن تقليد الصحابة فمن دونهم : ١٣ ، هل الصحابة مقلدون : ٣٧ ، ذم التقليد وإبطاله : ٢٦

المتكلمون : جسارتهم على العظائم ٣٧ ، سوفسطائيون مهذرون : ٣٠ ، غير مرضيين عند الأمة : ٣٧ .

الملاحة : (انظر : صباحة الصور)

الموت : هل له ألم أو لا : ١٠٥ ـــ ١٠٦ .

النصيحة : حدها : ١٣١ ، كم مرة يتقدم بها الناصح : ١٣٣ ، قواعدها : ١٣٣
متى تتضح وكيف : ١٣٧ ، اختلاط بعض أنواعها بالنميمة : ١٣٢
النظر : (انظر : الاستدلال)
النفس : معرفتها بغيرها وجهلها بذاتها : ١٠٩ — ١١١ ، حبها الاستطلاع : ١٦٨
حبها المدح والذكر : ١٦٩ ، غرائب أخلاقها : ١٦٦ ، أنواع النفوس :
٤٧ ، نفار النفس وأنسها ، فرق ما بين الرذيلة والفضيلة : ١٢٠
الهم : طرده هو الغاية الكبرى : ١١٦ ، ١١٨ ، أشد شيء إيلاما للنفس : ١٦٦
مقارنة بينه وبين الخوف والفقر والمرض : ١٦٦ الطمع يخلق الهم : ١٣٩

فهرست الآيات القرآنية والأحاديث النبوية

(١) الآيات القرآنية

الآية :	الصحيفة
أو لم يتفكروا	٢٥
أو لم يَرَ الذين كفروا أن السموات والأرض	٢٥
أو لم ينظروا فى ملكوت السموات	٢٥
حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم	٣٨
فاعترفوا بذنوبهم فسحقاً لأصحاب السعير	١٤٤
فاعلم أنه لا إله إلا هو	٣٠
فالله أحق أن تخشوه	٢٢
فقولا له قولا ليناً	١٣٧
فلا تخافوهم وخافونى	٢٢
فماذا بعد الحق إلا الضلال	١٠٠
لقد رضى الله عن المؤمنين	٣٨
لو كنا نسمع أو نعقل	١٤٤
والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله	١٦٩-١٧٠
والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم	٢٦
وأما من خاف مقام ربه	١٢١
وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم	١٠
وجزاء سيئة سيئة مثلها	١٥١
ورسلا لم نقصصهم عليك	١٦٩
وقد فصل لكم ما حرم عليكم	٩٧
وقرونا بين ذلك كثيرا	١٦٩
ولو كنت فظا غليظ القلب	١٤٩
ولينصرن الله من ينصره	١٥، ٢٣
وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا	٢٨
ومن الناس من يشترى لهو الحديث	٩٤، ٩٦

(ب) فهرست الأحاديث النبوية

	الصحيفة
إذا عملت أمتى خمس عشرة خصلة	٩٥
إن الله بعثنى إليكم	٦٣
إن الله حرم تعليم المغنيات	٩٥
إن الله حرم المغنية	٩٣
إنما الأعمال بالنيات	١٠١
إن للموت لسكرات	١٠٦
إن المغنى أذنه بيد شيطان	٩٥
إن من أعظم الناس جرماً فى الاسلام	٩٨
إن هذا الدين بدأ غريباً	١٣
دعوا لى صاحبى	٣٦
ذلك عاجل بشرى المؤمن	١١٩
فأما المؤمن — أو قال الموقن — فيقول	٣٢
لا تغضب	١٢١
لا تنفر	١٣٧
لا يحل تعليم المغنيات	٩٤
ليكونن من أمتى قوم	٩٥
ما بال أقوام	١٤٩
من جلس إلى قينة	٩٥
من كذب على عامداً متعمداً	١٠١
نعم الادام الخل	٢٤
وأما المنافق — أو المرتاب	٣٢
يأتى على الناس زمان	١٢٨
يشرب ناس من أمتى الخمر	٩٦

فهرست الأعلام

التى وردت ترجمتها فى حواشى الكتاب

	الصحيفة
ابن أبى الورد	٩٣
ابن الحوات = عبد الرحمن ابن خلف المعافرى	
ابن السراج = محمد بن السرى البغدادى	٦٤
ابن عبد البر	١٠١
ابن فورك	٢٨
ابن الكتانى = محمد بن الحسن	٢١ ، ٨٣
أبو عبيدة بن فضيل بن عياض	٩٤
أبو المرجى ضرار بن على	٩٣
أحمد بن رشيق	٢٣
أحمد بن عباس ، أبو جعفر	٢٣
اذرباذ الموبذ	٣٩
الاسكندر الأفروديسى	٤٣
اسماعيل بن عياش	٩٧
اندروماخس	٤٤
الأويسى = عبد العزيز بن عبد الله القرشى	٩٥
الباقلانى = أبو بكر محمد بن الطيب	٢٨
بطليموس القلوذى	٤٥
ثابت بن أبى ثابت	٦٥
الحلاج = على بن منصور	٣٩
دياسقوريدس	٤٥
الزبيدى = محمد بن الحسن	٦٤
زيد بن الحباب	٩٦
سعد بن ناشب	٦٦
سعيد (سعديا) الفيومى	٣٨

	الصحيفة
عبد الباقى بن بريال الحجارى	١٠١
عبد العزيز بن عبد الله القرشى = الأويسى	٩٥
عبد الرحمن بن أحمد بن بشر أبو المطرف	٢٣
عبد الرحمن بن سابط	٩٣
عبد الملك بن حبيب	٩٤
عثمان بن محامس	٤٠
عزرا الكاتب	٥٣
على بن منصور = الحلاج	٣٩
مالك بن أبى مريم	٩٦
محمد بن الحسن ، أبو عبد الله = ابن الكتانى	٢١ ، ٨٣
محمد بن الحسن الزبيدى	٦٤
محمد بن السرى البغدادى = ابن السراج	٦٤
معاوية بن صالح	٩٦
هشام بن الحكم	٣٩
يونس بن عبد الله بن مغيث	٢٣ ، ٧٠

فهرست المراجع

١ — ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ، ط . بولاق

٢ — ابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك : كتاب الصلة (المكتبة الأندلسية) ط . مدريد ١٨٨٣ ء

٣ — ابن الجوزى : المنتظم ، حيدر آباد ١٣٥٨ ﻫ

٤ — ابن حجر العسقلانى : تهذيب التهذيب ، حيدر آباد ١٣٤٧ ﻫ

٥ — ابن حجر العسقلانى : لسان الميزان ، حيدر آباد ١٣٣٠ ﻫ

٦ — ابن حجر الهيثمى : مجمع الزوائد ط . القدسى

٧ — ابن حزم : الاحكام فى أصول الأحكام ط . مصر ١٣٤٥ ﻫ

٨ — ابن حزم : المحلى ، إدارة الطباعة المنيرية ، القاهرة ١٣٤٧ ﻫ

٩ — ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، المطبعة الأدبية ١٣١٧ ﻫ

١٠ — ابن حزم : رسائل ابن حزم (مخطوطة شهيد على رقم ٢٧٠٤)

١١ — ابن حزم : كتاب جوامع السيرة (نسخة مصورة عن مخطوطة بالمدينة المنورة)

١٢ — ابن الخطيب ، لسان الدين : الاحاطة فى أخبار غرناطة ، ط . مصر ١٣١٩ ﻫ

١٣ — ابن خلدون : المقدمة ، ط . بيروت ، ١٨٨٩

١٤ — ابن رجب الحنبلى : كشف الكربة فى وصف أهل الغربة ، مطبعة النهضة الأدبية بمصر ١٣٣٢ ﻫ

١٥ — ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق الدكتور شوقى ضيف ، مطبعة دار المعارف بمصر .

١٦ — ابن عبد ربه : العقد ، ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٧ — ابن عساكر : تبيين كذب المفترى ، نشر القدسى ط دمشق ١٣٤٧ ﻫ

١٨ — ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ط . الحلبى ١٣٧٠ ﻫ

١٩ — ابن النديم : الفهرست ، نشر فلوجل

٢٠ — أبو الحسن النباهى : المرقبة العليا أو تاريخ قضاة الأندلس ، ط . دار الكاتب المصرى .

٢١ — أبو داود : مسند أبى داود ، مطبعة أنصار السنة المحمديه .

٢٢ — أبو على القالى : الأمالى ، دار الكتب ١٣٤٤ هـ

٢٣ — أبو نصر الحميدى : جذوة المقتبس ، نشر مكتبة الثقافة الإسلامية بمصر .

٢٤ — إخوان الصفا : رسائل إخوان الصفا ، المطبعة العربية بمصر ١٩٢٨

٢٥ — أدى شير : الألفاظ الفارسية المعربة ، بيروت ١٩٠٨

٢٦ — الإسفراييني : التبصير ، ط . مصر

٢٧ — البغدادى : خزانة الأدب ، بولاق ١٢٩٩ هـ

٢٨ — الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، القاهرة ١٣٤٩ هـ

٢٩ — الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، محمد منير ١٣٤٢ هـ

٣٠ — الرازى : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، لجنة التأليف ١٣٥٦ هـ

٣١ — السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، الحسينية ١٣٢٤ هـ

٣٢ — السيوطى : بغية الوعاة ، السعادة ١٣٢٦ هـ .

٣٣ — الشهرستانى : الملل والنحل (على هامش الفصل) .

٣٤ — الصفدى : الوافى بالوفيات ط . الآستانة .

٣٥ — عبيد بن الأبرص : ديوان عبيد ط . ليدن ١٩١٣

٣٦ — القفطى : إنباه الرواة ، تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم ط . دار الكتب المصرية .

٣٧ — القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ط . ليبسك ، ١٩٠٤

٣٨ — القفطى : أخبار المحمدين من الشعراء (صورة دار الكتب المصرية)

٣٩ — المسعودى : مروج الذهب ، ط . باريس .

٤٠ — مسلم بن الحجاج : صحيح مسلم بشرح النووى ، المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٤٧ هـ

٤١ — ياقوت الحموى : معجم الأدباء (إرشاد الأريب) دار المأمون ، ١٣٢٣ هـ .

X 2
47

تصويب

سطر	صفحة	الخطـــأ	الصـــواب
٢٥	٩	تقتدرون	(الكلمة غير منقوطة فى الأصل)
٥	٤٤	وكما يقول يحيى	يمكن أن تقرأ « وكما نقول نحن » ويكون الشعر لابن حزم ، والبيتان يشبهان شعره فى الطريقة والموضوع .
٥	١١٥	الفقية	الفقيه
١٥	١٢٦	العقل	العاقل
١٩	١٣١	ذلك	ذلك الآخر
٢٥	١٣٢	شاكر	شاكرد

72 N 92 I
198
265

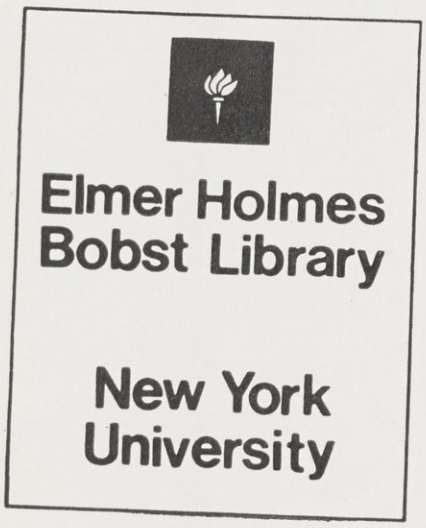
Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University